القبس

الكتاب للجميع
٨٩

مجاناً مع القبس

جول ڤيرن

حول العالم في ثمانين يوماً

ترجمة:
أحمد محمد رضا
أحمد صفي الدين خاطر

مراجعة وتقديم:
عبدالحميد الدواخلي

مجاناً مع جريدة القبس

القبس

■

رئيس التحرير

وليد عبد اللطيف النصف

■

فاكس:٢٤٨٣٤٣٥٥
هاتف:٢٤٨١٢٨١٩/٢٢
www.alqabas.com.kw
qabas@alqabas.com.kw

جول ڤيرن

كلمة عن المؤلف

جول ڤيرن Jules Verne أديب فرنسي ولد في نانت عام ١٨٢٨ وتوفي عام ١٩٠٥ . بدأ حياته الأدبية بالكتابة للمسرح ، فألف مسرحية «أعواد القش المحطمة Les pailles rompues» ثم أتبعها بمسرحيات من طراز الأوبرا الفكاهية Opéra - comique ، منها لعبة الاستخفاء colin - maillard . ثم نشر في صحيفة «التربية والتسلية» قصتين : خمسة أسابيع في «بالون» ، ورحلة استكشافية . وقد صدرت القصة الثانية بعد قليل من الزمان في كتاب كامل .

لقد أدخل جول ڤيرن لوناً جديداً في الأدب الفرنسي هو القصة العلمية والجغرافية التي سرعان ما دعمت شهرته .

وإنا لنذكر من بين قصصه البديعة التي تنم عن خيال علمي خصب ، والتي تعد من القصص المسلية بقدر ما هي مثقفة : «رحلة في باطن الأرض» ورحلة من الأرض إلى القمر ، ورحلة حول القمر ، وصحراء الجليد ، ومغامرات الكابتن هوتراس ، وأولاد الكابتن جرانت ، واكتشاف الأرض والإنجليز في القطب الشمالي ، وعشرون ألف فرسخ تحت سطح البحر ، ومدينة طافية ، والجزيرة الغامضة ، وبلاد الفراء ، ومغامرة ثلاثة من الروس وثلاثة من الإنجليز ، وميشيل ستروجوف ،

ورحلات ومغامرات في العالم الشمسي ، وكابتن في الخامسة عشرة من العمر ، وملايين البيجوم ، وروبير الغازي ، وسيد العالم ، الخ .

وقد أخرج المسرح من قصص جول ڤيرن : حول العالم في ثمانين يوماً ، وأولاد الكابتن جرانت ، وميشيل ستروجوف ، وكيرابان العنيد . . . والموضوعات التي طرقها جول ڤيرن هي الموضوعات نفسها التي تشغل علماء العالم اليوم ، وتقوم بينهم منافسة شديدة في اكتشاف الكواكب الأخرى وإعداد رحلات في الفضاء للكواكب والقمر ، واختراع سفن الفضاء والصواريخ وما إليها .

وعلى هذا فجول ڤيرن يعتبر رائداً من رواد علم الفضاء ، تنبأ في القرن الماضي بما سيقع في هذا القرن ، كما يعد مكتشفاً نظرياً لأعماق البحار وباطن الأرض والقطبين : الشمالي والجنوبي .

ولم يقتصر أدبه على وصف الكواكب والأرض والبحار والقارات والأقاليم ، بل وصف الناس وصفاً دقيقاً في عاداتهم وأخلاقهم وأديانهم وأفراحهم وأحزانهم وعواطفهم وغرائزهم وميولهم وأهوائهم وما إليها .

فأدب جول ڤيرن أدب خصب غزير ، فيه علم كثير ونظريات صادقة وآراء راجحة وتنبؤ لما يأتي به الغد ، تنبؤ قائم على ثقافة علمية حقة وذكاء شديد ونظر بعيد وتحليل صادق .

وعلى هذا أصبح جول ڤيرن أديباً عالماً وكاتباً عالمياً ، لأن أدبه مرآة صادقة لثقافة علمية غزيرة ودلالة واضحة على ما يستطيعه الأديب الموهوب حين يقبل على الدراسة والقراءة في عزم وجد وفهم وإخلاص .

عبد الحميد الدواخلي

١

فيلياس فوج وباسپارتو يتفقان

على أن يعمل الثاني خادماً عند الأول

في عام ١٨٧٢ كان مستر فيلياس فوج يقطن المنزل رقم ٧ بشارع « ساڤيل رو » في حدائق برلنجتون ، وهو المنزل الذي مات فيه « شيريدان »[١] في عام ١٨١٦ . ومستر فيلياس فوج من أكثر أعضاء نادي « الريفورم » ظهوراً وغرابة أطوار ، على الرغم من أنه كان يبذل جهده حتى لا يلفت إليه الأنظار .

وعلى ذلك فقد حل فيلياس فوج في هذا المنزل محل خطيب من أكبر الخطباء الذين تفخر بهم إنجلترا . وفيلياس فوج شخص غامض لا يعرف عنه سوى أنه وجيه من الوجهاء ومن أبرز رجال المجتمع الإنجليزي الراقي .

كان يقال إنه يشبه « بيرون » في رأسه فحسب ، لأن قدميه كانتا سليمتين من كل عيب[٢] . كان له رأس بيرون وقد أضيف إليه شاربان ولحية نامية على الخدين . ولكنه على خلاف بيرون كان قليل التأثر ، قد يمتد به العمر ألف عام دون أن تظهر عليه علامات الشيخوخة .

وإذا لم يكن هناك شك في أن فيلياس فوج إنجليزي الموطن ، فإنه قد

١ شريدان خطيب ومؤلف درامي إنجليزي مشهور.

٢ المعروف أن « بيرون » كان أعرج.

لا يكون من أهل لندن . ولم يره أحد على الإطلاق في البورصة أو في المصرف أو في أي بيت تجاري في المدينة . ولم تستقبل موانئ لندن أو أرصفة مينائه سفينة يستأجرها فيلياس فوج . ولم يظهر اسمه في أية لجنة إدارية ولم يلمع اسمه في أي مجمع للمحامين أو في الكنيسة أو في فندق «لنكولن» أو في فندق «جراي» . ولم يترافع إطلاقاً في المحاكم العليا ولا في محكمة الملكة أو المحكمة الإدارية أو المحكمة الكنسية . إنه لم يكن من رجال الصناعة والتجارة . كما لم يكن بائعاً ولا زارعاً . ولم يكن عضواً في المعهد الملكي البريطاني أو في معهد لندن أو في معهد أصحاب الحرف أو في معهد «روسل» أو في المعهد الأدبي الغربي أو في معهد القانون أو في معهد الفنون والعلوم الموضوع مباشرة تحت الرعاية الملكية السامية . وأخيراً فإنه لم يكن عضواً في أية شركة من تلك الشركات الكثيرة التي كانت منتشرة في العاصمة الإنجليزية ، من شركة «أرمونيكا» حتى تلك الشركة التي قد أسست لإبادة الحشرات الضارة .

لم يكن فيلياس فوج سوى عضو في نادي «الريفورم» . ولا عجب إذا ما قبل رجل في مثل غموضه عضواً في مثل هذه الجمعية الموقرة ، فإنه إنما قبل بناء على توصية السادة إخوان «بارينج» إذ كان له حساب مفتوح في مصرفهم . وكانت «الشيكات» التي يحررها تصرف بانتظام ، عند تقديمها إلى مصرفهم ، من حسابه الجاري الذي كان دائناً على الدوام .

وإنا لنتساءل هل كان فيلياس فوج هذا غنياً ؟ لا خلاف في ذلك . إلا أن أعلم الناس ببواطن الأمور لم يتمكن من معرفة مصدر ثرائه . وكان فيلياس فوج آخر من يصح أن يوجه إليه مثل هذا السؤال . وعلى أية حال فهو لم يكن مسرفاً في شيء ، كما أنه لم يكن بخيلاً ، إذ كلما احتاج الأمر إلى المعاونة في استكمال عمل نافع ، فإنه كان يقدم المال اللازم لذلك في تكتم شديد دون أن يذكر اسمه .

وعلى الجملة ، فلم يكن ثمة من هو أكثر منه انطواء على نفسه : يتكلم قليلاً ، ويبدو أشد غموضاً كلما طال صمته ومع ذلك فقد كانت

حياته منتظمة : كان يؤدي دائماً الشيء نفسه في نظام حسابي دقيق مما يدفع الفضوليين إلى البحث عن السر المستتر وراء ذلك .

وهل سبق له أن قام برحلات ؟ ذلك محتمل ، فقد كان يملك مصوراً للعالم لا يوجد أفضل منه عند سواه ، ولم تكن في الدنيا بقعة ، مهما كانت نائية ، لايبدو أنه يعرف عنها بعض المعلومات الخاصة . وكان أحياناً يصحح ، في كلمات وجيزة واضحة ، آلاف الأحاديث التي كانت تتداول في النادي عن المسافرين المفقودين أو التائهين . فكان يذكر في هذا الصدد الاحتمالات الحقيقية . وكثيراً ما اتضح أن أقواله قد أوحت بها بصيرة نافذة ، طالما أثبتت الأحداث صدقها . كان رجلاً قد سافر إلى كل مكان ، في خياله على الأقل .

ومع ذلك فقد كان من المحقق أن فيلياس فوج لم يغادر لندن . وقد أقر أولئك الذين شرفوا بمعرفته أكثر بقليل من غيرهم أنه لم ير إطلاقاً في مكان غير ذلك الطريق المستقيم الذي كان يسلكه كل يوم للذهاب من منزله إلى النادي . وكانت وسيلته الوحيدة لتمضية الوقت هي أن يقرأ الصحف أو يلعب لعبة الورق المسماة «هويست» . وكثيراً ما كان يربح من تلك اللعبة الهادئة ، التي تلائم طبيعته ، على أن أرباحه لم تكن تدخل جيبه ، وإنما كانت تظهر في ميزانيته في باب الصدقات ، وتمثل مبالغ جسيمة .

ومن جهة أخرى لابد لنا من أن نعترف بأن السيد فوج كان يلعب في الواقع حباً للعب ، لا يبغي من وراء ذلك ربحاً . وكان اللعب بالنسبة إليه صراعاً للمصاعب ، ولكنه صراع ثابت لا حركة فيه ولا تنقل ولا تعب ، مما يتفق مع سجيته .

ولم يعرف الناس لفيلياس فوج زوجة أو ولداً ، وهو أمر قد يحدث لأشرف الناس مكانة ، كما لم يعرف له أهل أو أصدقاء . لقد كان يعيش وحيداً في منزله بساقيل رو ، ذلك المنزل الذي لم يكن يدخله أحد سواه . ولم تكن في حياته المنزلية أية مشكلة . وكان يكفيه خادم واحد يقوم على خدمته ، ولما كان يتناول وجبتي الغداء والعشاء في ساعات محددة

تحديداً تاماً وفي القاعة نفسها وعلى المائدة نفسها ، بعيداً عن زملائه ، ولا يدعو في بيته أي شخص غريب . فقد كان لا يعود إلى منزله إلا ليأوي إلى فراشه حين ينتصف الليل ، وكان لا يستعمل مطلقاً تلك الغرف المريحة التي يضعها نادي الريفورم تحت تصرف أعضائه . وكان يقضي عشر ساعات كل يوم في منزله نائماً أو مشغولاً بزينته .

وإذا خرج للنزهة ، مشى بخطا متساوية في الردهة التي غطيت أرضيتها بخشب (الپاركيه) المزخرف ، أو في الرواق الدائري الذي تعلوه قبة ذات نوافذ زجاجية زرقاء اللون ، يحملها عشرون عموداً يونانياً من الرخام الأحمر المزركش . وإذا أقبل على تناول وجبة الغداء أو العشاء ، قامت المطابخ ومخازن الأغذية ومستودعات السمك ومعامل الألبان بالنادي بتزويد مائدته بالمأكولات الشهية! وقام خدم النادي ، وهم قوم وقورون يلبسون ملابس سوداء وأحذية ذات نعال من الكستور ، بتقديم الطعام إليه في أطباق خاصة من الخزف وعلى قماش جميل من التيل «الساكسي» . وكانت مشروباته المعطرة ونبيذه المعتق تقدم كلها في كؤوس النادي المصنوعة من البللور الصافي . وأخيراً كانت قطع الثلج المستوردة بثمن باهظ من بحيرات أمريكا تحفظ له مشروباته في درجة معينة من البرودة لا تزيد ولا تنقص .

فإذا قيل عن إنسان يحيا مثل هذه الحياة إنه غريب الأطوار فلا مناص من أن نعترف بأن لهذه الغرابة مزايا كثيرة .

ويمتاز مسكن «ساڤيل رو» بقدر كبير من الرفاهية ، مع أنه ليس منزلاً فاخراً . ثم إن خدمته يسيرة بفضل العادات الثابتة التي يتمسك بها مستأجره .

ومع ذلك فقد كان فيلياس فوج يقتضي من خادمه دقة ونظاماً غير عاديين .

ففي ذلك اليوم ، وهو الثاني من أكتوبر ، كان فيلياس فوج قد أعفى من الخدمة خادمه جيمس فورستر بعد أن ثبتت إدانته في خطأ ارتكبه ؛ إذ إنه أحضر لسيده ماء ساخناً حرارته في درجة ٨٤

«فهرنهيت» بدلاً من ٨٦ ليحلق لحيته . وكان فوج ينتظر الخادم الذي سيخلف خادمه السابق ، والذي كان عليه تقديم نفسه بين الساعة الحادية عشرة والحادية عشرة والنصف .

وكان فيلياس فوج جالساً كالطود الراسخ في مقعده ، قدماه متقاربتان كقدمي جندي في استعراض عسكري ، ويداه مرتكزتان على ركبتيه ، وجسمه مستقيم ورأسه عال . كان يتأمل دوران عقرب ساعة الحائط الكبيرة ، وهي ذلك الجهاز المعقد الذي يحسب الساعات والدقائق والثواني والأيام والشهور والسنين . وكان عليه وفقاً لعادته اليومية أن يبرح المنزل ويتوجه إلى نادي الريفورم . وفي تلك اللحظة سُمع قرع على باب غرفة الاستقبال الصغيرة التي كان جالساً فيها ، وظهر جيمس فورستر ، خادمه المطرود وقال :

– الخادم الجديد!

وبدا شاب في الثلاثين من عمره ، أدى التحية . فسأله فيلياس فوج . أنت فرنسي وتدعى جون ، أليس كذلك ؟

فأجاب القادم الجديد : جان پاسپارتو[1] . ومهما كان الأمر في هذه التسمية فهي كنية لصقت بشخصي لتعبر عن موهبتي الطبيعية في التخلص من المآزق ، وأعتقد يا سيدي أنني رجل أمين . وقد مارست في الواقع عدة حرف ، فقد كنت مغنياً متجولاً ثم مدرباً للخيول في سيرك ، وكنت أقوم بألعاب الفروسية كما كان يقوم بها «ليونار» وأرقص على الحبل مثل «بلوندان» . وأصبحت مدرساً للألعاب الرياضية كي أستفيد من مواهبي . وفي نهاية المطاف عملت جاويشاً في فرقة مطافئ باريس حيث اشتركت في إطفاء حرائق مشهورة كانت قد شبت بها . ولكن ها قد مضت عليَّ خمس سنوات منذ أن غادرت فرنسا واشتغلت خادماً خاصاً في المنازل لرغبتي في تذوق الحياة المنزلية . ولما أصبحت أخيراً عاطلاً ، وعلمت أن مستر فيلياس فوج هو أكثر رجال المملكة المتحدة

١ – كلمة پاسپارتو فرنسية ومعناها نوع من ورق يستعمل إطاراً لأي شيء أو المفتاح العمومي الذي تفتح به جميع الأبواب.

محافظة على الوقت واستقراراً في المعيشة ، فقد جئت إلى منزل سيدي آملاً أن أعيش فيه عيشة هادئة وأن أنسى فيه كل شيء ، حتى اسمي هذا (پاسپارتو) .

فأجاب مستر فوج : « پاسپارتو » إن هذا يوافقني . لقد أوصوني بك خيراً ، وعندي معلومات طيبة عنك . هل تعرف شروطي ؟

– نعم أعرفها يا سيدي .

– حسناً ، كم ساعتك ؟

فأجاب پاسبارتو وقد أخرج ساعة فضية كبيرة من أقصى جيب صدرته :

– الحادية عشرة واثنتان وعشرون دقيقة .

فقال مستر فوج : ساعتك تؤخر الوقت .

– معذرة يا سيدي ، لا يمكن إطلاقاً أن تؤخر .

– إنها تؤخر أربع دقائق . دعنا من هذا ويكفي أن تلاحظ هذا الفرق .

إنك الآن قد دخلت في خدمتي في الساعة الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين من صباح الأربعاء الثاني من أكتوبر عام ١٨٧٢ .

وما أن انتهى فيلياس فوج من قوله هذا حتى نهض وتناول قبعته بيده اليسرى ووضعها على رأسه بحركة آلية ثم انصرف دون أن يفوه بكلمة أخرى .

وسمع پاسپارتو باب الشارع يغلق مرتين : الأولى عند خروج سيده ، والثانية عند انصراف سلفه (جيمس فورستر) .

وبقي پاسپارتو وحيداً في منزل « ساڤيل رو » .

٢

واقتنع پاسپارتو بأنه قد عثر أخيراً على مثله الأعلى

قال پاسپارتو لنفسه وقد تملكته الدهشة لأول وهلة : « أقسم إنني رأيت عند مدام « توسو » شخصيات حية تماماً مثل هذا السيد الجديد!

ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن « شخصيات مدام توسو » إنما هي تماثيل من الشمع يقبل الكثيرون على مشاهدتها في لندن ، ولا ينقصها في الحقيقة إلا أن تنطق .

وفي اللحظات القليلة التي تأمل فيها پاسپارتو سيده الجديد ، أتيح له أن يفحصه في سرعة تنطوي على الدقة ، فقد لاحظ أن سيده رجل يبلغ من العمر أربعين عاماً تقريباً ، له وجه جميل ونبيل ، طويل القامة ، لا تعيبه بدانته القليلة ، شعره فاتح اللون في الرأس واللحية على السواء ، ليس بصدغيه غضون ، يعلو وجهه بعض الشحوب ، يتصف كثيراً بتلك الصفة التي يسميها علماء الفراسة « الراحة مع الحركة » وهي صفة تلازم كل أولئك الذين يقومون بأعمال أكثر مما يأتون بضوضاء . وهو هادئ الطبع عديم المبالاة صافي العين ، ثابت الجنان . إنه المثل الكامل لأولئك الإنجليز المتصفين برباطة الجأش ممن نلقاهم كثيراً في المملكة المتحدة وقد صورهم الرسام « انجليكا كوفمان » بريشته الساخرة .

وإذا نظرنا إلى هذا السيد من خلال الأعمال التي يؤديها في حياته وجدناه إنساناً متزناً في كل عضو من أعضائه ، دقيقاً للغاية دقة ساعة « كرونومترية » من طراز « ليروي » أو « ايرنشو » . فالواقع أن فيلياس فوج هو الدقة المجسمة في شخصه ، مما كان يبدو واضحاً في تعبيرات قدميه ويديه إذ إن أعضاء جسم الإنسان كأعضاء الحيوانات وسائل معبرة عن الأحاسيس والمشاعر .

وفيلياس فوج من أولئك الذين يتبعون في حياتهم نظاماً حسابياً دقيقاً . فلا يتعجلون أبداً ، وهم دائماً على أهبة الاستعداد ، مقتصدون في خطواتهم وفي حركاتهم فهو لا يخطو خطوة زائدة على الحاجة إذ إنه يتبع أقصر الطرق ولا يضيع نظرة يلقيها إلى السقف في غير حاجة إليها ، ولا يسمح لنفسه بإشارة لا موجب لها .

ولم يره أحد متأثراً أو منفعلاً . كان أقل الرجال عجلة في أداء أعماله . ولكنه كان يصل دائماً في موعده . ومع ذلك فقد كان يعيش وحيداً بعيداً عن كل دائرة اجتماعية . كان يعلم أن الحياة تستلزم الاتصال بالناس . ولما كان هذا الاتصال يؤخر قضاء الأمور فلم يكن يتصل بأحد منهم .

أما « جان » المدعو « پاسپارتو » وهو پاريسي حقيقي ، من أهل پاريس فقد كان يعيش في إنجلترا منذ خمس سنوات ، وقد مارس في لندن مهمة الخادم الخاص في المنازل ، وبحث دون جدوى عن سيد يستطيع أن يطمئن إلى خدمته .

ولم يكن پاسپارتو من أولئك الخدم الماجنين الذين نراهم في المسرحيات الهزلية بأكتافهم العالية وأنفهم البارز ونظرتهم الساكنة وعينهم الجامدة . كلا ، وإنما كان شاباً طيب القلب وسيم المحيا ، له شفتان بارزتان بروزاً خفيفاً . وكان دائم الاستعداد لتذوق الحياة وملاطفة الناس . كان إنساناً خدوماً رقيق الحاشية ، له رأس من هذه الرؤوس الطيبة المستديرة التي يحب المرء أن يراها بين كتفي صديق ، وله عينان زرقاوان وبشرة زاهية اللون ووجه ممتلئ حتى إنه يستطيع أن

يرى بنفسه بروز وجنتيه ، وكان ذا صدر عريض وجسم كبير وعضلات قوية ، يتمتع بقوة « هرقلية » خارقة ، نمت نمواً كبيراً بفضل التمرينات الرياضية التي كان يمارسها في صباه وكان شعره القاتم اللون ثائراً فوق رأسه . وإذا كان المثالون في العصور القديمة يعرفون ثماني عشرة وسيلة لتصفيف شعر الإلهة « منيرفا » فإن « پاسپارتو » لم يكن يعرف سوى طريقة واحدة لتصفيف شعره : هي أن يمرر به مشطاً كبيراً ثلاث مرات .

إن القليل من الفطنة تجعلنا لا نتوقع أي توافق بين طبيعة هذا الشاب المنبسطة وطبيعة فيلياس فوج . فهل يستطيع « پاسپارتو » أن يكون ذلك الخادم الرقيق في عمله الذي يريده سيده ؟ لن نعلم شيئاً عن ذلك حتى نختبره . على أنه كان يصبو إلى حياة هادئة مريحة . بعد أن أمضى أيام صباه في كثير من التشرد حينما سمع الناس يمتدحون النظام الإنجليزي وبرود الإنجليز المهذبين ذلك البرود الذي جرى مجرى الأمثال ، جاء إلى إنجلترا سعياً وراء التوفيق . ولكن التوفيق جانبه حتى ذلك الحين ، فلم يستطع أن يستقر في مكان وقد خدم في عشرة منازل ، كان السادة فيها متقلبي الطباع ، لا يستقرون على شيء ، غير معتدلين ، ينشدون المغامرات أو يجوبون البلاد بصورة لم تعد تلائم پاسپارتو . وكان سيده الأخير ، لورد « لونجز فيري » الشاب عضو البرلمان ، يعود إلى منزله محمولاً في كثير من الأوقات على أكتاف رجال الشرطة بعد أن يكون قد قضى ليلته في حانات « هاي ماركيت » . ولما كان پاسپارتو يريد قبل كل شيء أن يشعر بالاحترام نحو سيده ، فقد جرؤ وأبدى بعض الملاحظات المهذبة التي وقعت من نفس هذا السيد موقعاً سيئاً فطرده . وعلم في تلك الأثناء أن مستر فيلياس فوج يبحث عن خادم ، فجمع ما استطاع من المعلومات عن هذا السيد وعرف أنه يحيا حياة رتيبة ، لا يبيت خارج منزله ولا يسافر ولا يتغيب إطلاقاً يوماً واحداً . فهو شخص إذن يوافقه تماماً فتقدم إليه ودخل في خدمته في تلك الظروف التي عرفناها من قبل .

ولما دقت الساعة الحادية عشرة والنصف ، وجد پاسپارتو نفسه

وحيداً في منزل «ساڤيل رو» ، فبدأ يفحصه ، وأخذ يجوبه من قبو النبيذ إلى مخزن الحبوب . وقد أعجبه ذلك المنزل النظيف المنظم تنظيماً دقيقاً والمعد للخدمة إعداداً حسناً . وبدا له المنزل كقوقعة حلزونية الشكل ، ولكنها قوقعة يضيئها ويدفئها غاز الأيدروجين الكاربون الذي كان يؤدي جميع مطالب الإضاءة والحرارة .

وعثر پاسپارتو دون جهد في الطابق الثاني على الغرفة المخصصة له فوجدها تناسبه ، ووجد فيها أجراساً كهربائية وأنابيب سمعية للتخاطب توصلها بشقق الطابقين الأرضي والأول . ووجد فوق المدفأة ساعة كبيرة كهربائية أيضاً تتصل بساعة الحائط الموجودة في غرفة نوم فيلياس فوج ، وتدق الساعتان معاً في وقت واحد فقال پاسپارتو لنفسه : هذا يوافقني ، وأيم الله ، إنه ليوافقني!

كما وجد في غرفته مذكرة معلقة فوق ساعة الحائط ، وكانت الخدمة اليومية تبدأ في الساعة الثامنة صباحاً ، وهو الوقت الذي ينهض فيه فيلياس فوج ، وتنتهي في الساعة الحادية عشرة والنصف ، حيث يغادر منزله للذهاب إلى نادي الريفورم لتناول طعام الغداء ، وكانت تلك المذكرة تشمل جميع التفاصيل : فالشاي والمشويات في الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة والعشرين ، ثم الماء لحلاقة الذقن في الساعة التاسعة والدقيقة السابعة والثلاثين ، وزينة الرأس في الساعة العاشرة إلا عشرين دقيقة . . وهكذا . وكان قد دون فيها كل ما يجب أن يعمل بين الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً والساعة الثانية عشرة مساء حين يأوي الرجل الفاضل المنظم إلى فراشه . وشعر پاسپارتو بسرور كبير وهو يمعن النظر في هذا المنهج ويعي بنوده المختلفة في ذاكرته .

أما خزانة ملابس السيد فقد كانت حسنة الترتيب ، عجيبة المحتويات . فلكل سروال أو رداء أو صدرة رقم مسلسل مدون في سجل يوضح التاريخ الذي يجب أن تلبس فيه تلك الثياب تبعاً لفصول السنة كما نظمت الأحذية بالطريقة نفسها .

وقصارى القول إن هذا المنزل الذي كان ولا ريب مسرحاً للفوضى

أيام «شيريدان» ، ذلك المسرف الذائع الصيت ، قد أصبح الآن مفروشاً بأثاث مريح يكشف عن رفاهية تامة . ولم تكن به مكتبة أو كتب قد تكون عديمة الفائدة لمستر فوج إذ كان نادي الريفورم يضع تحت تصرفه مكتبتين إحداهما للآداب والأخرى للقانون والسياسة .

وكانت بغرفة نومه خزانة متوسطة الحجم ، قد صنعت بطريقة تقيها الحريق وتحميها من السرقة . ولم يكن بالبيت أي سلاح أو أية أداة للصيد أو الحرب ، بل كان كل ما به ينم عن الهدوء والسلم .

وبعد أن قام پاسپارتو بفحص هذا المسكن فحصاً دقيقاً فرك يديه وانبسطت أسارير وجهه العريض وصاح بسرور قائلاً :

– إن هذا ليوافقني تماماً! هذا ما كنت أبغي! سنتفاهم معاً أنا ومستر فوج! هذا الرجل المنظم المتعلق بمنزله! إنه لرجل يشبه الآلة! بل هو الآلة نفسها! نعم ، إنه لا يسوؤني أن أخدم آلة! .

٣

حديث قد يكلف فيلياس فوج غرماً كبيراً

كان فيلياس فوج قد غادر منزله في «ساڤيل رو» في الساعة الحادية عشرة والنصف . وبعد أن خطا خمسمائة وخمساً وسبعين خطوة برجله اليمنى ومثلها برجله اليسرى ، وصل إلى نادي «الريفورم» ، وهو بناء واسع ، قائم في «بال مال» ، تكلف بناؤه ما لا يقل عن ثلاثة ملايين من الجنيهات .

وتوجه فيلياس فوج في الحال إلى غرفة الطعام التي تفتح نوافذها التسع على حديقة جميلة ذات أشجار أصبحت ذهبية اللون لمقدم الخريف . وهناك جلس إلى المائدة المعتادة التي وضعت عليها أدوات طعامه ، انتظاراً لحضوره . وكان غذاؤه يتكون من طبق مشهيات ، وسمكة مسلوقة مشربة بنوع ممتاز من الصلصة ، ومن لحم بارد قرمزي اللون محشو بسيقان الراوند وعنب الثعلب الأخضر ، وقطعة من جبن «الشستر» - يصحبها جميعاً بضعة أقداح من ذلك الشاي الممتاز المستورد خصيصاً لرواد نادي «الريفورم» .

وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة السابعة والأربعين ، نهض هذا السيد وسار إلى القاعة الكبرى ، وهي قاعة مزينة بالرسوم المحوطة بإطارات ثمينة فأعطاه خادم نسخة من صحيفة «التيمس» لم تفصل

أوراقها بعد . فقام فيلياس فوج بفك أوراق الصحيفة ، وهي مهمة شاقة . يؤديها بيد ثابتة تدل على تعوده هذا العمل . وانهمك في مطالعة الصحيفة ، حتى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين . ثم طالع صحيفة «ستاندارد» حتى وقت العشاء . وقدمت إليه تلك الوجبة بالطريقة التي قدمت بها وجبة الغداء ، بزيادة طبق من الصلصة الملكية البريطانية .

وفي الساعة السادسة إلا عشرين دقيقة ، ظهر مستر فيلياس فوج مرة ثانية في القاعة الكبرى ، وانهمك في مطالعة صحيفة «المورنينج كرونيكل» .

وبعد نصف ساعة ، أقبل الكثير من أعضاء النادي واقتربوا من المدفأة التي كانت تندلع منها نار وقودها الفحم الحجري . وكان هؤلاء الأعضاء أصدقاء فيلياس المعتادين الذين يشاركونه ولعه الشديد بلعبة «الهويست» وهم : المهندس اندرو ستيوارت ، ورجال المال جون سوليفان وصمويل فالنتين وتاجر الجعة توماس فلانجان ، وجوتييه رالف ، وهو أحد مديري بنك انجلترا ، إنهم قوم أثرياء لهم مكانتهم ، حتى في ذلك النادي الذي يضم بين أعضائه أقطاب الصناعة والمال .

وتساءل توماس فلانجان قائلاً : حسناً يا رالف ، ماذا تم في قضية تلك السرقة ؟

فأجاب أندرو ستيوارت قائلاً : «الواقع أن البنك سوف يفقد نقوده» .

وقال جوتييه رالف : إنني آمل على العكس من ذلك أن نقبض على السارق . لقد أرسل مفتشون من الشرطة وهم رجال بارعون في عملهم ، إلى أمريكا وأوربا ، وفي كل الموانئ الرئيسة التي ترسو فيها السفن وتبحر منها ، وسوف يكون من العسير على ذلك الرجل أن يفلت منهم .

فسأل أندرو ستيوارت : ولكن ألديهم أوصاف السارق ؟

وأجاب جوتييه رالف بلهجة جدية : أقول لك أولاً إن هذا الشخص ليس لصاً .

– وكيف لا يكون لصاً ، وقد سرق خمسة وخمسين ألف جنيه من الأوراق المالية (أي ما يساوي مليوناً و٣٧٥,٠٠٠ من الفرنكات الذهبية) .

فأجاب جوتييه رالف : كلا ، إنه ليس لصاً!

وقال جون سوليفان : أهو إذن من رجال الصناعة ؟

– « إن صحيفة المورننج پوست تؤكد أنه رجل مهذب » .

ولم يكن هذا المجيب سوى فيلياس فوج الذي أطل برأسه حينئذ من بين تلك الكتلة من الأوراق الملتفة حوله ، وحيا في الوقت نفسه زملاءه الذين ردوا بالتحية .

لقد وقع الحادث الذي كانوا يتكلمون عنه ، والذي ناقشته الصحف المختلفة بالمملكة المتحدة مناقشة حادة لا هوادة فيها ، منذ ثلاثة أيام ، أي في اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر . فقد سرقت مجموعة من أوراق البنك المالية تقدر قيمتها بمبلغ خمسة وخمسين ألف جنيه ، كانت موضوعة على منضدة الصراف الأول لبنك انجلترا .

فإذا أبدى أحدهم دهشته من إمكان حدوث هذه السرقة بمثل هذه السهولة ، اكتفى المدير المساعد للبنك بالقول إن الصراف كان منهمكاً في تسجيل مبلغ وارد قدره ثلاثة شلنات وستة بنسات ، وإن الإنسان لا يستطيع إطلاقاً أن يلتفت إلى كل شيء في وقت واحد .

على أنه ينبغي أن نوجه النظر إلى أمر يفسر هذا الحادث تفسيراً أوضح ، ذلك أن تلك المؤسسة العظيمة ، التي هي بنك انجلترا ، كانت تهتم اهتماماً كبيراً بكرامة الجمهور ، فلم يكن عليها حراس ولم تكن لها نوافذ حديدية! وكان الذهب والفضة وأوراق البنك المالية تعرض مكشوفة للجمهور ، وموضوعة تحت رحمة أول إنسان يقبل عليها . فالبنك لا يشك في أمانة أي إنسان . ويروي واحد من أبرع من درسوا العادات الإنجليزية النادرة التالية : ذلك أنه دخل ذات يوم إلى إحدى قاعات البنك ، فأثار فضوله رؤية سبيكة من الذهب كانت في متناول يده ، وكانت تزن سبعة أرطال أو ثمانيةو معروضة على منضدة

الصراف . فتناول بيده تلك السبيكة وفحصها ونقلها إلى يده الأخرى ثم ذهب بها حتى نهاية دهليز معتم ، ولم يعد إلى مكانه الأول بجوار الصراف إلا بعد انقضاء نصف ساعة لم يقدم الصراف خلالها على الإتيان بأي حركة حتى ولا برفع رأسه .

على أنه في اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر لم تجر الأمور تماماً على هذا المنوال . فإن ربطة الأوراق المالية لم ترد إلى البنك . وحينما دقت الساعة الفاخرة الموضوعة في أعلى مكتب الاستقبال معلنة الخامسة ، وهذا موعد إغلاق المكاتب ، لم يكن على البنك إلا أن يدون مبلغ الخمسة والخمسين ألف جنيه في حساب الخسائر!

ولما اعترفت السلطات الرسمية بحدوث السرقة ، اختير أمهر رجال الشرطة والمخبرين السريين وأرسلوا إلى الموانئ الرئيسة : إلى ليڤربول وجلاسجو والهاڤر والسويس وبرنديزى ونيويورك وغيرها . وقررت مكافأة تبلغ ألفين من الجنيهات (أي خمسين ألف فرنك من الذهب) تمنح لمن ينجح في القبض على اللص ، فضلاً عن منحة قدرها خمسة في المائة من المبلغ الذي يتوصل إلى استرداده . وانتظاراً لتلقي المعلومات التي سيتمخض عنها التحقيق الذي بدأ في الحال ، كانت مهمة هؤلاء المفتشين أن يراقبوا مراقبة دقيقة كل أولئك المسافرين القادمين إلى هذه الموانئ أو من يغادرونها . على أنه ، كما قالت صحيفة (المورنينج كرونيكل) ، كان ثمة ما يسمح بالافتراض بأن مرتكب السرقة لم يكن عضواً في أي عصابة من عصابات اللصوص الإنجليز . . ففي نهار اليوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر ، لوحظ وجود رجل مهذب ، حسن الزي ، طيب السلوك ، وجيه المظهر ، يتجول في قاعة المدفوعات ، التي كانت مسرحاً للسرقة ، وأتاح التحقيق جمع أوصاف كافية ودقيقة عن هذا السيد ، أرسلت بها في الحال إشارة إلى جميع مخبري المملكة المتحدة والقارة الأوربية . وعلى ذلك اعتقد بعض السذج ، ومنهم جوتييه رالف ، أنهم كانوا على حق في أملهم ألا يفلت السارق من يد العدالة .

وكان هذا الحادث ، في اعتقاد الجميع ، أهم الحوادث الجارية في

لندن بل في كل أرجاء انجلترا . وتناقش الجميع وتحمسوا ، مؤيدين أو منكرين ، احتمالات نجاح شرطة العاصمة . فليس من المستغرب إذن أن نسمع أعضاء نادي «الريفورم» يناقشون الموضوع نفسه ، ولاسيما أنه كان يوجد بينهم أحد المديرين المساعدين للبنك .

ولم يشأ السيد المحترم جوتييه رالف أن يشك في نتيجة الأبحاث الجارية ، مقدراً أن المكافأة التي وضعت سوف تشعل حماس الشرطة وتوقد ذكاءهم . على أن زميله أندرو ستيوارت لم يكن يشاركه هذه الثقة . فاستمرت المناقشة إذن بين هؤلاء السادة الكرام الذين التفوا حول مائدة الميسر يلعبون «الهويست» ، وقد جلس «ستيوارت» أمام «فلانجان» ، وفالنتين أمام فيلياس فوج . وكانوا لا يتكلمون وهم يلعبون . وإنما كان الحديث المتقطع يعود إلى حدته بين حين وآخر .

وقال أندرو ستيوارت : إنني أؤكد أن الفرص كلها في صالح اللص ، الذي لابد أن يكون رجلاً بارعاً .

فأجاب رالف : دعك من هذا ، إنه لا يوجد في الدنيا بلد واحد يمكن أن يحتمي فيه .

– كيف هذا ؟

– إلى أي مكان تريده أن يذهب ؟

فأجاب أندرو ستيوارت : لا أعلم ، ولكن أرض الله واسعة .

وقال فيلياس فوج بصوت خفيض : كانت كذلك فيما مضى . . .

ثم قال وهو يقدم أوراق اللعب لتوماس فلانجان : دورك الآن يا سيدي ، هيا اقسم الورق .

وتوقف الجدال أثناء اللعب . على أن اندرو ستيوارت أثاره حين قال :

– ماذا تعني بقولك «فيما مضى»! هل صغرت الأرض مثلا ؟

فأجاب جوتييه رالف قائلاً لاشك في ذلك ، إنني أرى ما يراه مستر فيلياس فوج . إن الأرض قد صغرت ما دمنا نجتازها اليوم بسرعة تبلغ عشرة أضعاف السرعة التي كانت معروفة منذ مائة عام . وهذا ما يجعل البحث والتقصي عن المسألة التي تشغل بالنا يتمّان بسرعة أكبر .

وهذا ما يجعل أيضاً هروب اللص أكثر سهولة .

فقال فيلياس فوج : آن دورك للعب يا سيد ستيوارت!

على أن ستيوارت الذي كان ولم يزل متشككاً لم يقتنع بهذا الكلام . وما أن انتهى الدور حتى قال :

– يجب الاعتراف يا سيد رالف بأنك تجد في هذا الموضوع مادة مسلية للدعابة حين تقول إن الأرض قد صغرت بحجة أنه يمكن الآن إتمام الدوران حولها في ثلاثة شهور .

فقال فيلياس فوج : ثمانين يوماً فقط .

وأضاف جون سوليفان قائلاً : حقاً أيها السادة ، في ثمانين يوماً فقط منذ أن افتتح الخط الحديدي التابع لمؤسسة سكك حديد شبه جزيرة الهند الكبرى في الإقليم الذي يقع بين روثال والله آباد . وإليكم التقدير الذي وضعته صحيفة المورنينج كرونيكل :

من لندن إلى السويس في السكك الحديدية والبواخر :

شركات «مون سينز» وبرنديزي	٧ أيام
من السويس إلى بومباي ، في الباخرة	١٣ يوماً
من بومباي إلى كالكوتا في السكة الحديدية	٣ أيام
من كالكوتا إلى هونج كونج (في الصين) في الباخرة	١٣ يوماً
من هونج كونج إلى يوكوهاما (في اليابان) في الباخرة	٦ أيام
من يوكوهاما إلى سان فرنسيسكو ، في الباخرة	٢٢ يوماً
من سان فرنسيسكو إلى نيويورك ، في السكة الحديدية	٧ أيام
من نيويورك إلى لندن ، في الباخرة والسكة الحديدية	٩ أيام
فيكون المجموع	٨٠ يوماً

فصاح اندرو ستيوارت الذي فصل في غفلة منه ورقة رئيسة من أوراق اللعب : نعم في «ثمانين يوماً» ، ولكن هذه المدة لم يعمل فيها حساب لرداءة الجو والرياح المضادة والعواصف وخروج القطارات عن القضبان .

وأجاب فيلياس فوج ، وهو مستمر في اللعب إذ إن المناقشة في

هذه المرة لم تتوقف احتراماً للعبة الهويست : هذه المدة تضم كل الاحتمالات .

فصاح أندرو ستيوارت : حتى ولو أقدم الهندوس أو الهنود على رفع قضبان السكة الحديدية ، أو أوقفوا القطر وسلبوا عربات البضائع ، أو سلخوا رؤوس المسافرين ؟

وأجاب فيلياس فوج : «المدة تشمل كل الاحتمالات» . ثم أضاف وهو يكشف عن ورقه : «ورقتان رئيستان رابحتان» .

وكان هذا دور أندرو ستيوارت ليخلط ورق اللعب . فجمع الورق قائلاً : «أنت محق من الناحية النظرية فقط يا مستر فوج ، وإنما في العمل . . .»

- وفي العمل أيضاً ، يا مستر ستيوارت .
- أود مخلصاً أن أراك تقوم بهذا العمل .
- إنما يتوقف الأمر عليك ، هيا نرحل معاً .

فصاح ستيوارت : فلتحفظني السماء من هذا الأمر . ولكن أراهن بمبلغ أربعة آلاف جنيه (مائة ألف فرنك ذهب) على أن هذه الرحلة في مثل تلك الظروف مستحيلة .

فأجاب مستر فوج : إنها على العكس من ذلك ممكنة .

- حسناً ، قم بها إذن!
- السياحة حول الأرض في ثمانين يوماً ؟
- نعم .
- أود ذلك!
- متى ؟
- في الحال . وإنما أنبهكم إلى أنني سأقوم بها على نفقتكم .

فصاح اندرو ستيوارت الذي بدأ يتغيظ من إصرار رفيقه :

«هذا جنون! هيا ، من الخير لنا أن نلعب»

وأجاب فيلياس فوج : «اخلط الورق جيداً»

فتناول أندرو ستيوارت الورق ثانية بيد مضطربة ، وما لبث أن وضعه فجأة على المنضدة قائلاً : «حسناً يا مستر فوج ، نعم ، إنني أراهن بأربعة آلاف جنيه! . . .»

فقال فالنتين : «ليهدأ بالك يا عزيزي ستيوارت ، إن الأمر ليس جدياً» .

وأجاب أندرو ستيوارت : «حينما أقول إني أراهن ، فإنني أكون دائماً جاداً في هذا القول» .

فقال مستر فوج : «فليكن!» ثم التفت صوب زملائه قائلاً : «إنني أملك عشرين ألف جنيه مودعة في مصرف إخوان بارينج ، وسأجازف بها عن طيب خاطر . . .»

فصاح جون سوليفان قائلاً : «عشرين ألف جنيه! يالله! عشرين ألف جنيه قد تخسرها بسبب تأخر طارئ!»

فأجاب فيلياس فوج ببساطة : «إن الطوارئ لا حساب لها عندي»

- ولكن مدة الثمانين يوماً هذه يا مستر فوج لم تحسب إلا على اعتبار الحد الأدنى للرحلة» .
- إن حداً أدنى يحسن استعماله لفيه كل الكفاية .
- على أنه يلزم القفز بمهارة وطبقاً للقواعد الرياضية من القطر إلى البواخر ومن البواخر إلى السكك الحديدية حتى لا تطول هذه المدة .
- سأقفز طبقاً للأصول الرياضية .
- هذه دعابة!

فأجاب فيلياس فوج : «إن الانجليزي الأصيل لا يمزح أبداً في الأمور التي لها من الجد ما للرهان . إنني أراهن بمبلغ عشرين ألف جنيه ، ضد أي إنسان ، على أن أقوم برحلة حول الأرض في ثمانين يوماً أو أقل أي في ألف وتسعمائة وعشرين ساعة ، أو بمعنى آخر في مائة وخمسة عشر ألف ومائتي دقيقة . فهل تقبلون هذا الرهان ؟

فأجاب السادة ستيوارت وفالنتين بعد أن تشاورا فيما بينهما :

- «نعم ، إننا نقبل» .

فقال مستر فوج : «هذا حسن ، إن قطار دوفر يسافر في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين . وسأركب هذا القطار» .

وسأله ستيوارت قائلاً : «في هذا المساء نفسه ؟»

فأجاب فيلياس فوج : «نعم ، في هذا المساء نفسه» . ثم أضاف قائلاً ، وهو يفحص تقويماً صغيراً أخرجه من جيبه : « . . . ولما كان اليوم هو الأربعاء الموافق الثاني من أكتوبر ، فيجب أن أعود إلى لندن في هذه القاعة نفسها في نادي «الريفورم» في يوم السبت الحادي والعشرين من شهر ديسمبر في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين مساء ، وإلا فإن مبلغ العشرين ألف جنيه المودع حالياً لحسابي في مصرف إخوان «بارينج» سوف يصبح من حقكم فعلاً وقانوناً ، أيها السادة ، وإليكم شيكاً بهذا المبلغ» .

وحرر محضر بالرهان ووقع عليه في الحال المتراهنون الستة .

واستمر فيلياس فوج محتفظاً ببروده . وهو لم يراهن بالتأكيد ليربح مالاً . لم يراهن بمبلغ العشرين ألف جنيه ، الذي يعادل نصف ثروته ، إلا لأنه كان يتوقع أن يضطر إلى صرف النصف الآخر في سبيل تحقيق هذا المشروع الشاق ، إن لم نعترف بأنه مشروع يتعذر تنفيذه . كان يبدو على خصومه الانفعال ، ليس بسبب أهمية المبلغ موضوع الرهان ، وإنما لأنهم كانوا غير مرتاحي الضمير لهذا الرهان الذي تم في مثل هذه الشروط .

ودقت الساعة السابعة ، وعرض بعضهم على مستر فوج إيقاف لعبة «الهويست» حتى يمكنه أن يعد عدته للرحيل .

فأجاب ذلك السيد الرزين : «إنني مستعد على الدوام» وأعطى لهم ورقة قائلاً : «دورك الآن يا سيد ستيوارت» .

٤

فيلياس فوج يذهل خادمه پاسپارتو

وفي الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والعشرين ، استأذن فيلياس فوج من زملائه الكرام وغادر النادي بعد أن ربح حوالي عشرين جنيهاً في لعبة الهويست . وفي الساعة السابعة والدقيقة الخمسين فتح باب منزله ودلف إليه .

ودهش پاسپارتو الذي كان قد درس في دقة كبيرة منهاج الخدمة المكلف به لدى سيده . دهش من رؤية مستر فوج داخلاً المنزل في هذه الساعة غير المعتادة ، مخالفاً بذلك ما جبل عليه من دقة المواعيد . فطبقاً للبيان الموضوع ، لا يعود مستأجر (سافيل رو) إلى المنزل إلا في الساعة الثانية عشرة تماماً .

وصعد فيلياس فوج أولاً إلى غرفته ثم نادى خادمه پاسپارتو . ولكن پاسپارتو لم يجب ، لأن هذا النداء لا يمكن أن يكون موجهاً إليه ، فليس هذا وقت استدعائه .

وأعاد مستر فوج النداء قائلاً : (پاسپارتو) ، دون أن يرفع صوته أكثر من المرة السابقة .

وأقبل پاسپارتو .

فقال السيد فوج : «هذه هي المرة الثانية التي أناديك فيها» .

وأجاب پاسپارتو وهو يشير إلى الساعة التي في يده : «ولكن الليل لم ينتصف بعد» .

فاسترجع فوج قائلاً : «أعلم ذلك ، ولا ألومك على شيء إننا سنرحل بعد عشرة دقائق إلى دوڤر وكاليه» .

وارتسمت تقطيبة على الوجه المستدير لذلك الفرنسي . وكان واضحاً أنه قد أساء فهم ما سمع .

وسأل قائلاً : «هل سيسافر سيدي ؟»

فأجاب فيلياس فوج : «نعم ، سنرحل ونطوف حول العالم»

وبدا پاسپارتو عندئذ وقد جحظت عيناه تماماً ، وارتفع حاجباه وجفناه ، وارتخت ذراعاه ، وتهدل جسمه ، وظهرت عليه أعراض دهشة بلغت حد الذهول . وتمتم قائلاً «السياحة حول العالم!»

فأجاب مستر فوج : «نعم ، في ثمانين يوماً ، ولهذا فليس لدينا أية لحظة نضيعها» .

وقال پاسپارتو ، الذي أخذ يهز رأسه دون وعي يميناً ويساراً : «ولكن حقائب السفر . .» .

– لسنا في حاجة إلى حقائب سفر كبيرة ، وإنما يلزمنا حقيبة ملابس صغيرة فقط ، نضع فيها قميصين من الصوف ، وثلاثة أزواج من الجوارب وعدداً مماثلاً منها لك . وسنشتري ما يلزمنا في الطريق . وعليك أن تأتي بمعطفي وغطائي الخاص بالسفر . وخذ معك أحذية متينة . فقد نمشي قليلاً ، وقد لا نمشي مطلقاً . هيا أسرع» .

وأراد پاسپارتو أن يجيب سيده ، ولكنه لم يستطع ، فغادر غرفة مستر فوج ، وصعد إلى غرفته ، ثم ارتمى على كرسي هناك وقال لنفسه مردداً تعبيراً عامياً من لغة بلاده : «إن هذا لكثير! وأنا الذي كنت أبغي أن أعيش هنا هادئاً!»

وبحركة آلية قام بإعداد العدة للرحيل فلعله كان يتعامل مع رجل مخبول ، فيطوف معه حول العالم ثمانين يوماً! كلا . . . أم لعل هذه المسألة مجرد دعابة ؟ ولئن كانا سيذهبان إلى دوڤر فلا بأس من ذلك ،

ثم إلى كاليه ، فليكن! وعلى كل حال ، فلم يكن هذا الأمر ليضايق كثيراً ذلك الشاب الطيب القلب الذي لم تطأ قدماه أرض وطنه منذ خمسة أعوام . وقد يذهب إلى باريس ، فتتاح له مرة أخرى فرصة رؤية العاصمة الكبيرة . على أن رجلاً مهذباً مقتصداً في خطواته كمستر فوج لابد أن يتوقف هناك . . لاشك في ذلك . ومع ذلك فالحقيقة هي أن ذلك السيد المهذب الذي ظل ملازماً لبيته حتى ذلك الحين سوف يسافر ويتنقل من مكان إلى آخر!

وفي الساعة الثامنة كان پاسپارتو قد أعد الحقيبة المتواضعة التي كانت تحوي ملابسه وملابس سيده ، ثم غادر غرفته وهو لم يزل قلقاً ، وأغلق باب الغرفة بعناية كبيرة ، ولحق بمستر فوج .

ووجد السيد فوج مستعداً . وكان يتأبط دليل براد شو للسكك الحديدية والسفن البخارية والترانزيت ، وهو الدليل العام الذي سوف يمده بكل المعلومات والإرشادات اللازمة لرحلته . وأخذ الحقيبة من يدي پاسپارتو وفتحها ودس فيها ربطة كبيرة من تلك الأوراق المالية الجميلة التي يتعامل بها في كل البلاد .

وسأل السيد الخادم قائلاً : «ألم تنس شيئاً ؟»

– كلا لم أنس شيئاً يا سيدي .

– وأين معطفي وغطائي ؟

– ها هما .

– حسناً ، خذ هذه الحقيبة في يدك .

وأعطى مستر فوج الحقيبة لپاسپارتو .

وأضاف قائلاً : «واعتن بها ففي داخلها عشرون ألف جنيه خمسمائة ألف من الفرنكات الذهبية» .

وكادت الحقيبة تفلت من يد پاسپارتو ، كما لو كانت العشرون ألف جنيه من الذهب الخالص الثقيل الوزن إلى أبعد حد .

ونزل السيد وخادمه ، وأغلق الباب الخارجي المطل على الشارع غلقاً مزدوجاً .

وفي نهاية شارع «ساڤيل رو» حيث موقف العربات ، ركب فيلياس فوج وخادمه عربة انطلقت مسرعة نحو محطة «تشارينج كروس» التي ينتهي عندها فرع من فروع سكة حديد «سوث إيسترن» .

وفي الساعة الثامنة والثلث ، توقفت العربة أمام سور المحطة ، فقفز پاسپارتو منها إلى الأرض ، وتبعه سيده الذي دفع للحوذي أجره .

وفي هذه اللحظة اقتربت امرأة متسولة من مستر فوج ، وهي تمشي في الوحل حافية القدمين ، ممسكة بطفل في يدها ، وعلى رأسها قبعة مهلهلة بها ريشة بالية وقد التفعت بشال ممزق على ملابسها الرثة ، وطلبت منه إحساناً .

وأخذ السيد فوج من جيبه العشرين جنيها التي ربحها منذ قليل في لعبة الهويست وقدمها للمتسولة قائلاً : «خذي هذا أيتها المرأة الطيبة ، إنني مسرور للقائك!»

ثم استمر في سيره ، وشعر پاسپارتو بالدمع يترقرق في عينيه . نعم فقد دنا سيده بهذا الصنيع خطوة من قلبه .

ودخل مع السيد فوج في الحال إلى القاعة الكبرى للمحطة . وهناك أصدر فوج أمره إلى پاسپارتو بشراء تذكرتين في الدرجة الأولى إلى باريس . ولما استدار السيد فوج ، لمح زملاءه الخمسة أعضاء نادي الريفورم . فقال لهم : «سادتي ، إنني مسافر ، ومعي جواز سفر أحمله لأحصل فيه على التأشيرات المختلفة التي سوف تتيح لكم عند عودتي مراجعة خطة سيري في رحلتي» .

وأجاب جوتييه رالف بأدب : «أوه يا سيد فوج! لا داعي لذلك . كلنا ثقة في شرفك ، شرف السيد الأمين!»

فقال السيد فوج : «إن هذا أفضل»

وأبدى أندرو ستيوارت ملاحظة قائلاً : «عليك ألا تنسى أنه ينبغي لك أن تعود . . .

فأجاب السيد فوج : « . . بعد ثمانين يوماً ، أي في يوم السبت الحادي والعشرين من ديسمبر عام ١٨٧٢ ، في الساعة الثامنة والدقيقة

الخامسة والأربعين مساء . . . أيها السادة . . . إلى اللقاء»

وفي الساعة الثامنة والدقيقة الأربعين ، اتخذ فيلياس فوج وخادمه مكانهما في مقصورة واحدة من القطار . وفي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين ، انطلق صوت صفارة القطار الذي بدأ يتحرك .

وكان الليل حالك الظلام ، وتساقط مطر خفيف . واتكأ فيلياس فوج على الركن الذي جلس فيه دون أن يتكلم . أما پاسپارتو فإنه احتضن في شدة ودون وعي الحقيبة التي بها الأوراق المالية .

ولم يكن القطار قد جاوز «سيدنهام» حين أطلق پاسپارتو صرخة يأس حقيقية!

فسأله السيد فوج : «ماذا دهاك» ؟

– لقد حدث . . أني . . في عجلتي . . واضطرابي . . قد نسيت . .

– ماذا ؟

– نسيت أن أطفئ مصباح الغاز في غرفتي!

فأجاب السيد فوج ببرود : «حسناً يا بني ، سوف يحترق الغاز على حسابك!

٥

ظهور قيمة مالية جديدة

في سوق لندن

لم يكن ليخطر ببال فيلياس فوج ، ولا شك ، وهو يغادر لندن ذلك الدوي الكبير الذي سوف يحدثه رحيله . فقد ذاع نبأ الرهان أولاً في نادي الريفورم ، وأثار انفعالاً حقيقياً في نفوس أعضاء ذلك المجتمع الراقي ، ثم انتقل هذا الانفعال من النادي إلى الصحف عن طريق المخبرين الصحفيين ، ومن الصحف انتقل إلى جمهور لندن وإلى شعب المملكة المتحدة كلها . وقد علق الجميع على موضوع «السياحة حول العالم» ، فناقشوه وحللوه بحماس وحرارة كما لو كان موضوع قضية «ألاباما»[1] جديدة . وانحاز بعضهم إلى صف فيلياس فوج بينما وقف البعض الآخر ضده ، وكانوا الأغلبية الكبرى ، وقالوا إن هذه السياحة حول العالم ، التي يجب إتمامها ، بعيداً عن النظريات وعما هو مدون في الأوراق ، في هذه المدة القصيرة وبوسائل المواصلات المستعملة في ذلك الأوان ، لم تكن مستحيلة فحسب بل إنها أيضاً غير معقولة!

وقد أدلت صحف التيمس ، واستندارد ، وايفننج ستار ، ومورنينج كرونيكل ، وعشرون صحيفة أخرى واسعة الانتشار برأيها ضد السيد فوج . ولم تؤيده سوى صحيفة الديلى تلجراف . وقد اعتبر فوج بوجه

١ - ألاباما إحدى الولايات المتحدة لأمريكا الشمالية. وهو أيضاً اسم نهر بها.

عام معتوهاً به مس من الجنون ، وألقي اللوم على زملائه في نادي الريفورم لأنهم اشتركوا في ذلك الرهان الذي دل على ضعف في القوى العقلية عند من عقده ، وهو السيد فوج .

وظهرت مقالات مثيرة للغاية ، ولكنها منطقية ، تعالج هذا الموضوع . ومن المعروف أن القوم في انجلترا يهتمون اهتماماً كبيراً بكل ما له صلة بالجغرافيا . فلم يكن ثمة إذن قارئ واحد ، من أي طبقة كانت ، لم يطالع في شغف الأعمدة المخصصة في الصحف لموضوع فيلياس فوج .

وفي الأيام الأولى ، أيده بعض الناس الذين يميلون إلى المغامرات ، وفي مقدمتهم النساء ، وعلى الأخص حينما نشرت صحيفة «لندن نيوز المصورة» صورته المأخوذة من قسم المحفوظات في نادي الريفورم . وجرؤ بعض السادة فقالوا : «هيا ، هيا ، ومع كل فلم لا ؟ كم رأينا أشياء أشد غرابة من هذا الأمر!» . وكان هؤلاء على الأخص ، هم قراء صحيفة الديلي تلجراف . على أن القوم قد شعروا بعد قليل بأن الصحيفة نفسها بدأت تفتر حماستها لهذا الموضوع . فقد ظهرت فعلاً مقالة بتاريخ ٧ من أكتوبر تتضمن نشرة للجمعية الجغرافية الملكية تناولت دراسة الموضوع من جميع نواحيه ، ودللت بوضوح على طابع الجنون الذي يتسم به المشروع . فأشارت إلى أن كل الظروف كانت ضد ذلك الرحالة : فهناك عقبات يقيمها الإنسان وأخرى توجدها الطبيعة . وحتى يتم النجاح في هذا المشروع ، كان يجب التسليم بقيام معجزة توفق بين ساعات الرحيل وساعات الوصول ، وهو توافق لا وجود له ولا يمكن أن يكون له وجود .

ففي أوروبا بالذات ، يمكن الاعتماد إلى حد ما ، على وصول القطر في مواعيد ثابتة إذ إنها تقطع مسافات غير طويلة نسبياً . على أنه لا يمكن الاعتماد على دقة مواعيدها في تخطيط مثل هذا المشروع الخطير وتحديد عناصره ، إذا كانت القطر تستغرق ثلاثة أيام طويلة لاجتياز الهند ، وسبعة أيام لاجتياز الولايات المتحدة الأميريكية . ناهيك

بحوادث الآلات ، وخروج القطر عن القضبان ، والمصادمات ، ورداءة الجو ، وتراكم الثلوج . أليست هذه كلها ظروفاً ضد فيلياس فوج ؟ ألن يغدو ، في فصل الشتاء ، على ظهر البواخر ، تحت رحمة الرياح الشديدة والضباب الكثيف ؟ وهل كان من النادر أن تتأخر السفن عابرة المحيطات عن الوصول يومين أو ثلاثة أيام ؟ على أنه كان يكفي أن يحدث تأخير واحد فتنقطع حلقة المواصلات انقطاعاً لا علاج له . فإذا تأخر فيلياس فوج بضع ساعات عن موعد رحيل باخرة ، فإنه سيكون مضطراً لانتظار الباخرة التالية ، وبهذا تفشل رحلته فشلاً تاماً .

وأحدثت المقالة دوياً كبيراً ، وأعادت نشرها كل الصحف تقريباً ، فانخفضت أسهم فيلياس فوج انخفاضاً كبيراً .

وفي خلال الأيام الأولى التي أعقبت رحيل السيد فوج ، عقدت عدة مراهنات هامة على المصير المحتمل لرحلته . وكلنا نعرف جمهور المتراهنين في انجلترا ، وهو جمهور أذكى وأرقى من جمهور اللاعبين . فالمراهنة شيء هام في مزاج الإنجليز . ولذا لم يكن أعضاء نادي الريفورم هم وحدهم الذين عقدوا مراهنات مرتفعة القيمة ، مؤيدين فيلياس فوج أم معارضين مشروعه وإنما اشترك الجمهور في هذه الحركة . فظهر اسم فيلياس فوج مدوناً في سجل خاص ، شأنه في ذلك شأن فرس يجري في حلبة سباق ، واتخذ منه سعراً من أسعار البورصة ، أدرج حالاً في سوق لندن . وتقدمت عروض وطلبات على اسم فيلياس فوج .

على أنه بعد انقضاء خمسة أيام على رحيله . وبعد أن نشر بيان الجمعية الجغرافية الملكية . بدأت العروض تنهال ونزلت أسهم فيلياس فوج . ولم يبق له سوى مؤيد واحد ، هو ذلك الشيخ المشلول اللورد «البيرمال» . فقد كان ذلك السيد المبجل ، القابع في كرسيه ، على استعداد لأن ينفق كل ثروته ليستطيع الطواف حول العالم ، ولو في عشر سنوات! وقد راهن بمبلغ أربعة آلاف جنيه (مائة ألف فرنك ذهباً) مؤيداً فيلياس فوج .

وحين أوضح له البعض عدم جدوى المشروع ، إلى جانب ما يدل

عليه من الحمق ، اكتفى بالرد عليهم قائلاً : «إن كان الأمر ممكناً ، فمن الخير أن يكون أول من يقوم به إنجليزياً» .

وكانت الحال على هذا المنوال ، إذ أخذ أنصار فيلياس فوج يقلون بالتدريج حتى أصبحوا ندرة ، وانحاز الجميع ضده ، والحق معهم ، حينما وقعت حادثة غير منتظرة ، بعد انقضاء سبعة أيام على رحيله ، نتج عنها إمساك الناس عن المراهنة عليه . فقد وردت البرقية الآتي نصها :

من السويس إلى لندن .

«روان» مدير الشرطة ، الإدارة المركزية ، سكوتلانديارد

أطارد لص البنك . فيلياس فوج . أرسلوا دون تأخير إلى بومباي (الهند الإنجليزية) أمراً بالقبض عليه .

المخبر (فيكس) .

وكان وقع هذه البرقية سريعاً ومباشراً ، فاختفى رسم السيد المبجل وحل محله سارق الأوراق المالية . وفحصت صورته المودعة في نادي الريفورم مع صور زملائه . وكانت هذه الصورة بملامحها المتعددة تشابه ذلك الرجل الذي وصفه التحقيق . وتذكر الجميع ما اتصفت به حياة فيلياس فوج من غموض ، وعزلته ثم رحيله المفاجئ . وبدا من الواضح أن هذا الشخص ، وقد تعلل برحلة يقوم بها حول العالم وراهن عليها رهاناً غير معقول ، لم يكن له من هدف آخر سوى تضليل رجال الشرطة الإنجليز .

٦

المخبر فيكس يبدي قلقاً له ما يبرره

وإليكم الظروف التي أدت إلى إرسال تلك البرقية الخاصة بالسيد فيلياس فوج .

فقد كان من المنتظر وصول الباخرة « مونجوليا » التابعة لشركة « شبه الجزيرة والشرق » إلى ميناء السويس في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء التاسع من أكتوبر . ومونجوليا سفينة بخارية مبنية من الحديد ، ولها رفاص وسطح علوي ، وحمولتها ألفان وثمانمائة طن . ولها قوة اسمية قدرها خمسمائة حصان . وكانت تقوم برحلات منتظمة من برنديزي إلى بومباي مارة بقناة السويس . وهي باخرة من أسرع بواخر الشركة . وكانت دائماً تتجاوز السرعة المقررة للمسافة بين برنديزي والسويس ، وهي عشرة أميال في الساعة ، وللمسافة بين السويس وبومباي ومقرر لها سرعة تسعة أميال ونصف ميل تقريباً .

وفي انتظار وصول مونجوليا ، كان رجلان يتجولان على رصيف الميناء وسط جمهور الوطنيين والأجانب الذين يفدون بكثرة على هذه المدينة ، التي كانت حتى زمن قريب قرية صغيرة ، فضمن لها مشروع القناة مستقبلاً كبيراً .

وكان أحد هذين الرجلين قنصل المملكة المتحدة (انجلترا) المقيم في

السويس ، والذي كان يشاهد كل يوم مرور البواخر الانجليزية مجتازة قناة السويس ، مختصرة بذلك نصف الطريق القديم الذي كان يوصل بين انجلترا والهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وذلك بالرغم من التكهنات السيئة التي كانت تبديها الحكومة الانجليزية وتشاؤم المهندس ستيفنسن .

أما الثاني فقد كان رجلاً قصير القامة ، نحيل الجسم ، له وجه تبدو عليه سمات الذكاء ، عصبي المزاج ، تتقلص عضلات حاجبيه تقلصاً ظاهراً ومستمراً . ومن خلال أهدابه الطويلة ، كانت عينه تبرق حادة ، ولكنه كان يعرف كيف يطفئ بريقها الوهاج . وكان في تلك اللحظة يبدي بعض علامات القلق ونفاد الصبر ، وهو يسير على الرصيف ذهاباً وإياباً ، لا يستطيع الثبات والاستقرار في مكان واحد . كان هذا الرجل يدعى فيكس ، وهو أحد مخبري الشرطة الإنجليز الذين بعثوا إلى الموانئ المختلفة بعد حادث سرقة بنك انجلترا . وكان على فيكس أن يراقب كل المسافرين المارين بطريق السويس ، حتى إذا اشتبه في أحدهم كان عليه أن يقتفي أثره انتظاراً لوصول الأمر بالقبض عليه .

وكان فيكس قد تسلم منذ يومين من مدير شرطة العاصمة الانجليزية أوصاف الشخص المفروض أنه قد ارتكب السرقة ، وهو ذلك الشخص الوجيه المظهر الحسن الزي الذي شوهد في قاعة الدفع بالبنك .

وكان المخبر ينتظر وصول الباخرة مونجوليا بفروغ صبر يسهل علينا تفسيره ، فقد استهوته طبعاً تلك المكافأة السخية التي وضعت لمن ينجح في القبض على اللص .

واستفهم من القنصل للمرة العاشرة قائلاً : « تقول يا سيدي القنصل إن السفينة لا يمكن أن تتأخر ؟ » .

فأجاب القنصل : « نعم يا سيد فيكس ، فقد شوهدت أمس في عرض البحر أمام بور سعيد ، وليست القناة ، وطولها مائة وستون كيلو متراً ، بمسافة كبيرة بالنسبة إلى هذه الباخرة . وأكرر لك القول إن المونجوليا قد ربحت دائماً جائزة الخمسة وعشرين جنيهاً التي تمنحها الحكومة لكل باخرة تسبق المواعيد المقررة بمقدار أربع وعشرين ساعة » .

فسأله فيكس : وهل هذه الباخرة آتية مباشرة من برنديزي ؟

– نعم ، من برنديزى نفسها ، حيث أقلعت في الساعة الخامسة من مساء يوم السبت متجهة صوب الهند . ولذا فعليك أن تتذرع بالصبر ، فإنها لا يمكن أن تتأخر في الوصول . على أنني لا أفهم حقاً كيف تستطيع بالأوصاف التي تسلمتها أن تتعرف على الرجل الذي تريده » .

فأجاب فيكس : « سيدي القنصل ، إننا نحس بالناس أكثر مما نتعرف عليهم . إنها حاسة خاصة لابد أن تكون فينا ، حاسة تشترك فيها حواسنا الأخرى : كالسمع والنظر والشم . وقد ألقيت القبض خلال سني حياتي على الكثيرين من أمثال هؤلاء السادة ، وإنني أعدك أن هذا اللص لن يفلت من قبضة يدي إذا كان موجوداً على ظهر السفينة » .

– أتمنى ذلك يا سيد فيكس ، فالأمر يتعلق بسرقة هامة » .

فأجاب الشرطي بحماس قائلاً : إنها لسرقة بديعة ، سرقة خمسة وخمسين ألف جنيه ، إننا لا نقع الآن كثيراً على مثل هذه المصادفة السعيدة! فقد أصبح اللصوص حقيرين واضمحلت سلالة « شبرد » من كبار اللصوص ، ولا يقع الآن في أيدينا سوى لصوص يسرقون بضعة شلنات!

فأجاب القنصل : يا سيد فيكس ، إنك تتحدث بطريقة تجعلني أتمنى لك من كل قلبي أن تنجح في مهمتك . ولكن أكرر لك القول إنني أتوقع لك الصعوبات في سبيل نجاحك ، وأنت في هذه الظروف التي تحيط بك . فهل تعلم أن الرجل الذي تقصده إنما يشبه الرجال الأشراف تمام المشابهة إذا طبقت عليه الأوصاف التي تسلمتها ؟

فأجاب مفتش البوليس متفلسفاً : يا سيدي القنصل ، إن كبار اللصوص يشبهون دائماً القوم الأشراف . واعلم أن أولئك الذين لهم سحنة الأوغاد لا يسلكون في حياتهم إلا طريقاً واحداً ، هو طريق الاستقامة والصلاح ، وإلا فسرعان ما يقبض عليهم . وأما أصحاب المظهر الشريف ، فهم الذين يجب الاهتمام بأمرهم على وجه الخصوص . وأعترف لك أن هذا أمر شاق ، إنه فن ولم يعد مهنة » .

ويبدو من هذا الحديث أن المفتش فيكس رجل يتمتع بقسط من

عزة النفس . وفي هذه الأثناء أخذ رصيف الميناء يزدحم بالناس شيئاً فشيئاً ، فقد وفد عليه بحارة من مختلف الجنسيات ، كما جاء تجار وسماسرة ، وحمالون ، وفلاحون . وكان من الواضح أن الباخرة ستصل بعد قليل .

وكان الجو معتدلاً ، ولكن الهواء بارد نتيجة لهبوب ريح شرقية . وبدت في الجو بعض المآذن مرتفعة فوق المدينة تحت أشعة الشمس الباهتة . وامتد إلى الجنوب في خليج السويس ذراع من الأرض طولها ألف متر . وكان الكثير من مراكب الصيد والملاحة الشاطئية يعوم على سطح مياه البحر الأحمر . وكان البعض منها لا يزال محتفظاً بشكل سفن الأسرى الأزلية .

وكان فيكس يتجول وسط هذا الجمهور ، وهو يرمق المارة بنظرات سريعة ، وتلك عادة اكتسبها من ممارسة مهنته . وكانت الساعة عندئذ العاشرة والنصف .

ولما دقت ساعة الميناء ، صاح قائلاً : « ولكن هذه الباخرة لن تصل أبداً! »

فأجاب القنصل : « لا يمكن أن تكون بعيدة! »

– وكم من الوقت ستمكثه في السويس ؟

– أربع ساعات ، وهو وقت يكفيها لتتزود بالفحم . فالمسافة من السويس إلى عدن الواقعة في أطراف البحر الأحمر تقدر بألف وثلاثمائة وعشرة أميال ، ويجب أن تتمون السفن بما يلزمها من الوقود .

– وهل تذهب هذه الباخرة مباشرة من السويس إلى بومباي ؟

– نعم مباشرة ، دون توقف .

فقال فيكس : « هذا حسن ، إذا كان اللص قد اتخذ هذا الطريق وركب هذه الباخرة ، فلابد أنه قد رسم في خطته أن ينزل في السويس ، حتى يسلك طريقاً آخر يوصله إلى المستعمرات الهولندية أو الفرنسية في آسيا . ولابد أنه يعرف أنه لن يكون في أمان في الهند ، وهي أرض إنجليزية .

– «اللهم إلا إذا كان رجلاً قوياً للغاية . فأنت تعلم أن المجرم الإنجليزي يجد في لندن مخبأ أكثر أمناً من أي مكان آخر خارج انجلترا» .

وما أن أبدى القنصل رأيه هذا الذي جعل فيكس يستغرق في التفكير ، حتى عاد إلى مكتبه الواقع على مسافة قريبة من الميناء . وبقي مفتش البوليس وحيداً ، وقد استبد به قلق عصبي ، يصحبه ذلك الشعور الغريب بأن اللص لابد أن يكون موجوداً على ظهر الباخرة مونجوليا – فإذا كان ذلك الوغد قد غادر انجلترا قاصداً الوصول إلى العالم الجديد ، فلابد أن يكون في الواقع قد فضل طريق الهند ، وهو طريق أقل خضوعاً للمراقبة أو أنه تصعب مراقبته ، عن طريق المحيط الأطلنطي .

ولم تستغرق تأملات فيكس زمناً طويلاً ؛ فقد انطلق في الجو صوت صفارات تعلن وصول الباخرة ، واندفع كل ذلك الحشد من الحمالين والفلاحين نحو الرصيف في خليط صاخب يهدد سلامة المسافرين في أجسامهم وملابسهم . وبعد برهة ، شوهد هيكل الباخرة الضخمة مونجوليا وهي تمر بين ضفتي القناة . ودقت الساعة الحادية عشرة ، حين رست الباخرة في الميناء ، بينما كان بخارها ينطلق من أنابيب العادم محدثاً ضوضاء كبيرة .

وكان عدد المسافرين كبيراً على ظهر الباخرة . وقد بقي بعضهم على سطحها يتأمل المنظر الطبيعي الطريف لمدينة السويس ، بينما نزل أغلب الركاب في القوارب التي أقبلت تحاذي المونجوليا .

وفحص فيكس كل الذين وطئوا أرض الميناء . وفي تلك اللحظة اقترب أحدهم منه بعد أن أبعد عنه بقوة كل الفلاحين الذين لاحقوه بإلحاحهم عارضين عليه خدماتهم ، وسأله بمنتهى الأدب عما إذا كان يستطيع أن يرشده إلى مكتب القنصل الإنجليزي ، وقدم له في الوقت نفسه جواز سفر كان يريد بلا شك أن يحصل فيه على التأشيرة البريطانية . وتناول فيكس جواز السفر بدافع غريزي ، وبنظرة سريعة قرأ ما فيه من بيانات ، فكادت تصدر منه حركة لا إرادية ، واضطربت

الورقة في يده ، فقد كانت الأوصاف المدونة على جواز السفر مطابقة للأوصاف التي استلمها من مدير الشرطة في لندن .

فقال للمسافر : «هل هذا جواز سفرك ؟»

– كلا . إنه جواز سفر سيدي .

– وأين سيدك ؟

– بقي في الباخرة .

فاستطرد الشرطي قائلاً : «يجب أن يقدم نفسه لمكاتب القنصلية ليثبت شخصيته» .

– كيف ، وهل هذا ضروري ؟

– لابد من ذلك .

– وأين توجد تلك المكاتب ؟

فأجاب المفتش وهو يشير إلى منزل يقع على بعد مائتي خطوة : «هناك ، في ناصية الميدان» .

– إذن فسأذهب لآتي بسيدي الذي لا يسره أبداً أن يعطله أحد .

وعلى هذا حيا المسافر المفتش فيكس وعاد إلى الباخرة .

٧

دلالة أخرى على عدم جدوى

جوازات السفر في أمور الشرطة

ونزل مفتش الشرطة ثانية إلى الميناء واتجه مسرعاً نحو مكاتب القنصل . وأذن له في الحال بمقابلة هذا الموظف بعد أن ألح إلحاحاً شديداً في مقابلته . فلما رآه ، قال له دون أية مقدمات : «سيدي القنصل ، لدي من القرائن والشبهات القوية ما يجعلني أعتقد أن رجلنا قد أبحر على ظهر الباخرة مونجوليا» .

وحكى فيكس ما حدث بينه وبين ذلك الخادم بشأن جواز السفر .

فأجاب القنصل : «حسناً يا سيد فيكس ، لن يسوؤني رؤية وجه ذلك الوغد . على أنه قد لا يحضر إلى مكتبي إذا كان هو الشخص نفسه الذي تظنه . فإن اللص لا يجب أن يترك خلفه آثاراً تنم عن مروره ، فضلاً عن أن إجراء التأشير على جوازات السفر لم يعد إجبارياً» .

وأجاب الشرطي : «يا سيدي القنصل ، إذا كان هذا الرجل قوياً كما يجب أن نعتقد فلا بد أن يجيء!»

– ليحصل على التأشير على جواز سفره ؟

– نعم ، إن جوازات السفر لا عمل لها سوى مضايقة الأشراف من الناس ، وتيسير فرار الأوغاد . إنني أؤكد لك أن جواز سفر هذا الرجل صحيح لا غبار عليه ، ومع ذلك فإنني آمل ألا تؤشر عليه . .

– ولم لا ؟ إذا كان جواز السفر صحيحاً ، فليس من حقي أن أرفض وضع تأشيرتي عليه .

– ومع ذلك ، يا سيدي القنصل ، فإنه يجب أن أحتجز هذا الرجل هنا ، حتى يصلني أمر بالقبض عليه .

فأجاب القنصل : «آه! إن هذا شأنك وحدك يا سيد فيكس ، أما أنا ، فلا أستطيع . .»

ولم يتم القنصل عبارته ، ففي هذه اللحظة دق أحدهم على باب مكتبه ، وأدخل ساعي المكتب رجلين غريبين ، كان أحدهما الخادم نفسه الذي سبق أن تحادث مع المخبر . وكان الاثنان في الواقع هما السيد وخادمه ، وقدم السيد جواز سفره ، راجياً القنصل في اقتضاب أن يتفضل ويضع تأشيرته على الجواز .

وتناول القنصل جواز السفر وطالعه بإمعان ، بينما كان فيكس منزوياً في ركن من الأركان يلاحظ الغريب أو بالأحرى يلتهمه بنظراته .

ولما انتهى القنصل من المطالعة سأل : «هل أنت السيد فيلياس فوج ؟»

فأجاب السيد : «نعم ، يا سيدي» .

– وهذا الرجل خادمك ؟

– نعم ، إنه فرنسي ويدعى پاسپارتو .

– وأنتما قادمان من لندن ؟

– نعم .

– إلى أين تذهبان ؟

– إلى بومباي .

– حسناً يا سيدي . هل تعلم أن إجراء التأشيرة ليس ملزماً ، وأننا لا نقتضي أحداً أن يقدم لنا جواز سفره ؟

فأجاب فيلياس فوج : «أعلم ذلك يا سيدي ، ولكن أريد أن أثبت بتأشيرتك مروري بمدينة السويس .

– «فليكن لك ما تريد يا سيدي» .

ووقع القنصل على الجواز ودون التاريخ وطبع خاتمه . ودفع السيد فوج رسوم التأشير . وبعد أن أدى تحية لا حرارة فيها ، خرج يتبعه خادمه .

وسأل المفتش : « ما الرأي ؟ »

فأجاب القنصل : « حسناً ، إنه يبدو رجلاً شريفاً بكل معاني الكلمة » .

وأجاب فيكس : « هذا محتمل ، ولكن هذا لا يفيدنا ، ألا ترى يا سيدي القنصل ، أن هذا السيد المهذب الهادئ يشبه كل الشبه في تفاصيله كلها ذلك اللص الذي أرسلت أوصافه من لندن ؟

– أوافق على ذلك ، ولكنك تعلم أن الأوصاف كلها . . .

فأجاب فيكس : « سوف أتحقق من هذا الأمر . إن الخادم ليبدو لي أقل غموضاً من سيده . فضلاً عن أنه فرنسي ، أي لا يستطيع الامتناع عن الكلام . إلى اللقاء إذن يا سيدي القنصل » .

وعلى هذا خرج الشرطي وأخذ يبحث عن پاسپارتو .

وكان السيد فوج في هذه الأثناء قد اتجه نحو رصيف الميناء ، بعد أن غادر دار القنصلية . وهناك أعطى بعض الأوامر لخادمه ، ثم ركب قارباً عاد به إلى ظهر الباخرة مونجوليا ، حيث دخل غرفته . وتناول دفتر مذكراته الذي كان مدوناً به البيانات الآتية :

غادرت لندن في يوم الأربعاء الثاني من أكتوبر في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين مساء .

وصلت إلى پاريس في الساعة السابعة والدقيقة العشرين من صباح الخميس الثالث من أكتوبر .

وصلت عن طريق « مونت سنيس » إلى تورين في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والثلاثين من صباح يوم الجمعة الخامس من أكتوبر .

غادرت تورين في الساعة السابعة والدقيقة العشرين من صباح الجمعة .

وصلت إلى برنديزي في الساعة الرابعة من مساء السبت الخامس من أكتوبر .

ركبت المونجوليا في الساعة الخامسة من مساء السبت .

وصلت السويس في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء التاسع من أكتوبر .

مجموع الساعات التي انقضت « ٢/١ ١٥٨ ، وعددها بالأيام ٢/١ ٦ يوم » .

وقد دون السيد فوج هذه التواريخ في جدول مقسم إلى أعمدة تدلّ ، ابتداء من اليوم الثاني من أكتوبر حتى اليوم الحادي والعشرين من ديسمبر ، على الشهر ، واليوم ، وموقعه من الشهر ومواعيد الوصول المقررة ثم مواعيد الوصول الفعلية في كل نقطة رئيسة . پاريس ، برنديزي ، السويس ، بومباي ، كلكتا ، سنغافورة ، هونج كونج ، يوكوهاما ، سان فرانسيسكو ، نيويورك ، ليڤرپول ، لندن ، مما كان يسمح بتقدير التقدم المكتسب أو التأخر الحادث في كل موضع من مواضع الرحلة . فكان خط السير التنظيمي هذا محيطاً بكل شيء ، وبوساطته كان في إمكان السيد فوج أن يعلم دائماً هل هو متقدم أو متأخر . وعليه ، فقد أثبت في ذلك اليوم ، الأربعاء التاسع من أكتوبر ، وصوله إلى السويس ، واتضح له أنه لم يكن مقتصداً أو خاسراً أي وقت ، وذلك حين طابق ذلك الوقت موعد الوصول النظامي المقرر .

وبعد ذلك تناول وجبة الغداء في غرفته بالباخرة . أما أن يشاهد المدينة ، فهو أمر لم يطرأ بباله إطلاقاً ، فقد كان من سلالة أولئك الإنجليز الذين يبعثون خدمهم بدلاً منهم لزيارة البلاد التي يجتازونها ومشاهدة معالمها .

٨

پاسپارتو يتكلم أكثر بقليل

مما يجوز له أن يقوله

انضم فيكس في بضع لحظات إلى پاسپارتو الذي كان يتسكع على رصيف الميناء وينظر حوله ، فلم يكن يعتقد أنه ملزم ، كسيده ، بإغماض عينه عن كل شيء .

وقال له فيكس وهو يدنو منه : « حسناً يا صديقي ، هل أشر على جواز سفرك ؟

فأجاب الفرنسي : « آه! ها أنت ذا يا سيدي ، إنني شاكر لك فضلك وكل شيء على ما يرام ، وفقاً للقانون! »

– وهل في عزمك أن تشاهد معالم البلد ؟

– نعم . ولكننا نتقدم بسرعة كبيرة حتى ليخيل إلي أنني في حلم . نحن إذن في السويس ؟

– نعم في السويس ؟

– وفي مصر ؟

– تماماً ، في مصر .

– وفي أفريقيا ؟

– نعم في أفريقيا .

فردد پاسپارتو : « في أفريقيا ، لا أستطيع أن أصدق ذلك . تصور

يا سيدي أنني كنت أعتقد أننا لن نذهب إلى أبعد من پاريس . على أنني شاهدت هذه العاصمة الشهيرة في الفترة بين السابعة والدقيقة العشرين صباحاً والساعة الثامنة والدقيقة الأربعين ، بين محطة الشمال ومحطة ليون ، من خلال نوافذ عربة ، وتحت مطر منهمر! كم أنا آسف على ضياع هذه الفرصة! »

فسأله المفتش : أنت إذن في عجلة من أمرك ؟ .

– لست أنا المتعجل ، ولكنه سيدي . وبهذه المناسبة ، يجب أن أشتري جوارب وقمصاناً! فقد رحلنا دون أمتعة ، وليس معنا سوى حقيبة بملابس بسيطة .

– سأذهب بك إلى سوق تجد فيها كل ما يلزمك .

فأجاب پاسپارتو : « سيدي ، إنك حقاً في غاية اللطف . . .

وسار الاثنان في الطريق ، وپاسپارتو لا يكف عن الكلام ، فقال : « وينبغي أن أكون متيقظاً بوجه خاص حتى لا تفوتني الباخرة » .

فأجابه فيكس : « أمامك فسحة من الوقت ، فالساعة لم تتجاوز الثانية عشرة ظهراً » .

فأخرج پاسپارتو ساعته الكبيرة وقال : « الثانية عشرة ظهراً! كيف ذلك ؟ الساعة الآن التاسعة والدقيقة الثانية والخمسون! »

فأجابه فيكس : « ساعتك تتأخر » .

– ساعتي! إنها ساعة الأسرة ، جاءتني من جد جدي! إنها لا تخطئ خمس دقائق في العام الواحد ، فهي « كرونومتر » حقيقي .

فأجاب فيكس : « لقد فهمت السبب ، إنك احتفظت بتوقيت لندن الذي يتأخر ساعتين عن توقيت السويس . ويجب أن تضبط ساعتك في الساعة الثانية عشرة في كل بلدة تمر بها » .

فصاح پاسپارتو : « أفعل ذلك! وأضبط ساعتي! كلا ، لن أفعل ذلك أبداً » .

– ولكنها لن تتوافق إذن مع الشمس!

– بئست الشمس يا سيدي ، إنها إذن المخطئة!

وأعاد الشاب الطيب ساعته إلى جيبه في عظمة وخيلاء .

وبعد بضع دقائق قال له فيكس : « هل غادرتما لندن مسرعين ؟ »

– أعتقد ذلك ، ففي الساعة الثامنة من مساء الأربعاء الماضي ، عاد السيد فوج من ناديه ، خلافاً لعادته ، وبعد ثلاثة أرباع الساعة كنا قد رحلنا .

– ولكن إلى أين يذهب سيدك ؟

– إنه يسير دائماً إلى الأمام ، فهو يدور حول العالم .

فصاح فيكس : « حول العالم ؟ »

– نعم ، وفي ثمانين يوماً! ويقول إن هذا رهان . ولكنني أعترف لك بأني لا أصدق ذلك . فهو أمر غير معقول . ولابد أنه يخفي شيئاً آخر .

– آه ، هل السيد فوج هذا رجل غريب الأطوار ؟

– أعتقد ذلك .

– أغني هو إذن ؟

– هذا أمر جلي ، فهو يحمل معه مبلغاً كبيراً ، كله من الأوراق المالية الجديدة! ولا يقتصد المال في الطريق وإليك دليلا على ذلك فقد وعد ميكانيكي الباخرة مونجوليا أن يمنحه مكافأة سخية إذا وصلنا إلى بومباي قبل الموعد المقرر بكثير .

– وهل تعرف سيدك منذ زمن طويل ؟

فأجاب باسپارتو : « أنا! لقد دخلت في خدمته في اليوم نفسه الذي رحلنا فيه » .

ومن اليسير أن يتصور المرء مقدار الأثر الذي كان لا مفر من أن تحدثه مثل هذه الإجابات في تلك النفس المضطربة ، نفس مفتش الشرطة . فهذا الرحيل السريع من لندن ، في زمن يسير عقب السرقة ، وذلك المبلغ الكبير الذي يحمله معه ، وتلك العجلة في سبيل الوصول إلى بلاد ثانية ، وحجة الرهان الشاذ ، كل ذلك كان يؤيد دون ريب فيكس فيما ذهب إليه . . وحث الفرنسي على الكلام أكثر فأكثر ، وتأكد له أن هذا الشاب لم يكن يعرف سيده إطلاقاً ، وأن هذا السيد كان يعيش في

لندن في عزلة تامة ، وكان يقال عنه إنه غني دون أن يعلم أحد مصدر ثروته ، وإنه رجل لا يسبر غوره . . . الخ . على أن فيكس استطاع في الوقت نفسه أن يثق من أمر واحد ، هو أن فيلياس فوج لن يغادر الباخرة في السويس وأنه سيرحل حقاً إلى بومباي .

وسأل باسپارتو : « وهل بومباي بعيدة ؟ »

فأجاب الشرطي : « بعيدة بعداً غير قليل . فأمامك رحلة تستغرق حوالي عشرة أيام في البحر » .

– وأين توجد بومباي ؟

– في الهند .

– يا للشيطان! إن ما سوف أقوله لك . . . إن هناك شيئاً يزعجني . . . ذلك هو مصباح الغاز!

– أي مصباح ؟

– مصباحي الغازي الذي نسيت أن أطفئه والذي ما زال يشتعل على حسابي! لقد حسبت أنه يكلفني شلنين كل أربع وعشرين ساعة ، أي ما يزيد بمقدار ستة بنسات عما أربحه ، وتدرك من ذلك أنه كلما طالت الرحلة . . . »

فهل فهم فيكس يا ترى مسألة الغاز هذه ؟ إن ذلك لأمر قليل الاحتمال . ثم إنه لم يعد ينصت إلى محدثه ، بل كان يقرر في نفسه أمراً ، وكان الفرنسي قد وصل في صحبته إلى السوق . وترك فيكس رفيقه يشتري ما يريد وإنما أوصاه بألا يفوته اللحاق بالمونجوليا ، وعاد بسرعة إلى مكاتب القنصل . ولما كان فيكس قد كون الآن الرأي النهائي ، فإنه استعاد كل رباطة جأشه .

وقال للقنصل : « سيدي ، لم يعد عندي أدنى شك ، إن رَجُلي في قبضة يدي . إنه ينتحل شخصية رجل شاذ الأطوار يريد الطواف حول العالم في ثمانين يوماً » .

فأجاب القنصل : « إذن فهو رجل ماكر ، ينوي العودة إلى لندن بعد أن يكون قد ضلل رجال شرطة القارتين » .

فأجاب فيكس : « سوف نرى ذلك جيداً »

وسأل القنصل مرة أخرى : « ألا تكون مخطئاً ؟ »

– لست بمخطئ .

– إذن فلماذا أصر ذلك اللص على أن يثبت مروره بقناة السويس بالتأشير على جوازه ؟

فأجاب المخبر : « تقول لماذا ؟ لا أعلم شيئاً عن ذلك سيدي القنصل . ولكن انصت إلي » .

وفي بضع كلمات ، أعاد رواية النقط البارزة في حديثه مع خادم المدعو فوج .

فقال القنصل : « في الواقع أن كل القرائن ضد ذلك الرجل . فماذا أنت صانع ؟ »

– سوف أرسل برقية إلى لندن أطلب فيها بصفة عاجلة أن تبعث إلي في بومباي أمراً بالقبض عليه ، ثم أركب الباخرة « مونجوليا » ، وأتبع اللص حتى الهند ، وهناك ، حيث نكون في أرض إنجليزية ، سوف أدنو منه في أدب ، وأمر القبض في إحدى يدي ، وأضع يدي الأخرى على كتفه » .

وبعد ربع ساعة ، صعد فيكس إلى ظهر المونجوليا ، حاملاً متاعه الخفيف ، ومعه مال وفير ، وما لبثت الباخرة أن أبحرت بكامل سرعتها فوق مياه البحر الأحمر .

٩

البحر الأحمر والمحيط الهندي

يتلاءمان مع خطط فيلياس فوج

تقدر المسافة بين السويس وعدن بألف وثلاثمائة ميل بالضبط ، وتحدد قائمة الشروط الخاصة بالشركة ، لبواخرها ، فترة زمنية قدرها مائة وثمان وثلاثون ساعة لاجتيازها . وكانت المونجوليا ، بأفرانها الشديدة الحرارة ، تسير بسرعة من شأنها أن تجعلها تسبق موعد الوصول النظامي المقرر .

وكان معظم المسافرين الذين ركبوا الباخرة في برنديزي يقصدون الهند : كان بعضهم ذاهباً إلى بومباي والبعض الآخر إلى كلكوتا وإنما عن طريق بومباي ، فمنذ أن امتد خط حديدي يعبر شبه جزيرة الهند كلها عرضاً ، لم يعد من الضروري الالتفاف بحراً حول رأس سيلان .

وكان من بين ركاب مونجوليا الكثير من طوائف الموظفين المدنيين ، والضباط من كافة الرتب . ومن هؤلاء ضباط يتبعون الجيش البريطاني الرئيس ، وآخرون يرأسون فرق الجيش من المواطنين الهنود ، وكلهم يتناولون مرتبات كبيرة .

فكان جميع هؤلاء الموظفين يحيون على ظهر الباخرة حياة هانية يختلط بهم بعض الشبان الإنجليز الذين أتوا ومعهم الملايين من الجنيهات ليؤسسوا في تلك البقاع النائية مصارف تجارية . وكان صراف الباخرة ،

وهو موضع ثقة شركة الملاحة ، وحنو الربان ، ينظم شؤون الباخرة في بذخ وترف : ففي وجبة الإفطار صباحاً ، والغداء في الساعة الثانية ، والعشاء في الساعة الخامسة والنصف ، ثم وجبة الليل في الساعة الثامنة ، كانت الموائد ترزح تحت ثقل أطباق اللحوم الطازجة والمأكولات التي تقدمها مخازن اللحوم والأغذية .

وكانت السيدات القليلات المسافرات بالباخرة يغيرن ملابسهن مرتين في اليوم . كما كانت الموسيقا تعزف ، بل كان الركاب يرقصون كلما سمحت حالة البحر بذلك .

على أن البحر الأحمر كان متقلب الأطوار ، ورديئاً في كثير من الأحايين ككل الخلجان الضيقة المستطيلة . وكلما هبت الريح ، سواء من الساحل الآسيوي ، أو من الساحل الافريقي ، وصدمت جوانب المونجوليا ، وهي باخرة مستطيلة ذات رفاص ، اهتزت هذه اهتزازاً مخيفاً . وحينئذ كانت السيدات يختفين ، والبيانو يصمت ، والغناء والرقص يتوقفان . ومع ذلك فإن الباخرة كانت تجري دون تأخير في اتجاه مضيق باب المندب ، تدفعها آلاتها على الرغم من هبوب الرياح العاصفة واضطراب الأمواج .

فماذا كان يفعل فيلياس فوج في ذلك الحين ؟ قد يعتقد المرء أنه ، وهو الرجل الدائم القلق والفضول ، قد شغلت أفكاره الريح المعاكسة لسير السفينة ، واضطراب الأمواج الذي قد يسبب عطباً في آلة السفينة ، ثم الخسائر المحتملة التي قد تصيب رحلته إذا اضطرت الباخرة إلى الجنوح في ميناء من الموانئ ؟

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، أو على الأقل لم يبد على هذا السيد أي دليل على أنه يفكر في هذه الاحتمالات . فقد كان يبدو دائماً ذلك الرجل الذي لا يؤثر فيه شيء ، ذلك العضو الرزين في نادي الريفورم ، الذي لا يمكن أن تهزه أية مفاجأة أو أي حادث ، ولم يكن التأثر الذي يبدو عليه بأشد من تأثر تلك الآلات الدقيقة التي ترى في الباخرة! قلّما كان يظهر على سطح الباخرة! ولم يهتم كثيراً برؤية ذلك

البحر الأحمر الحافل بالذكريات ، والذي كان مسرحاً للأحداث التاريخية الإنسانية الأولى . فهو لم يأت للتعرف على تلك المدن العجيبة المبعثرة على سواحله والتي تبدو أشباحها الغريبة أحياناً عند الأفق البعيد . ولم يفكر أبداً في أحوال ذلك الخليج العربي الذي روى عنه المؤرخون الأقدمون أمثال سترابون وآريان وأرتميدور قصصاً مخيفة ، والذي لم يكن الملاحون في الزمان الماضي يجرؤون على ارتياده إلا بعد أن كانوا يباركون رحلتهم بتقديم القرابين ، يستعطفون بها الآلهة .

فماذا يا ترى كان يعمل ذلك الرجل الغريب الأطوار وقد لزم غرفته في المونجوليا ؟ كان يتناول أولاً وجباته الأربع كل يوم ، دون أن يتأثر جهازه الهضمي المنتظم باهتزازات الباخرة الأمامية أو الجانبية . وبعد ذلك كان يلعب « الهويست » . نعم كان يلعبها! لقد وجد زملاء يشاركونه غرامه بها : منهم محصل ضرائب ، كان ذاهباً إلى مقر عمله في جاوة ، وقسيس ، هو الأب المبجل « دسيموس سميث » ، وكان عائداً إلى بومباي ، ثم قائد من قواد الجيش الإنجليزي ، وكان عائداً للحاق بفرقته في « بينارس » . كان هؤلاء المسافرون الثلاثة مولعين بلعبة الهويست ولع السيد فوج بها ، فكانوا يلعبونها ساعات طويلة .

أما پاسپارتو فإنه لم يكن يشعر بدوار البحر . وكان يشغل غرفة في مقدمة الباخرة . وكان بدوره يأكل كثيراً . وعلينا أن نعترف بأنه لم يكن متضايقاً من هذه الرحلة القائمة في مثل هذه الظروف . فقد ارتضاها . وكان يتناول غذاء كافياً ، ويحيا حياة هانئة ، ويشاهد بلاداً جديدة وغريبة ، وكان فضلاً عن ذلك يؤكد لنفسه أن هذه النزوات سوف تنتهي تماماً في بومباي .

وفي اليوم التالي لرحيل الباخرة من السويس ، وهو اليوم العاشر من شهر أكتوبر شعر بشيء من السرور إذ قابل على سطح الباخرة ذلك الإنسان المخدوم الذي حادثه عند نزوله في مصر .

فأقبل عليه ، وقال له وهو يبتسم ابتسامة لطيفة : لا أخالني مخطئاً إذا قلت يا سيدي إنك الشخص الذي تطوع عن طيب خاطر ليكون مرشدي في مدينة السويس ؟

فأجاب المخبر قائلاً : حقاً ، لقد عرفتك! فأنت خادم ذلك الانجليزي الغريب الأطوار .

– بالضبط يا سيد . . ؟

– فيكس .

فأجاب پاسپارتو : يا سيد فيكس ، إنني مسرور إذ أراك هنا مرة أخرى على ظهر الباخرة . إلى أين أنت ذاهب إذن ؟

– مثلك إلى بومباي .

– بديع . هل سبق لك أن قمت بهذه الرحلة ؟

فأجاب فيكس : نعم ، عدة مرات . إنني أحد وكلاء شركة شبه الجزيرة .

– فأنت تعرف الهند إذن ؟

فأجاب فيكس : «أنا . . نعم . .» ولم يشأ أن يخوض كثيراً في هذا الموضوع .

– وهل الهند هذه غريبة جداً ؟

– نعم ، إنها جد غريبة! ففيها مساجد ومآذن ، وهياكل ، ومعابد . وفقراء ، ونمور ، وثعابين ، وراقصات! ولكن هل تأمل زيارة هذا القطر ؟

– آمل ذلك يا سيد فيكس . ولا مفر لك من أن تقر معي بأنه لا يجوز لرجل صحيح العقل أن يقضي حياته قافزاً من باخرة إلى عربة قطار ، ومن عربة قطار إلى باخرة بحجة الطواف حول العالم في ثمانين يوماً! ولاشك في أن كل هذه الألعاب البهلوانية سوف تنتهي في بومباي .

فسأله فيكس في لهجة أضفى عليها لوناً طبيعياً : «وهل يتمتع السيد فوج بصحة جيدة ؟» .

– صحته جيدة للغاية يا سيد فيكس . وكذلك أنا! فإنني آكل كالغيلان الجائعة . وهذا من تأثير هواء البحر .

– ولكني لا أرى سيدك أبداً على سطح السفينة .

– نعم ، فهو ليس فضولياً .

– هل تعلم يا سيد پاسپارتو أن رحلة الثمانين يوماً المزعومة هذه قد تخفي وراءها مهمة سرية . . . دبلوماسية مثلاً!

– أقسم لك بشرفي يا سيد فيكس إنني لا أعلم شيئاً عن ذلك ، وأعترف لك أن هذا الأمر لا يهمني إطلاقاً .

ومنذ تلك المقابلة أتيحت لپاسپارتو وفيكس ظروف كانا يتحادثان فيها معاً في كثير من الأحيان ، واهتم المفتش بأن يوثق علاقته مع خادم السيد فوج ، فقد تفيده هذه العلاقة في يوم من الأيام . وكثيراً ما كان يقدم له ، في حانة الباخرة ، بضعة كؤوس من الويسكي أو من شراب «ب پبل إيل» ، كان الشاب الطيب يتقبلها دون كلفة ثم يقدم له بدوره كؤوساً أخرى – معتقداً بأن فيكس سيد شريف .

وفي تلك الأثناء كانت الباخرة تتقدم بسرعة في سيرها . ففي اليوم الثالث عشر شوهدت مدينة «موكا» تحوطها أسوارها المتخربة التي ترتفع فوقها بعض أشجار النخيل الخضراء اليانعة . وبدت على بعد في الجبال حقول شاسعة تغطيها شجيرات البن .

وأخذ پاسپارتو يتأمل تلك المدينة المشهورة وهو في حيرة من أمره ، إذ خيل إليه أنها تشبه نصف فنجان هائل ، بجدرانها الدائرية التي يكتنفها جزء مكشوف يبدو في وسطها كأذن الفنجان .

وعبرت المونجوليا أثناء الليلة التالية مضيق «باب المندب» ومعناه بالعربية «باب الدموع» . وفي اليوم التالي ، أي الرابع عشر من الشهر ، رست عند رأس «ستيمر پوينت» في الشمال الغربي من خليج عدن ، لتتزود بالوقود .

وعملية تغذية أفران الباخرة ، في مثل تلك البقاع البعيدة عن مراكز الإنتاج ، عملية هامة وخطيرة ، تكلف شركة شبه الجزيرة مبلغ ثمانمائة ألف جنيه كل عام . وقد اضطرت في الواقع إلى إقامة مستودعات الوقود في عدة موانئ . وكان طن الفحم في هذه البحار النائية يتكلف ثمانين فرنكاً وكان على المونجوليا أن تقطع ألفاً وستمائة وخمسين ميلاً قبل أن تصل إلى بومباي . وأن تبقى أربع ساعات في رأس «ستيمر پوينت» حتى تملأ مخازنها .

على أن هذا التأخير لم يكن من شأنه بأي حال أن يلحق ضرراً

بخطة فيلياس فوج ، فقد كان كل تأخير متوقعاً وداخلاً في تقديره . ومن جهة أخرى فإن المونجوليا ، التي كان مقدراً لها أن تصل إلى عدن في صباح اليوم الخامس عشر من الشهر ، وصلتها في مساء اليوم الرابع عشر ، فاقتصد بذلك خمس عشرة ساعة .

ونزل السيد فوج وخادمه إلى البر . وأراد السيد أن يحصل على تأشير في جواز سفره ، فتبعهما فيكس دون أن يشعرا به . وما أن تم إجراء التأشير حتى عاد فيلياس فوج ليواصل اللعب الذي انقطع .

أما پاسپارتو فإنه أخذ يتسكع كعادته ، وسط هذا الحشد من الصوماليين والبراهمة واليهود والعرب والأوربيين ، الذين يشكلون مجموع سكان عدن البالغ عددهم خمسة وعشرين ألف نفس . وقد أعجبته الحصون التي جعلت من تلك المدينة « جبل طارق » آخر ببحار الهند . وأعجبته صهاريج المياه الفاخرة التي ما زال يشتغل فيها المهندسون الإنجليز ، بعد أن انقضى من الزمان ألفا عام على اشتغال مهندسي الملك سليمان في مثل تلك الصهاريج .

وقال پاسپارتو لنفسه وهو يعود إلى ظهر الباخرة : إنه لأمر مدهش ، مدهش للغاية! لقد أدركت الفائدة التي تعود على المرء من السياحة ، إذا أراد أن يرى أشياء جديدة .

وفي الساعة السادسة مساء ، كانت المونجوليا تمخر عباب خليج عدن وأخذت تسير بعد ذلك في مياه المحيط الهندي . وكان محدداً لها مائة وثمان وستون ساعة لإتمام الرحلة بين عدن وبومباي . وفضلاً عن ذلك فإن المحيط الهندي كان ملائماً لها . واستمرت الريح تهب في اتجاه الشمال الغربي . وانفردت الشراعات لتساعد البخار في عمله . واعتدلت الباخرة في سيرها ولم تعد تتأرجح ، وعادت المسافرات إلى الظهور على سطح الباخرة وهن في أبهى زينتهن ، وبدأ الرقص والغناء من جديد . واستمرت الرحلة على هذا المنوال في أحسن أحوال جوية ممكنة . وسر پاسپارتو من تلك الصحبة الظريفة التي أتاحتها له المصادفات في شخص فيكس .

وحوالي ظهر اليوم الحادي والعشرين من أكتوبر ، شوهد الساحل الهندي . وبعد ساعتين صعد المرشد إلى ظهر المونجوليا .

وبدت في الأفق تلال ترسم مع السماء صورة رائعة متسقة . وبعد قليل أخذت الصفوف المتراصة من أشجار النخيل ، التي تغطي المدينة ، تبدو بوضوح أمام الناظرين .

ودخلت الباخرة في ذلك الخليج المكون من جزر ساليت وكولابا وايليفانتا وبولشر . وفي الساعة الرابعة والنصف رست على أرصفة بومباي .

وكان فيلياس فوج في هذا الوقت من النهار قد أكمل الدور الثالث والثلاثين من لعبة الهويست لذلك اليوم ، وقد قام مع زميله في اللعبة بحركة جريئة رابحة كانت مسك الختام في تلك الرحلة البحرية البديعة .

وكان المفروض أن تصل الباخرة إلى بومباي في اليوم الثاني والعشرين من أكتوبر . ولكنها وصلت إليها في اليوم العشرين . وعلى ذلك فقد اقتصد فوج من الوقت يومين منذ أن غادر لندن ، وسجل هذا الربح في كراسته الخاصة ، في العمود المخصص للأرباح .

١٠

باسپارتو يحمد الله على خلاصه

من موقف حرج وإن كان قد فقد حذاءه

من المعروف أن الهند ، وهي ذلك المثلث المقلوب الذي تتجه قاعدته نحو الشمال ورأسه نحو الجنوب ، تشغل مسطحاً مساحته ألف وأربعمائة ميل مربع ، ينتشر في أرجائها شعب يبلغ تعداده مائة وثمانين مليوناً من السكان . وتمارس الحكومة البريطانية سيادة حقيقية على جزء من هذا القطر الفسيح . وأقامت حاكماً عاماً في كلكتا ، وحكاماً آخرين في مدراس وبمباي والبنجال ، وحاكماً مساعداً في آجرا .

على أن الهند الإنجليزية الحقيقية لا تضم إلا مسطحاً تبلغ مساحته سبعمائة ميل مربع فحسب ، ويبلغ تعداد سكانه من مائة إلى مائة وعشرة ملايين من الأنفس . وفي هذا دلالة واضحة على أن جزءاً هاماً من ذلك القطر لا يخضع لسلطان ملكة بريطانيا . والواقع أن بعض المهراجات داخل الهند ، وهم أمراء شرسون أقوياء ، يتمتعون باستقلال تام حقيقي .

ومنذ عام ١٧٥٦ ، وهو الوقت الذي قامت فيه أول مؤسسة إنجليزية في الموضع الذي تشغله الآن مدينة مدراس ، ذلك العام الذي اندلعت فيه ثورة الجنود «السباهيين» ، كانت شركة الهند المشهورة في أوج سلطانها ، وكانت تضم بالتدريج مختلف الأقاليم التي كانت

تشتريها من المهراجات في مقابل دخول سنوية بسيطة تدفعها لهم وقد لا تدفعها إطلاقاً . وكانت تعين الحاكم العام والموظفين المدنيين والعسكريين . على أن الشركة لم يعد لها الآن كيان . وأصبحت الأملاك الإنجليزية في الهند تتبع التاج البريطاني مباشرة .

وعلى هذا ، فمظهر شبه الجزيرة العربية ، وعادات أهلها ، وتوزيع السلالات البشرية فيها ، تميل كلها إلى التغير والتبدل من يوم إلى آخر . وكان القوم فيما مضى يتنقلون في ربوعها بكافة وسائل المواصلات العتيقة : على الأقدام وعلى ظهور الخيل ، وفي العربات التي تجرها الدواب أو يجرها الإنسان ، وفي المحفات ، وعلى ظهور الآدميين ، الخ . . . أما الآن فهناك قوارب بخارية تجتاز أنهار الهندوس والجانج بسرعة كبيرة . وهناك خط حديدي متفرع فروعاً كثيرة ، يعبر الهند عرضاً من أقصاها إلى أقصاها ويصل ما بين بومباي وكلكتا في ثلاثة أيام فقط . وهذا الخط الحديدي لا يتبع طريقاً مستقيماً يقطع الهند عرضاً ، فالخط المستقيم لا يتجاوز طوله ألفا أو ألفا ومائة ميل ، وتستطيع القطر ذات السرعة المتوسطة أن تقطعه في ثلاثة أيام فحسب . ولكن المسافة التي يقطعها القطار فعلاً أكبر من ذلك بمقدار الثلث على الأقل ، وذلك بسبب القوس الذي يرسمه الخط الحديدي عند انحرافه إلى شمال شبه الجزيرة حتى مدينة الله آباد .

وفيما يلي وصف إجمالي للخط الحديدي الكبير لشبه جزيرة الهند . فبعد أن يغادر القطار جزيرة بومباي ، يجتاز «سالسيت» ، ثم يرتقي الهضبة عند «تاناه» ويعبر سلسلة جبال «غاتة الغربية» ، ثم ينطلق إلى الشمال الشرقي حتى «بورهامپور» ، ويشق إقليم «بوندلكوند» الذي يتمتع ببعض الاستقلال ، ثم يرتفع تدريجياً حتى الله آباد . وينحني بعدها نحو الشرق ويقابل نهر الجانج في بينارس ، ثم يبتعد عنه قليلاً ، وينحدر نحو الجنوب الشرقي عند «بورديفان» ومدينة «شانديرناجور» الفرنسية ، ومن ثم يتجه في خط مستقيم نحو كلكتا .

وقد نزل ركاب المونجوليا في بومباي في الساعة الرابعة والنصف مساء .

ويقوم القطار الذاهب إلى كلكتا في الساعة الثامنة تماماً .

وعلى ذلك استأذن السيد فوج من زملائه ، وغادر الباخرة ، وكلف خادمه بشراء بعض الأشياء ، وأوصاه بصفة خاصة أن يكون حاضراً في المحطة قبل الساعة الثامنة ، وسار متجهاً نحو مكتب جوازات السفر ، بخطواته المتزنة المضبوطة كرقاص الساعة الفلكية .

وهكذا فإنه لم يفكر إطلاقاً في رؤية ما في بومباي من مبان رائعة عجيبة : كدار الحكومة ، ودار الكتب الفاخرة ، والحصون والموانئ ، وسوق القطن ، والأسواق العامة ، والمساجد ، ومعابد اليهود ، وكنائس الأرمن ، والمعبد الهندي الرائع في « ماليبارهل » الذي يزينه برجان متعددا الزوايا . وهو لن يشاهد « اليفانتانا » الرائعة أو مقابرها الغامضة المختفية في الجنوب الشرقي من الخليج ، ولا كهوف « كانهيرى » في جزيرة « سالسيت » التي تضم الآثار الرائعة للفن المعماري البوذي! كلا ، إنه لم يفكر مطلقاً في شيء من هذا ، فما أن خرج من مكتب جوازات السفر حتى توجه في هدوء إلى المحطة ، وهناك تناول طعام العشاء . وقد اعتقد رئيس خدم المطعم أن من واجبه أن يوصي السيد فوج بتذوق نوع من يخنى « أرانب الإقليم » مع المأكولات التي تشملها الوجبة ، وأطرى له محاسن هذا الصنف . وقد قبل فيلياس فوج أن يتناول هذا « اليخنى » ، وتذوقه في اهتمام كبير ، ولكنه على الرغم مما كان يحويه من مرق ممزوج بالتوابل ، فقد وجده كريه الطعم . فنادى رئيس الخدم ، وقال له وهو ينظر إليه بتمعن : « هل هذا لحم أرنب ؟ »

فأجاب الرجل العجيب في قحة قائلاً : « نعم يا سيدي ، هذا لحم أرانب الأدغال »

– ومثل هذا الأرنب ، أيموء حين يذبح ؟

– يموء! آه يا سيدي! هل الأرنب يموء ؟ إنني أقسم لك إن هذا . . .

فأجاب السيد فوج ببرود : « سيدي رئيس الخدم ، لا تقسم ،

واعلم هذا : كانت القطط في الهند في سالف الزمان تعتبر من الحيوانات المقدسة ، وكان ذلك في العصر الذهبي . . .

– بالنسبة للقطط يا سيدي ؟

– نعم ، وربما بالنسبة للمسافرين أيضاً! »

وما أن أبدى السيد فوج ملاحظته هذه حتى عاد إلى تناول عشائه في هدوء .

وكان الشرطي فيكس قد نزل من الباخرة مونجوليا بعد أن غادرها فوج بلحظات ، وأسرع ليقابل مدير شرطة بومباي ، فأخطره بصفته الرسميه وبالمهمة المكلف بها ، وبموقفه إزاء الشخص المفروض أنه ارتكب السرقة . وسأله هل وصل من لندن أمر بالقبض على اللص ؟

فأجاب مدير الشرطة بالنفي . والواقع أن أمر القبض ، على فرض أنه صدر بعد رحيل فوج ، لا يمكن أن يسبقه . وخاب أمل فيكس وثبط عزمه . وأراد أن يستخلص من المدير أمراً بالقبض على السيد فوج ، ولكن المدير رفض ذلك ، فإن القضية كانت من اختصاص الإدارة المركزية في لندن ، وهي التي تملك وحدها إصدار أمر القبض . وهذه الصرامة في المبادئ ، والدقة الشديدة في احترام شرعية الإجراءات تتفق تماماً مع التقاليد الإنجليزية التي لا تتهاون في المسائل التي تمس حرية الأفراد .

ولم يفلح فيكس في طلبه ، وأدرك أنه لا مفر له من أن ينتظر وصول الأمر الذي يطلبه ، ولكنه صمم على ألا يدع خصمه العنيد يختفي عن ناظريه أثناء المدة التي سوف يقضيها في بومباي . ولم يكن لديه أي شك في أن فيلياس فوج سوف يقيم في بومباي . وتعلمون أن هذا هو ما كان يعتقده أيضاً پاسپارتو . فأمامه إذن متسع من الوقت حتى يصل إليه أمر القبض .

على أن پاسپارتو قد أدرك تماماً ، من الأوامر التي تلقاها من سيده ، بعد مغادرتهما للباخرة مونجوليا ، أن الأمور في بومباي سوف تجري كما جرت في السويس وفي پاريس ، وأن الرحلة لن تنتهي هنا بل ستستمر حتى كلكتا على الأقل ، وربما إلى أبعد من ذلك . وأخذ يتساءل عما إذا

كان ذلك الرهان الذي عقده السيد فوج رهاناً حقيقياً وجدياً ، وعما إذا كانت الأقدار ستجره إلى إتمام السياحة حول العالم في ثمانين يوماً ، وهو الإنسان الذي أراد أن يتمتع بحياة هادئة مريحة .

وبعد أن اشترى بعض القمصان والجوارب ، أخذ يتنزه في شوارع بومباي في انتظار موعد سيده ، وكان الزحام شديداً في الشوارع . واختلط الأوربيون من جميع الأجناس بأهل فارس ذوي القلنسوات المدببة ، وأهل « بونهياس » ذوي العمائم المستديرة ، وأهل « السند » ذوي القلنسوات المربعة ، والأرمن في أرديتهم الطويلة ، وشعب « الپارس » ذوي الطواقي السوداء . وكان القوم في ذلك اليوم يحتفلون بعيد من أعياد أولئك « الپارسيين » وهم خلفاء شيعة (زرادشت) ، أكثر قوم الهندوس مهارة وذكاء وصرامة ، وتقدماً في الحضارة ، وينتمون إلى جنس يضم إليه في الوقت الحاضر أغنى التجار في بومباي . كانوا يحتفلون بعيد ديني ، احتفالاً تنكرياً ، تسير فيه المواكب ، وتقام فيه الملاهي التي تظهر فيها الراقصات الهنديات مرتديات ثياب « الكريشة » المتموجة الوردية اللون ، المطرزة بأسلاك الذهب والفضة ، يرقصن على نغمات الكمان ودقات الطبول رقصاً رائعاً يغلب عليه طابع الحشمة .

ولسنا في حاجة إلى القول إن پاسپارتو أخذ ينظر باهتمام إلى تلك الاحتفالات العجيبة ، وإن مقلتيه وأذنيه أخذت تتسع اتساعاً كبيراً لرؤية ما يجري حوله وسماعه ، وأنه بدا غبياً كأشد ما نتصور الغباء في إنسان على وجه البسيطة .

على أن هذا الفضول ، لسوء حظه وحظ سيده ، الذي تعرضت رحلته للخسارة بسببه ، قد جره إلى نتائج أبعد من ذلك بكثير .

فقد حدث أن پاسپارتو ، بعد أن شاهد هذا الاحتفال « الپارسي » ، سار متجهاً نحو المحطة . وبينما هو يمر أمام المعبد الهندي الرائع ، معبد « ماليبارهيل » ، خطرت له فكرة مشؤومة ، فكرة دخول المعبد لزيارته . وكان يجهل أمرين : أولهما أن دخول بعض المعابد الهندوسية ممنوع منعاً باتاً على المسيحيين ، وثانيهما أن الهندوس أنفسهم لا يستطيعون

دخول معابدهم قبل أن يخلعوا أحذيتهم ويتركوها بالباب . ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن الحكومة الإنجليزية قد رسمت لنفسها سياسة حكيمة باحترام جميع الأديان في تلك البلاد ، حتى في أبسط التفاصيل وأقلها أهمية ، وفرضت هذا الاحترام على الجميع ، وكانت تعاقب بشدة كل من تسول له نفسه انتهاك حرمة أي دين .

ودخل پاسپارتو معبد « ماليبارهيل » ، كأي سائح عادي ، لم يدر بخلده أي سوء . وقد بهره ما في المعبد من زخرفة براهمية يشع منها بريق يخلب الألباب . وإنه لفي تأمله العميق ، إذا به يسقط بغتة فوق البلاط المقدس ، وقد هجم عليه ثلاثة من الرهبان ، والشرر يتطاير من عيونهم ، وانتزعوا حذاءه وجواربه ، وأخذوا يضربونه ضرباً مبرحاً ، وهم يطلقون صيحات متوحشة .

وأسرع الفرنسي القوي البدن الخفيف الحركة بالنهوض ، وبلطمة من قبضة يده وضربة من قدمه ، أسقط اثنين من مهاجميه وقد ارتبكا في ثيابهما الطويلة ، ثم اندفع إلى خارج المعبد بقدر ما في سيقانه من سرعة كبيرة ، فابتعد كثيراً عن خصمه الثالث الذي أسرع يقتفي أثره وهو يستثير عليه الجمهور .

وفي الساعة الثامنة إلا خمس دقائق ، أي قبل قيام القطار ببضع دقائق ليس غير ، وصل پاسپارتو إلى محطة السكة الحديدية دون قبعة ، حافي القدمين ، وقد فقد في المعركة ربطة الثياب التي كان قد اشتراها .

وكان فيكس واقفاً على رصيف المحطة ، إذ إنه حين اقتفى أثر السيد فوج وهو متجه إلى المحطة ، أدرك أن هذا الرجل الخبيث سوف يغادر بومباي ، فحزم أمره في الحال على مرافقته حتى كلكتا أو ما بعدها لو اقتضى الأمر ذلك . ولم ير پاسپارتو فيكس الذي انزوى في الظلام . على أن فيكس سمعه وهو يقص على سيده ما حدث له في كلمات قليلة .

فرد عليه سيده قائلاً في بساطة ، وهو يجلس في عربة من عربات القطار : « آمل ألا يحدث لك ذلك مرة أخرى » .

وتبع الفتى المسكين سيده ، وهو حافي القدمين ، وقد غلب على أمره فلم ينبس ببنت شفة .

وكان فيكس على وشك أن يصعد إلى عربة أخرى ، إذ طرأت عليه فكرة جعلته يعدل فجأة عن مشروع سفره ، فقال لنفسه : كلا ، سأبقى هنا ، هذه جريمة ارتكبت في الإقليم الهندي . . . إن الرجل في قبضة يدي » .

وفي هذه اللحظة ، أطلقت القاطرة صفيراً قوياً ، واختفى القطار في ظلام الليل .

١١

فيلياس فوج يشتري دابة بثمن خيالي

وقام القطار في الوقت المحدد لقيامه ، وكان يحمل عدداً من المسافرين ، منهم بعض الضباط والموظفين المدنيين وبعض تجار الأفيون وتجار مادة «النيلة» الزرقاء المستعملة في الصباغة . وكان پاسپارتو يشغل المقصورة نفسها التي كان يشغلها سيده . وكان ثمة مسافر ثالث جلس في الركن المقابل لهما ، هو الأميرالاي النبيل سير فرنسيس كرومارتي ، أحد زملاء السيد فوج ممن كانوا يلعبون الورق معه خلال الرحلة من السويس إلى بومباي ، وكان عائداً للحاق بفرقته المعسكرة في «بينارس» .

وكان النبيل سير فرنسيس كرومارتي رجلاً طويل القامة أبيض البشرة ، قد قارب الخمسين من عمره ، تألق بجدارة خلال ثورة الجنود السباهيين الأخيرة . وكان يستحق أن يطلق عليه صفة المواطن . فقد أقام منذ طفولته في الهند . ولم يظهر في وطنه الأصلي إلا مرات قليلة نادرة . وكان رجلاً مثقفاً . في استطاعته أن يقدم للسيد فوج عن طيب خاطر معلومات قيمة عن تاريخ بلاد الهندوس وتقاليدها وأنظمتها . إذا كان فيلياس فوج هو الرجل الذي يطلب مثل تلك البيانات ، ولكن هذا السيد لم يطلب منه شيئاً . . . . فإنه لم يكن إنساناً على سفر ، بل

كان جسماً متزناً يرسم دائرة حول الكرة الأرضية ، وفقاً لقوانين الحركة الآلية العقلية . وكان في هذه اللحظة يحسب بعقله عدد الساعات التي أمضاها منذ أن غادر لندن . وكان من المتوقع أن يفرك يديه فرحاً بالنتيجة التي وصل إليها . لو كان من طبيعته أن يقوم بحركات لا ضرورة لها .

وكان النبيل سير فرنسيس كرومارتي قد أدرك غرابة أطوار رفيقه في السفر ، مع أنه لم يدرسه إلا خلال اللعب ، والورق في يديه ، بين كل دور وآخر . وكان له الحق في أن يتساءل عما إذا كان ثمة قلب آدمي ينبض في ذلك الجسم البارد المظهر ، وعما إذا كان لفيلياس فوج نفس حية تتأثر بجمال الطبيعة أو بالأحاسيس الإنسانية . وقد شغلت هذه المسألة فكره ، فإنه لم يسبق أن قابل في حياته ، حتى اليوم ، إنساناً أكثر غرابة من هذا الرجل الذي صاغته العلوم الدقيقة .

ولم يكتم فيلياس فوج عن النبيل سير فرنسيس كرومارتي مشروع الرحلة التي يقوم بها حول العالم ، ولا الظروف التي أحاطت بذلك المشروع . ولم ير الضابط في هذا الرهان إلا تصرفاً شاذاً لا هدف له ، ولا مصلحة مشروعة تبرر القيام به ، وأنه إذا استمر هذا السيد الغريب الأطوار يتنقل بتلك السرعة الكبيرة ، فإنه سوف ينهي تلك الرحلة دون أن يأتي شيئاً مفيداً ، لا لنفسه ولا لغيره .

وبعد أن انقضت ساعة على مغادرة بومباي ، عبر القطار جزيرة « سالسيت » مجتازاً الجسور ، وانطلق على اليابسة . وعند محطة « كاليان » ترك إلى الجهة اليمنى الخط الفرعي الذي ينحدر نحو الجنوب الشرقي للهند عن طريق « كانداله ، يوناه » ، ووصل إلى محطة « يويل » . وعندئذ دخل في منطقة جبال « غاتة الغربية » الكثيرة الفروع ، وهي سلسلة من الجبال أساسها حجر البازلت ، تغطي قممها غابات كثيفة . وكان النبيل السير فرنسيس كرومارتي وفيلياس فوج يتبادلان من وقت إلى آخر بعض الأحاديث . وفي تلك اللحظة قال الأميرالاي ، وهو يواصل حديثاً انقطع عدة مرات : « منذ عدة سنوات ،

كان يمكن أن يحدث لك يا سيد فوج في هذه البقعة تعطيل قد يضر كثيراً بمواعيد رحلتك » .

– وما السبب في ذلك يا سير فرنسيس ؟

– لأن الخط الحديدي كان مقطوعاً عند قاعدة هذه الجبال التي لابد من اجتيازها في محفات أو على ظهور الخيل حتى محطة « كانداله » الواقعة على السفح المقابل من الجبال .

فأجاب السيد فوج : « هذا التعطيل لم يكن مطلقاً ليؤثر في المواعيد المقررة في خطتي ، فإنه لم يفتني أن أعمل حساباً لقيام بعض العوائق » .

فقال الضابط : « ومع ذلك فإنك معرض يا سيد فوج لمشكلة سيئة للغاية بسبب المغامرة التي قام بها ذلك الشاب » .

أما پاسپارتو فإنه كان في هذه الأثناء يغط في نوم عميق ، وقد لف قدميه في غطاء يستعمله للسفر ، ولم يكن يحلم مطلقاً بأن هناك من يتكلم عنه .

واستمر السير فرنسيس كرومارتي يقول : « إن الحاكم الإنجليزي يتشدد بحق في هذا النوع من الجرائم بالذات ، فإنه يضع احترام تقاليد الهندوس فوق كل اعتبار آخر ، وإذا كان خادمك قد قبض عليه . . . »

فأجاب السيد فوج : « حسناً يا سير فرنسيس ، إن كان قد قبض عليه ، فإنه حوكم وأدين ثم ينفذ مدة العقوبة التي توقع عليه . ثم يعود بعدها في سلام إلى أوربا . ولست أرى في هذا الحادث ما يؤخر رحلة سيده! »

وهنا انتهى الحديث . وفي غضون الليل ، اجتاز القطار جبال غاتة ومر بناسيك ، وفي اليوم التالي ، وهو الحادي والعشرون من أكتوبر ، انطلق عابراً قطراً مسطحاً نسبياً ، يتكون من إقليم « خانديش » . وكان الريف المزروع زرعاً حسناً ، تتناثر في انحائه الضيعات والكفور التي ترتفع في سمائها منائر المعابد بدلاً من قباب الكنائس الأوربية . ويروي هذا الإقليم الخصب عدد كبير من النهيرات ، يتفرع معظمها من نهر جوداڤيري .

وما أن استيقظ پاسپارتو حتى أخذ ينظر حوله . ولم يصدق أنه يجتاز بلاد الهندوس في إحدى قطر «شركة سكة حديد الهند الكبرى» وكان هذا الأمر يبدو له بعيد الاحتمال على الرغم من أنه كان حقيقة واقعة! وكانت القاطرة التي تسيرها يد ميكانيكي إنجليزي ، ويغذي أفرانها فحم إنجليزي ، تقذف بدخانها فوق مزارع القطن والبن وجوز الطيب والقرنفل والفلفل الأحمر . وكان البخار الصاعد يلتف في أشكال حلزونية حول مجموعات النخيل التي كانت تبدو من خلالها الأكواخ الهندية «البنجالو» الغريبة الشكل ، وبعض الأديرة المهجورة «ألفهاريس» ، ثم معابد عجيبة غنية بالزخارف التي لا ينضب لها معين ، والتي تميز فن المعمار الهندوسي . ثم ظهرت مساحات شاسعة من الأرض تمتد حتى مدى البصر ، وأدغال تمرح فيها الثعابين والنمور التي يخيفها زئير القطار . وأخيراً ظهرت الغابات التي يشقها الطريق الحديدي ، وتسكنها الفيلة التي تقف ناظرة بعين مفكرة إلى موكب القطار وهو يمر محوطاً بالغبار والدخان .

وفي تلك الفترة من الصباح ، بعد أن تجاوز القطار محطة «ماللیجوم» ، وجد المسافرون أنهم يجتازون ذلك الإقليم التعس الذي كثيراً ما خضبته بالدماء شيعة الآلهة «كالي» . ولم تكن مدينة «ايللورا» بمعابدها المدهشة ببعيدة عن الطريق . ولم تكن بعيدة أيضاً مدينة «اورانجاباد» الشهيرة عاصمة «نظام اورتجزب» ذلك الرجل الشرس الطباع ، وهي الآن مركز إحدى المقاطعات التي فصلت عن مملكة «النظام» . وكان هذا هو الإقليم الذي يبسط عليه «فيربنجيا» زعيم «التوجس» وملك «الخانقين»[1] سلطانه المطلق . وكان هؤلاء القتلة الذين اتحدوا في جماعة لا يمكن أن يمسها بشر ، يخنقون ضحاياهم من جميع الأعمار ليقدموهم قرباناً لآلهة الموت ، دون أن يريقوا دماً . وأتى وقت لم يكن الإنسان يستطيع فيه أن ينقب في شبر من تلك الأرض دون أن يجد جثة لضحية . وقد استطاعت الحكومة الإنجليزية أن تمنع

١ - وهم قوم يقتلون الناس خنقاً.

هذه الجرائم إلى حد كبير ، إلا أن تلك الجماعة الرهيبة ما زالت قائمة تباشر عملها .

وفي الثانية عشرة والنصف توقف القطار في محطة «بورهامپور» ، واستطاع پاسپارتو أن يشتري بالعملة الذهبية خفاً مزيناً باللآلئ الكاذبة لبسه في زهو ظاهر .

وتناول المسافرون بسرعة طعام الغداء ، ثم رحل بهم القطار إلى محطة «آسورجور» بعد أن سار برهة محاذياً شاطئ نهر «تايتي» ، وهو نهير يصب في خليج «كامبي» بالقرب من مدينة «سورات» .

ومن المفيد أن تطالع الأفكار التي كانت تشغل حينئذ عقل پاسپارتو : فقد كان يعتقد ، قبل وصوله إلى بومباي ، أن الرحلة لن تطول إلى أبعد من هذه المدينة . أما الآن ، وقد انطلق في ذلك القطار السريع يعبر الهند من أقصاها إلى أقصاها ، فقد انقلبت أفكاره رأساً على عقب ، وعادت إليه طبيعته فوراً ، واسترجع خيالات صباه ، ونظر بعين الجد إلى مشروعات سيده ، وبدأ يصدق الرهان الذي عقده بشأن رحلته حول العالم في نطاق زمني محدود لا يجوز له أن يتعداه . وبدأ فعلاً يبدي قلقه لأسباب التأخير المحتملة ، والحوادث التي قد تقع في الطريق ؛ وأخذ يستشعر الاهتمام بهذا الرهان ، بل كان يرتعد من ذكرى الحادث الذي وقع بسبب غفلته التي لا تغتفر والتي كان يحتمل أن يتسبب عنها ضياع الرهان . ولذلك فإنه كان أكثر قلقاً من سيده لأنه أسرع منه تأثيراً وأقل فتوراً . وكان يكثر من حساب الأيام التي انقضت ، ويلعن تلكؤ القطار في المحطات ويتهمه بالتباطؤ ، ويلوم السيد فوج في قرارة نفسه لأنه لم يعرض على الميكانيكي جائزة لزيادة السرعة . ولم يكن ذلك الشاب الطيب يدرك أن ما كان مستطاعاً في الباخرة لم يعد ممكناً في قطر السكة الحديدية التي كانت محدودة السرعة .

ولما أقبل المساء ، دخل القطار في مضايق جبال «سوتپور» التي تفصل إقليم «خانديش» عن إقليم «بندلكوند» . وفي اليوم التالي ، وهو الثاني والعشرون من أكتوبر ، سأل سير فرنسيس كرومارتي

باسپارتو عن الوقت فنظر هذا إلى ساعته وأجاب بأن الساعة الثالثة صباحاً . والواقع أن هذه الساعة العظيمة التي كانت مطابقة على الدوام للساعة في خط جرينتش ، الذي يقع بالقرب من خط الطول السابع والسبعين غرباً ، كانت بطبيعة الحال متأخرة ، وكانت وقتذاك متأخرة فعلاً بمقدار أربع ساعات .

وعلى ذلك فقد صحح السير فرنسيس الساعة التي ذكرها باسپارتو ، وأبدى له الملاحظة نفسها التي سبق أن أبداها له فيكس ، وحاول أن يقنعه بأن يضبط ساعته طبقاً للوقت السائد في كل خط من خطوط الطول ، وأنه ما دام يسير دائماً نحو الشرق ، أي مواجهاً للشمس ، فإن الأيام تقصر بمقدار أربع دقائق لكل درجة طولية يجتازها . على أن هذا الكلام كان عديم الجدوى في نظر باسپارتو . وسواء فهم الشاب العنيد ملاحظة الضابط الكبير أو لم يفهمها ، فإنه أصر على ألا يقدم ساعته التي احتفظ بوقتها مطابقاً على الدوام لوقت لندن . على أن خبله هذا كان بريئاً لا ضرر منه لأحد .

وفي الثامنة صباحاً ، وعلى بعد خمسة عشر ميلاً من محطة « روثال » ، وقف القطار في أرض فضاء تتوسط الغابات ، تقوم على أطرافها بعض البيوت الهندية من طراز « البنجال » وأكواخ للعمال ، ونزل سائق القطار ، ومر أمام العربات قائلاً : « لينزل الركاب هنا » .

ونظر فيلياس فوج إلى سير فرنسيس كرومارتي الذي بدا عليه أنه لم يفهم سبب هذا التوقف وسط غابة من أشجار التمر الهندي والخاجور .

ولم يكن باسپارتو بأقل منه دهشة ، فاندفع إلى خارج الخط الحديدي ثم عاد سريعاً بعد برهة وهو يصيح :

« سيدي ، ليس هناك خط حديدي! »

فسأله سير فرنسيس كرومارتي قائلاً « ماذا تعني ؟ »

– أعني أن القطار لن يعاود سيره!

فنزل الضابط في الحال من عربته ، وتبعه فيلياس فوج في غير عجلة . وخاطب الاثنان السائق .

سأله السير فرنسيس كرومارتي قائلاً : « أين نحن الآن ؟ »

فأجاب السائق : « في قرية خولبي » .

– وهل نتوقف هنا ؟

– بلا شك . فالخط الحديدي لم يكمل بعد .

– كيف لم يكمل ؟

– نعم لم يكمل ، فهناك جزء يبلغ طوله خمسين ميلاً ، ويجب مد الخط الحديدي عليه بين هذا الموضع ومدينة الله آباد حيث يستمر الخط بعد انقطاعه .

– مع ذلك فإن الصحف قد أعلنت افتتاح الخط الحديدي بأكمله!

– وماذا تتوقع من الصحف غير هذا يا سيدي الضابط ؟ لقد أخطأت .

فقال سير فرنسيس كرومارتي الذي بدأ يحتد : « ومع ذلك تصرفون تذاكر سفر من بومباي إلى كلكتا » .

فقال السائق : « بلا شك ، ولكن الركاب يعرفون جيداً أنه يجب عليهم أن يسافروا بوسيلة أخرى من خولبي إلى الله آباد » .

وكان سير فرنسيس كرومارتي يتميز غيظاً ، وباسپارتو يلتهب رغبة في أن يضرب سائق القطار حتى يقضي عليه ، بالرغم من أن السائق لم يكن مسؤولاً عما حدث . ولكنه لم يجرؤ على النظر إلى سيده .

وقال السيد فوج ببساطة : « سنقوم ، يا سير فرنسيس ، بالبحث عن الوسيلة التي توصلنا إلى الله آباد » .

– يا سيد فوج ، ألا يضر هذا التأخير بمصالحك ضرراً بليغاً ؟

– كلا يا سير فرنسيس ، كنت أتوقع مثل هذا التأخير .

– كيف ذلك ؟ هل كنت تعرف أن الخط الحديدي . . . .

– كلا ، وإنما كنت أعلم أن عقبة ما سوف تقوم في طريقي إن عاجلاً أو آجلاً . وعلى كل حال ، فلم تنزل بي بعد أية خسارة . فقد سبق أن اقتصدت يومين أستطيع أن أضحي بجزء منهما . وهناك سفينة بخارية تبحر من كلكتا في اليوم الخامس والعشرين من هذا الشهر في

الساعة الثانية عشرة ظهراً قاصدة هونج كونج ، ونحن ما زلنا في اليوم الثاني والعشرين ، وسنصل إلى كلكتا في الوقت المناسب .

ولم يكن هناك ما يمكن التعليق به على مثل هذه الإجابة التي تنطوي على الثقة . وكان من المؤكد أن أعمال الخط الحديدي قد توقفت عند تلك النقطة .

أما الصحف ، فإنها كبعض الساعات ، مصابة بجنون السبق . فقد نشرت قبل الأوان نبأ الانتهاء من مد الخط . وكان معظم الركاب يعرفون أنه لم ينته بعد ولذلك فإنهم بعد أن نزلوا من القطار ، استولوا على مختلف أنواع المركبات الموجودة في القرية ، ومنها عربات ذات أربع عجلات ، ومركبات يجرها نوع من البقر ذي السنم ، وعربات للسفر تبدو كالمعابد المتنقلة ، وهوادج ، وخيول صغيرة الجسم الخ . . . ولذلك فإن السيد فوج والنبيل فرنسيس كرومارتي عادا بخفي حنين بعد أن بحثا كثيراً في القرية عن مركبة يستقلونها .

فقال فيلياس فوج : «سأذهب سيراً على الأقدام» .

وقطب پاسپارتو وجهه بحركة لها دلالتها ، وهو ينظر إلى حذائه الجميل والذي لا يصلح مع ذلك للمشي الطويل ، وكان قد انضم حينئذ إلى سيده لحسن الحظ أنه كان قد قام بنصيبه في البحث والاستكشاف . وتردد قليلاً ثم قال :

– سيدي ، أعتقد أنني قد وجدت وسيلة للانتقال .

– ما هي ؟

– إنها فيل! نعم ، فيل يمتلكه هندي يقيم على بعد مائة خطوة من مكاننا هذا .

فأجاب السيد فوج : «هيا بنا نرى الفيل» .

وبعد خمس دقائق كان فيلياس فوج وسير فرنسيس كرومارتي وپاسپارتو قد وصلوا بالقرب من كوخ ملاصق لحظيرة مغلقة يحيط بها سياج مرتفع وكان في الكوخ رجل هندي ، وفي الحظيرة فيل . وبناء على طلب السيد فوج ورفيقيه ، أدخلهما الهندي إلى الحظيرة .

وهناك وجدوا أنفسهم إزاء حيوان نصف أليف . رباه صاحبه لا ليجعل منه دابة من دواب جر العربات ، وإنما ليستعمل في القتال .

ولهذا الغرض فإنه كان قد بدأ يغير من طبيعته الوديعة أصلاً ، حتى يصل به بالتدريج إلى أقصى مراتب التهيج ، التي تطلق عليها اللغة الهندوسية اسم «موتش» ، وذلك بتغذيته بالسكر والزبد لمدة ثلاثة شهور . وقد يبدو أن هذه الطريقة غير مجدية للحصول على النتيجة المقصودة ، ومع ذلك فإن القائمين على تربية الفيلة يستعملونها بنجاح .

وكان هذا الفيل لحسن حظ السيد فوج قد بدأ من وقت قريب يتبع هذا النظام الخاص في التغذية ، ولذلك فإن «الموتش» لم تظهر أعراضها عليه بعد . وكان «كيومي» ، وهو اسم الحيوان ، يستطيع أن يواصل السير سريعاً لمدة طويلة ، مثله في ذلك مثل كل بني جنسه ، ولذلك فقد عزم فيلياس فوج أن يستخدمه ، لعدم وجود وسيلة أخرى .

على أن الفيلة كانت باهظة الثمن في الهند ، حيث قد بدأت تندر . وكانت الذكور منها عزيزة ومطلوبة كثيراً ، لأنها الوحيدة التي تصلح للمصارعة في الملاعب الاستعراضية . وهذه الحيوانات لا تتناسل إلا نادراً حين تصبح أليفة ، فلا يمكن اقتناؤها إلا عن طريق الصيد . ولذلك فهي موضع رعاية كبيرة . ولما طلب السيد فوج من الهندي أن يؤجر له فيله ، رفض الهندي رفضاً باتاً . وألح فوج في طلبه ، وعرض أجراً مرتفعاً قدره عشرة جنيهات في الساعة . ورفض الهندي ، ورفع فوج الأجر إلى عشرين جنيهاً ثم إلى أربعين ، وما زال الرجل يرفض ، وكان پاسپارتو يقفز غيظاً ودهشة عند كل زيادة في الأجر . ولكن الهندي لم يستسلم للإغراء ، ومع ذلك فقد كان المبلغ المعروض كبيراً . وإذا فرضنا أن الفيل قد قطع المسافة حتى الله آباد في خمس عشرة ساعة ، فإنه يكون قد أتى صاحبه بربح قدره ستمائة جنيه .

وعندئذ اقترح فوج على الهندي ، دون أن يبدو عليه أي أثر للانفعال ، أن يشتري منه الحيوان ، وعرض عليه أولاً مبلغ ألف جنيه .

ولكن الهندي لم يبد أي رغبة في البيع! وربما كان هذا الرجل الغريب

قد أحس بأهمية الصفقة . وانتحى النبيل فرنسيس كرومارتي بالسيد فوج جانباً ، وطلب منه أن يفكر قبل أن يندفع كثيراً في المساومة . فرد فيلياس فوج على رفيقه قائلاً إنه ليس من عادته أن يفعل شيئاً قبل التفكير فيه ، وإن المسألة تتعلق أولاً وآخراً برهان على مبلغ عشرين ألف جنيه ، وإنه في أشد الحاجة إلى هذا الفيل ، وإنه سوف يحصل حتماً عليه ، حتى لو دفع ثمناً يساوي عشرين ضعفاً لثمنه الأصلي .

وعاد السيد فوج لمناقشة الهندي الذي كانت عيناه الصغيرتان تشعان ببريق الطمع ، وتقولان إن المسألة بالنسبة إليه إنما تتوقف على مقدار الثمن المقدم . وعرض عليه فوج على التوالي ألفاً ومائتين من الجنيهات ثم ألفاً وخمسمائة ، ثم ألفاً وثمانمائة ، وأخيراً ألفين . واصفر وجه پاسپارتو من شدة الانفعال ، وهو ذلك الوجه الأحمر بطبيعته .

ولما وصل العرض إلى ألفي جنيه ، قبل الهندي .

وصاح پاسپارتو : « أقسم بحذائي إن هذا الهندي قد باع لحم فيله بثمن باهظ! »

وهكذا تمت الصفقة . ولم يبق إلا العثور على دليل . وكان هذا أمراً ميسوراً ، إذ تقدم شاب « پارسي » تبدو على وجهه مخايل الذكاء ، وعرض خدماته عليهم ، فوافق السيد فوج ، ووعد الشاب بأجر كبير كان من شأنه ولا ريب أن يشحذ قريحته .

وأخرج الفيل من حظيرته وتم إعداده بسرعة . وكان الپارسي يعرف كل المعرفة مهنة « الماهو » ، وهي مهنة سائس الفيلة . فغطى ظهر الفيل بنوع من السرج ، وأقام على كل من جانبي الحيوان مقعداً ليس فيه شيء من الراحة .

ودفع فيلياس فوج للهندي ثمن فيله أوراقاً مالية مصرفية أخرجها من حقيبته المعروفة . وكان يبدو على پاسپارتو الغيظ ، وكأن هذه الأوراق قد انتزعت من أحشائه انتزاعاً . ثم عرض السيد فوج على النبيل فرنسيس كرومارتي أن يأخذه معه إلى محطة « الله آباد » . فقبل الضابط .

واشتروا بعض المواد الغذائية من قرية « خولبي » . وجلس سير فرنسيس كرومارتي في أحد المقعدين وفيلياس فوج في المقعد الآخر . وركب پاسپارتو على سرج الحيوان بين سيده والضابط ، على طريقة الفرسان . واستوى الپارسي جالساً على رقبة الفيل . وفي الساعة التاسعة غادر الحيوان القرية . وتوغل في غابة اللاتانيه الكثيفة ، متبعاً أقصر الطرق الموصلة إلى غايته .

١٢

مغامرة فيلياس فوج ورفاقه

باختراق غابات الهند وما تلاها من أحداث

وترك الدليل إلى يمينه الطريق الذي كانت الأعمال جارية فيه لمد الخط الحديدي . ولم يكن هذا الطريق الذي تكتنفه جبال «ڤنديا‌س» المتعرجة في غير انتظام ، ليتبع الطريق الأقصر الذي كان من مصلحة فيلياس فوج أن يسلكه . وقد صرح الپارسي ، وهو خبير بمسالك البلد ودروبها ، أنه سوف يختصر ما يقرب من العشرين ميلاً من الطريق باختراقه الغابة ، ففوضوا إليه الأمر كله . وغاص فيلياس فوج والسير فرنسيس كرومارتي في مقعديهما حتى الأعناق وكانا يهتزان اهتزازاً عنيفاً من خبب الفيل الذي أطلق له سائسه العنان وتركه يجري بأقصى سرعة . ولكنهما تجلدا واحتملا هذه التجربة بذلك البرود الإنجليزي المعروف . وكانا مع ذلك يتحادثان ، ولا يكاد أحدهما يرى الآخر إلا في صعوبة كبيرة . أما پاسپارتو ، الذي استوى جالساً على ظهر الحيوان متعرضاً للدفعات الأمامية والخلفية الناتجة مباشرة من سيره ، فإنه أمسك لسانه عن الكلام بناء على أمر سيده ، وخوفاً من أن ينقطع هذا اللسان الطويل . فقد كان هذا الشاب الطيب يندفع تارة إلى الأمام على عنق الفيل ، ثم يرتمي تارة أخرى إلى الخلف على عجزه ، وكأنه بهلوان يلعب على الحبل ، أو يقفز على لوحة القفز . وكان مع ذلك يمزح ويضحك

خلال قفزاته اللولبية . وكان يمد يده من وقت لآخر فيتناول من حقيبته قطعة من السكر يعطيها للفيل الذكي «كيومي» الذي كان يتناولها بطرف خرطومه ، دون أن يقطع ركضه المنتظم لحظة واحدة .

وبعد ساعتين من المسير ، أوقف الدليل فيله وأعطاه ساعة كاملة من الراحة ، التهم الحيوان خلالها بعض أغصان الأشجار وبعض الشجيرات ، بعد أن روى ظمأه من ماء مستنقع قريب . ولم يتذمر سير فرنسيس كرومارتي من هذا التوقف ، فقد كان محطم القوى . أما السيد فوج فإنه كان يبدو نشيطاً وكأنه قد نهض من فراش نومه الآن ليس غير .

وقال الضابط وهو ينظر إليه بإعجاب : «إنه مخلوق من حديد!»

فأجاب پاسپارتو الذي انهمك في تجهيز غداء بسيط : «بل هو من حديد مطروق!» .

وما أن انتصف النهار حتى أعطى الدليل إشارة الرحيل . وبعد قليل بدت الأرض في مظهر موحش ، فاختفت الغابات الكبيرة ، وحلت محلها أجمات من أشجار التمر الهندي وأشجار النخيل الصغيرة ، ثم أعقبتها سهول فسيحة قاحلة تتناثر في أرجائها شجيرات هزيلة ، وكتل من صخر الجرانيت . وكان كل ذلك الجزء من بلاد «بندلكوند» العليا ، الذي قلما يطرقه المسافرون ، يسكنه شعب شديد المراس ، متعصب لأفظع طقوس الديانة الهندوسية . ولم يتمكن الحكم الإنجليزي من فرض الاستقرار والسيطرة على الإقليم الخاضع لنفوذ «الراجات» الذين كان من العسير الوصول إليهم في معاقلهم المنيعة في ڤيترياس .

ولمحوا مراراً جماعات من الهنود المتوحشين ، الذين كانوا يأتون بإشارات تنم عن الغضب عند رؤيتهم مرور الفيل السريع . ثم إن الپارسي كان يتجنب لقاءهم كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فهو يعتبرهم قوماً لا تؤمن عشرتهم . ولم يروا سوى القليل من الحيوانات في ذلك النهار ، منها بعض القرود التي كانت تفر ، وهي تتلوى وتشد عضلات وجهها بطريقة تحمل پاسپارتو على الضحك . وكانت هذه فكرة واحدة ، من بين مختلف الأفكار التي كانت ترد على خاطر هذا الشاب ، فتقلقه

وتحيره : كان لا يدري ما سوف يفعله السيد فوج بالفيل حين يصل إلى محطة «الله آباد» : فهل يأخذه ليتابع معه رحلته ؟ إن هذا مستحيل ، فإن نفقات انتقاله ، بالإضافة إلى ثمن شرائه سوف تجعل منه مصدراً للخراب ، أم أنه سوف يبيعه ، أو يطلق سراحه ؟ إن هذا الحيوان الكبير القيمة ليستحق كل عناية ورعاية . وإذا حدث وأهدى السيد فوج هذا الفيل إليه ، فسيقع في حيرة شديدة . فماذا يفعل پاسپارتو بالفيل ؟ لقد شغلت هذه الفكرة باله تماماً .

وفي الساعة الثامنة مساء ، كانت السلسلة الرئيسة لجبال «قنديلس» قد تم اجتيازها ، وتوقف الركاب عند قاعدة السفح الشمالي للجبل ، أمام كوخ هندي متهدم .

وكانت المسافة التي تم اجتيازها خلال ذلك النهار تقدر بحوالي خمسة وعشرين ميلاً . وبقيت مسافة أخرى مماثلة حتى محطة الله آباد . وكان الليل بارداً . وفي داخل الكوخ ، أوقد البارسي ناراً من أغصان يابسة ، ولدت حرارة شديدة ، مفيدة . وكان العشاء مكوناً من مواد غذائية اشتريت في قرية «خولبي» ، وأكل المسافرون كما يأكل قوم متعبون انحلت قواهم . وبدأ الحديث بينهم في جمل متقطعة ، وانتهى بعد قليل بشخير مرتفع وسهر الدليل على مقربة من «كيومي» الذي نام وهو واقف مستنداً إلى جذع شجرة ضخمة .

ولم يقع في تلك الليلة أي حادث ، ولم يعكر السكون سوى زئير الفهود يعلو في بعض الأحايين وتمتزج به قهقهة القرود ، واكتفت الحيوانات المفترسة بالعويل ، ولم تبدر منها أية حركة عدائية ضد شاغلي الكوخ . ونام سير فرنسيس كرومارتي نوماً ثقيلاً ، كالمحارب الشجاع الذي أعياه التعب . وكان پاسپارتو قلقاً في نومه ، استعاد فيما رآه من أحلام ، ذكرى تلك الحركات البهلوانية التي كان يقوم بها على ظهر الفيل . أما السيد فوج ، فإنه رقد في راحة واسترخاء كما لو كان في منزله الهادئ في «ساڤيل رو» . وفي السادسة صباحاً نهضوا وساروا من جديد . وكان الدليل يأمل الوصول إلى محطة الله آباد في

المساء نفسه . وبهذه الحال لا يكون السيد فوج قد خسر من وقته إلا بعضاً من الثماني والأربعين ساعة التي اقتصدها منذ أن بدأ رحلته .

ونزلوا من آخر منحدرات جبال «قنديلس» وعاد «كيومي» إلى سيره السريع . ولما انتصف النهار ، دار الدليل حول قرية «كالينجر» الواقعة على نهر «كاني» أحد الفروع الصغيرة لنهر «الجانج» . وكان يتحاشى في سيره الأماكن الآهلة بالسكان ، إذ كان يشعر بالأمان في تلك النواحي المهجورة من الريف ، التي يبدأ عندها انخفاض حوض النهر الكبير ، وكانت محطة الله آباد على بعد لا يزيد عن اثني عشر ميلاً في الشمال الشرقي . وتوقفوا تحت مجموعة كبيرة من أشجار الموز ، وقد أعجبتهم ثمارها التي تشبه الخبز في فائدته الصحية والقشدة في طعمها اللذيذ ، كما يقول الرحالة .

وفي الثانية ، توغل الدليل في أعماق غابة كثيفة كان عليه أن يعبرها لعدة أميال . وقد فضل السير في حمى الغابات . وعلى كل حال فإنه لم يصادف في طريقه حتى ذلك الحين ، أي حادث مكدر ، وبدا أن الرحلة سوف تنتهي حتماً دون أن يقع أي حادث . وفي هذه اللحظة بدت من الفيل بضع حركات تنم عن القلق ، ووقف فجأة . وكانت الساعة عندئذ الرابعة مساء .

وسأل السير فرنسيس كرومارتي ، الذي رفع رأسه فوق مقعده قائلاً : ما الأمر ؟ فأجاب البارسي قائلاً ، وهو ينصت إلى دمدمة مبهمة كانت تسري تحت أغصان الأشجار الكثيفة : لا أعرف يا سيدي الضابط . وانقضت بضع لحظات وأصبحت الدمدمة أكثر وضوحاً ، وكأنها فرقة موسيقية بعيدة تتألف من أصوات آدمية وآلات نحاسية .

وأصبح پاسپارتو كله عيوناً وآذاناً . وانتظر السيد فوج في صبر ، ولم ينبس ببنت شفة .

وقفز البارسي إلى الأرض . وربط الفيل إلى شجرة ، ثم تسلل إلى أشد أجزاء الغابة كثافة . وعاد بعد دقائق وهو يقول : هذا موكب من مواكب البراهمة ، يسير في هذه النواحي ، فلنجتهد كل الاجتهاد في ألا يرونا .

وفك الدليل رباط الفيل واقتاده إلى داخل أجمة ، ناصحاً المسافرين ألا يطؤوا الأرض بأقدامهم . ووقف على أهبة الاستعداد لأن يمتطي دابته بسرعة ، إذا دعت الحال للهروب . إلا أنه كان يعتقد أن جماعة البراهمة سوف تمر دون أن تراه ، لأن كثافة أوراق الأشجار كانت تخفيه تماماً عن أنظارهم . وأخذت ضوضاء الأصوات والآلات المتنافرة تقترب . واختلطت بعض الأغاني المملة ذات النغم المطّرد بدق الطبول ورنين الصاجات . وبعد هنيهة ظهرت مقدمة المركب تحت الأشجار على بعد حوالي خمسين خطوة من الموضع الذي قبع فيه السيد فوج ورفاقه . واستطاع هؤلاء أن يميزوا في سهولة ويسر من خلال الأغصان ، أفراد ذلك الموكب الديني العجيب .

كان يتقدم الصف الأول قساوسة على رؤوسهم تيجان عالية مدببة ، يرتدون ثياباً طويلة مزركشة . يحيط بهم رجال ونساء وأطفال ينشدون نوعاً من الألحان الجنائزية ، يقطعها في فترات متساوية دقات الطبول والصاجات . وظهرت خلفهم مركبة لها عجلات كبيرة تتكون من أجزاء ملتفة بعضها بالبعض الآخر التفاف الثعابين . وارتفع فوق المركبة تمثال قبيح المنظر تجره أربع بقرات من ذات السنم ، مطهمة بأغلى أنواع السروج . وكان هذا التمثال لامرأة لها أربع أذرع ، وكان جسدها ذا لون أحمر غامق ، وعيناها زائغتين وشعرها منفوشاً ، ولسانها متدلياً ، وشفتاها مصبوغتين بالحناء . يحيط بعنقها عقد من جماجم الموتى ، ويلتف بخصرها حزام من الأيدي المقطوعة . وكان التمثال قائماً فوق تمثال آخر لعملاق مجندل مقطوع الرأس .

وتعرف سير فرنسيس كرومارتي على ذلك التمثال . وتمتم قائلاً : إنها الإلهة كالي ، إلهة الحب والموت!

فقال پاسپارتو : «نعم ، أصدق أنها إلهة الموت ، ولكنها لا يمكن أن تكون إلهة الحب! يا لها من امرأة قبيحة!

وأومأ إليه الپارسي أن يصمت .

والتف حول التمثال حشد من الدراويش الهنود الشيوخ ، مخططين

بشرائط من المغرة (وهي طين أحمر فخاري) ، وتغطي أجسامهم تشققات صليبية الشكل ، تسيل منها دماؤهم نقطة نقطة . وهم قوم بهم رعونة وحمق ، تراهم في الاحتفالات الهندوسية الكبيرة يندفعون تحت عجلات مركبة «جاجرنو» . وسار خلفهم بعض البراهمة ، في أبهى أزيائهم الشرقية ، يجرون امرأة تتحامل على نفسها في جهد وعنت .

وكانت تلك المرأة صغيرة السن ، بيضاء اللون كالأوروبيات . وكان رأسها ورقبتها ، وكتفاها ، وأذناها ، وذراعاها ، ويداها ، وأصابع قدميها مثقلة جميعها بالجواهر والعقود والأساور والحلقان والخواتم . وكانت ترتدي قميصاً موشى بالذهب ومغطى بالموسلين الخفيف يبرز استدارة جسمها . وسار خلف تلك المرأة الصغيرة موكب يبدو متبايناً كل التباين مع سابقه يتكون من بعض الحراس المسلحين بسيوف عارية النصل مثبتة في أحزمتهم ، وغدارات مرصعة بالذهب والفضة ، يحملون جثة ممددة على محفة . وكانت تلك الجثة لرجل مسن ، يرتدي ملابس «المهراجا» الثمينة ، التي كان يلبسها حين كان على قيد الحياة ، وعلى رأسه قلنسوة مطرزة باللآلئ وعليه ثوب منسوج من الحرير والذهب ، وحزام من الكشمير المرصع بالماس . ويحمل أسلحته الجميلة ، وهي أسلحة أمير هندي .

وأقبل خلفهم بعض الموسيقيين . وانتهى الموكب برجال الحرس من ذوي التعصب الشديد ، الذين كانوا يطلقون صيحات مدوية كانت تغطي أحياناً على ضجيج الآلات الموسيقية ، الذي يصم الآذان .

وكان السير فرنسيس كرومارتي ينظر إلى هذا الموكب بما يحويه من أبهة وعجائب ، وقد ارتسمت على وجهه آيات الحزن . ثم التفت نحو الدليل وقال له : «أهذا ما يسميه الهنود ساتي ؟»

فأشار الپارسي إشارة تفيد الموافقة على سؤاله ، ووضع إصبعه على شفتيه . ومر الموكب الطويل ببطء تحت الأشجار ، وما لبثت صفوفه الأخيرة أن اختفت في أعماق الغابة .

وخفتت أصوات الغناء بالتدريج ، ولم يعد يسمع سوى بعض الأصوات البعيدة . وأخيراً حل السكون العميق محل تلك الضوضاء .

وكان فيلياس فوج قد سمع الكلمة التي نطق بها السير فرنسيس كرومارتي . وما كاد الموكب يختفي حتى سأله قائلاً : « ما معنى كلمة « ساتي » ؟

فأجاب الضابط قائلاً : « ساتي ، يا سيد فوج ، كلمة تعبر عن تضحية آدمية ، ولكنها تضحية تبذل برضا الضحية ، وتلك المرأة التي رأيتها الآن ، سوف تحرق غداً عند الفجر » .

فلم يتمالك پاسپارتو نفسه وصاح مستنكراً : « يا للأوغاد! »

وسأل السيد فوج : « وما أمر تلك الجثة ؟ »

فأجاب الدليل : « إنها جثة الأمير ، وهو مهراجا مستقل من مهراجات بندلكوند » .

وسأل السيد فوج بهدوء : « وكيف تستمر هذه التقاليد الهمجية حتى اليوم في الهند ؟ ألم يستطع الإنجليز القضاء عليها ؟ »

فأجاب النبيل سير فرنسيس كرومارتي : هذه الضحايا لم تعد تقدم في معظم أجزاء الهند . ولكنه لا سلطان لنا على هذه المناطق المتوحشة ، وعلى رأسها إقليم « بندلكوند » هذا . فكل السفح الشمالي لجبال « ڤنديا » مسرح لجرائم قتل ونهب لا حد لها .

فتمتم پاسپارتو قائلاً : « يا للمسكينة! أتحرق حية ؟! »

فأجاب الضابط : « نعم ، تحرق حية ، وإذا لم تحرق فإن أهلها سوف يحيلون حياتها بؤساً وشقاء لا يمكنك أن تتصورهما . إنهم سوف يحلقون شعرها ، ولن يقدموا لها من الغذاء إلا حفنات قليلة من الأرز ، وسوف يبعدونها عنهم ، وينظرون إليها كما لو كانت مخلوقة دنسة ، وستموت ككلب أجرب في ركن ناء من أركان العالم . ولذلك فإن الخوف من الوقوع في هذه الحال المخيفة كثيراً ما يدفع أولئك البائسات إلى الموت أكثر مما يدفعهن إليه الحب أو التعصب الديني . ومع ذلك فإنه يحدث أحياناً أن تكون التضحية ذاتية وناتجة عن إرادة المضحي بنفسه ، وعندئذ يجب أن تتدخل الحكومة تدخلاً فعالاً لمنع تنفيذها . واذكر على سبيل المثال أنه ، منذ عدة سنوات ، حين كنت مقيماً في بومباي ،

جاءت أرملة شابة تلتمس من الحاكم التصريح لها بأن تحرق نفسها مع جثة زوجها . ورفض الحاكم بطبيعة الحال هذا الطلب . وعلى ذلك غادرت الأرملة المدينة ، ولجأت إلى أحد المهراجات المستقلين ، ونفذت في حماه التضحية التي كانت تنشدها » .

وبينما كان الضابط يروي قصته ، كان الدليل يهز رأسه مؤيداً . ولما انتهت القصة قال الدليل : « إن التضحية التي ستنفذ غداً عند طلوع الفجر لا تستند إلى إرادة الضحية » .

– وكيف علمت ذلك ؟

فأجاب الدليل : إنها قصة يعرفها الجميع في بندلكوند .

فلاحظ النبيل فرنسيس كرومارتي قائلاً : « ومع ذلك فإنه يبدو أن تلك التعسة لم تكن تبدي أي مقاومة » .

– ذلك لأنهم قد خدروها بدخان القنب والأفيون .

– ولكن إلى أين يقتادونها ؟

– إلى معبد « پيللاجي » على بعد ميلين من مكاننا هذا . وسوف تقضي هناك الليل كله في انتظار ساعة التضحية .

– ومتى تنفذ التضحية ؟

– غداً ، عند طلوع الفجر .

وبعد هذا الرد ، أخرج الدليل الفيل من الأكمة الكثيفة ، واستوى على عنق الحيوان . على أنه في اللحظة التي كان فيها على وشك تحريك الحيوان بأن يصفر له بشكل خاص يثيره ، أوقفه السيد فوج ، وخاطب النبيل فرنسيس كرومارتي قائلاً « ما رأيك أن ننقذ هذه المرأة ؟ »

فصاح الضابط : « ماذا تقول ؟ أتريد منا أن ننقذ هذه المرأة يا سيد فوج ؟ »

– ما زال أمامي من الوقت المدخر اثنتا عشرة ساعة أستطيع أن أستغلها في القيام بهذا العمل .

فقال النبيل فرنسيس كرومارتي : « عجباً لك! ها أنت ذا رجل كبير القلب! »

فأجاب فيلياس فوج ببساطة : أحياناً ، حين يسمح وقتي بذلك » .

١٣

پاسپارتو يثبت مرة أخرى

أن الحظ يواتي كل شجاع

وكان المطلب جريئاً ، محفوفاً بالمصاعب وربما كان متعذر التنفيذ . وكان السيد فوج يخاطر بحياته ، أو على الأقل بحريته ، وبالتالي بنجاح مشروعه . ولكنه لم يتردد . وفضلاً عن ذلك فإنه وجد في النبيل فرنسيس كرومارتي رفيقاً غير هياب ولا وجل .

أما پاسپارتو فإنه كان تحت تصرفهما على أهبة الاستعداد دائماً . وكانت فكرة سيده قد أثارته ، وأحس بوجود قلب كبير ينبض ، ونفس إنسانية تحس وتتأثر في داخل ذلك الغلاف البارد . وبدأ يشعر بالحب نحو السيد فوج .

وبقي رأي الدليل . فماذا كان يرى في هذا الأمر ؟ وهل ينحاز إلى صف الهندوس ؟ فإذا فعل ذلك ، ولم يحصل السيد فوج ورفاقه على مساعدته ، فقد كان من الضروري على الأقل أن يضمنوا حياده .

وألقى عليه سير فرنسيس سؤالاً صريحاً في هذا الشأن .

فأجاب الدليل : يا سيدي الضابط ، إنني پارسي ، وهذه المرأة پارسية مثلي ، وعليه فأنا تحت تصرفكم » .

فأجاب السيد فوج : « أحسنت أيها الدليل » .

وأردف الدليل قائلاً : « ومع ذلك فلا بد أن تعلموا الآتي تمام العلم :

إننا لا نخاطر بحياتنا فحسب ، ولكننا نعرض أنفسنا أيضاً لأشد أنواع التعذيب إذا وقعنا في أيديهم . ولذلك فعليكم أن تفكروا جيداً في الأمر » .

فأجاب السيد فوج : « لقد فكرنا جيداً وأظن أنه يجب علينا انتظار الليل حتى نبدأ العمل ؟ »

وقال الدليل : « هذا رأيي أيضاً » .

وذكر الدليل بعض التفاصيل عن الضحية . فقد كانت امرأة هندية ذات جمال رائع ، وكانت من سلالة پارسية ، فهي ابنة غني من أغنى تجار بومباي ، وقد تلقت في المدينة تعليماً إنجليزياً خالصاً ، حتى ليعتقد الإنسان أنها أوربية بالنظر إلى ثقافتها ، وأساليبها . وكانت تدعى « أوودا » . ولما كانت يتيمة الأبوين فقد تزوجت على الرغم منها ذلك الراجا العجوز . راجا « بندلكوند » . وما كادت تنقضي ثلاثة أشهر حتى أصبحت أرملة . وإذ كانت تدرك ذلك الموت المحتوم الذي كان ينتظرها ، فإنها هربت . ولكن قبض عليها في الحال . وقد حكم عليها أقارب المهراجا ، الذين كانت لهم مصلحة في موتها ، بذلك الإعدام الذي كان من الواضح أنها لن تستطيع منه خلاصاً .

وكان من أثر هذه القصة أن زاد تصميم السيد فوج ورفاقه على تنفيذ غرضهم الكريم . فقرروا أن يقوم الدليل بقيادة الفيل حتى معبد « پيللاجي » ، على أن يقترب من المعبد قدر المستطاع .

وبعد نصف ساعة ، توقفوا تحت أكمة تبعد خمسمائة خطوة عن المعبد الذي أصبح في الإمكان رؤيته ، إلا أن صيحات القوم المتعصبين كانت تصل إلى آذانهم في وضوح شديد .

وأخذوا يناقشون الوسائل التي توصلهم إلى الضحية . وكان الدليل يعرف ذلك المعبد الذي أكد لهم أن السيدة الشابة كانت مسجونة داخله . فهل كان من المستطاع دخول المعبد من أحد أبوابه حين يكون القوم قد راحوا في سبات عميق بفعل المخدر ، أو كان من اللازم عمل ثقب في الجدار للدخول منه ؟ هذا ما لم يمكن البت فيه إلا في المكان نفسه وحين يأتي الأوان . على أنه لم يكن ثمة شك في ضرورة خطف

المرأة في تلك الليلة نفسها ، قبل أن يطلع النهار فتساق إلى الموت ، ولا تستطيع عندئذ أية قوة بشرية أن تنقذها .

وانتظر السيد فوج ورفاقه قدوم الليل . وما أن بدأ الظلام يخيم على الكون ، وحلت الساعة السادسة مساء ، حتى عقدوا العزم على القيام باستكشاف ما حول المعبد . وكانت آخر صيحات الدراويش قد سكتت . وكان من عادة هؤلاء الهنود أن يروحوا في سبات عميق بفعل مادة «الهانج» ، وهي أفيون سائل ممزوج بمنقوع القنب ، فيسهل عندئذ الاندساس بينهم والوصول إلى المعبد .

وتقدم الپارسي بكل هدوء وسط الغابة يتبعه السيد فوج والنبيل فرنسيس كرومارتي . وبعد أن زحفوا تحت أغصان الأشجار مدة عشر دقائق ، وصلوا إلى ضفة جدول من الماء ، وهناك على ضوء مشاعل حديدية تلتهب في أطرافها نار وقودها الصمغ الصنوبري ، لمحوا كومة من الخشب المكدس . وكانت هذه هي كومة الحطب المخصصة لحرق الأجسام البشرية وقد رصت مع خشب الصندل الثمين المشرب بزيت معطر ، وفي أعلاها مدت جثة المهراجا المحنطة ، التي سوف تحرق في وقت واحد مع أرملته الشابة . وعلى بعد مائة خطوة من كومة الحطب ، بدا المعبد شامخاً بمنائره التي كانت تشق أردية الظلام مرتفعة فوق أعالي الأشجار .

وقال الدليل بصوت منخفض : «تعالوا!»

وانسل في هدوء وحذر شديد من بين الحشائش الكبيرة ، يتبعه رفاقه ولم يكن السكون ليعكره سوى عصف الريح خلال الأغصان .

وبعد هنيهة ، توقف الدليل عند أطراف أرض فضاء ، وكان المكان تنيره بعض المشاعل ، والأرض مغطاة بجماعات من النائمين الذين أثقل المخدر حواسهم ، فكانت بمنزلة ساحة قتال غطتها جثث القتلى . واختلط بين النائمين الرجال والنساء والأطفال . وما زال بعض السكارى يغطون في نومهم ، هنا وهناك . وكان معبد «پيللاجي» يبدو على بعد كأنه شبح غامض بين كتل الأشجار . وشعر الدليل بخيبة أمل حين رأى

حراس المهراجا ساهرين على ضوء المشاعل التي ينبعث منها الدخان ، رائحين غادين ، وسيوفهم مسلولة .

ولابد من أن الكهنة كانوا ساهرين بدورهم داخل المعبد .

ولم يتقدم الپارسي أكثر من ذلك ، فقد أدرك استحالة استعمال القوة في اقتحام المعبد ، وعاد برفاقه إلى الخلف .

وأدرك فيلياس فوج والنبيل فرنسيس كرومارتي ما أدركه الدليل من أنهم لن يستطيعوا القيام بأية محاولة في هذه الناحية .

ووقفوا وتحادثوا بصوت خفيض .

فقال الضابط : لننتظر ، فما زالت الساعة الثامنة ، ومن المحتمل أن يتغلب النوم أيضاً على هؤلاء الحراس .

وأجاب الپارسي : «هذا محتمل فعلاً» .

وعلى هذا فقد تمدد فيلياس فوج ورفاقه على الأرض ، عند جذع شجرة وظلوا ينتظرون .

وبدا لهم الوقت طويلاً لا ينتهي! وكان الدليل يتركهم أحياناً ويذهب ليراقب أطراف الغابة . وما زال حراس المهراجا ساهرين على ضوء المشاعل . وكان هناك ضوء غامض ينفذ من خلال نوافذ المعبد .

وانتظروا على هذه الحال حتى منتصف الليل . ولم يتغير شيء في الموقف . وما زال الحراس ساهرين خارج المعبد . وكان من الواضح أنه لا يمكن الركون بعد ذلك إلى احتمال نوم الحراس ، فربما حرم عليهم تعاطي المخدر (الهانج) فكان لابد من العمل بوسيلة أخرى ومحاولة الدخول إلى المعبد من ثغرة يفتحونها في جدار من جدرانه . وبقيت أمامهم بعد ذلك مشكلة الكهنة الذين ربما كانوا ساهرين بجوار ضحيتهم يحرسونها بنفس العناية واليقظة التي كان يبديها الجنود على باب المعبد ، وهي مشكلة لم يجدوا لها حلاً .

وبعد أن تبادلوا بعض الحديث ، صرح الدليل بأنه على استعداد للعمل . فقام وتبعه السيد فوج والنبيل فرنسيس كرومارتي وياسپارتو وداروا دورة طويلة ليصلوا إلى المعبد من الخلف .

وبعد منتصف الليل بنصف ساعة ، وصلوا إلى قاعدة الجدران دون أن يقابلوا أي إنسان ، ولم يكن هناك من يحرس ويراقب هذا الجانب من المعبد الذي لم يكن به أي باب أو نافذة .

وكان الليل حالك الظلام . وكان الهلال ، وهو في ربعه الأخير ، قد بدأ يرتفع فوق الأفق ، تغطيه سحب كثيفة ، والأشجار العالية تزيد الظلام شدة .

على أنه لم يكن يكفي الوصول إلى قاعدة الجدران فحسب ، بل كان يجب أيضاً عمل ثقب فيها . ولم يكن لدى فيلياس فوج ورفاقه من الأدوات اللازمة لهذه العملية سوى مداهم . على أنه من حسن حظهم ، كانت جدران المعبد مبنية من خليط من الطوب والخشب الذي لم يكن من العسير ثقبه . وإذا ما نزعت طوبة واحدة فإن من اليسير إزالة الطوب الآخر .

وبدؤوا في العمل بأقل ما يمكن من الضوضاء . واشتغل الپارسي من جانب آخر في محاولة خلع الطوب ، حيث يمكن الحصول على فتحة اتساعها قدمان .

وتقدم العمل . إلا أنه ارتفعت على حين غرة صيحة من داخل المعبد رددتها في الحال صيحات أخرى في خارجه .

وأوقف پاسپارتو والدليل عملهما . فهل يا ترى رآهما أحد ؟ وهل أعطيت إشارة الإنذار ؟ إن أقل فطنة كانت تقضي عليهما بالابتعاد – وهذا ما فعلاه ، إذ ابتعدا في الوقت نفسه مع فيلياس فوج والنبيل فرنسيس كرومارتي ، واختفوا ثانية داخل الغابة منتظرين زوال أثر الإنذار ، إن كانت تلك الصيحات تعتبر حقيقة إنذاراً بالخطر ، حتى يبدؤوا عملهم من جديد . ولكن حدث لسوء حظهم ، أن ظهر بعض الحراس خلف المعبد واستقروا هناك في وضع يمنع أي إنسان من الاقتراب . ومن الصعب أن نصف خيبة الأمل التي حلت بهؤلاء الرجال الأربعة الذين اضطروا إلى التوقف عن عملهم . والآن وقد أصبحوا لا يستطيعون الوصول إلى الضحية فكيف ينقذونها ؟ وعض النبيل

فرنسيس كرومارتي أنامله أسفاً ، وفقد پاسپارتو صوابه ، ولاقى الدليل بعض الصعوبة في تهدئته . أما فوج الهادئ الرزين فإنه كان ينتظر من غير أن يظهر شعوره .

وسأل الضابط بصوت خفيض «لم يعد أمامنا إذن سوى أن نرحل ؟»

فقال فوج : «انتظر . لا مانع من أن أكون غدا في الله آباد ، قبل الثانية عشرة ظهراً» .

فأجاب النبيل فرنسيس كرومارتي : «ولكن ماذا تأمل ؟ سوف يطلع النهار بعد بضع ساعات وعندئذ . . .»

– إن الحظ الذي تخلى عنا قد يواتينا في آخر لحظة .

وكم كان يود الضابط أن يطالع في عيني فيلياس فوج ما كان يدور بخلده .

فماذا قرر ذلك الإنجليزي البارد الطباع ؟ هل عزم على أن يندفع نحو الشابة في لحظة الإعدام . فينتزعها من براثن جلاديها على مشهد من الجميع ؟

سوف يكون هذا عملاً جنونياً ، وكيف نتصور هذا الرجل نزقاً إلى هذا الحد ؟ ومع ذلك فقد وافق النبيل فرنسيس كرومارتي على الانتظار حتى خاتمة المشهد الرهيب . وفي تلك الأثناء لم يترك الدليل رفاقه في الموضع الذي لجؤوا إليه ، بل اقتادهم إلى الجزء الأمامي من الأرض الفضاء . وهناك كانوا قد احتموا داخل مجموعة من الأشجار ، فأخذوا يلاحظون تلك الحشود النائمة .

وفي أثناء ذلك كله كان پاسپارتو ، الذي جثم فوق بعض الغصون العليا لشجرة من الشجيرات ، يقلب في عقله فكرة واتته بسرعة البرق وانطبعت في قريحته . وبدأ أولاً يقول لنفسه : «هذا جنون!» ثم أضحى يقول ويردد القول : «ومع ذلك فلم لا ؟ إنها فرصة ، وربما كانت الفرصة الوحيدة ، ومع مثل هؤلاء البلداء الخاملين ؟»

ومع كل ، فإن پاسپارتو لم يصغ فكرته في قالب معين! ولكنه ما

لبث أن نزل بخفة الثعابين ومرونتها منحدراً إلى الغصون السفلى للشجرة التي تميل أطرافها نحو الأرض .

وانقضت الساعات ، وبدت في الجو ألوان أقل ظلمة معلنة اقتراب النهار . ومع ذلك فالظلام لا يزال شديداً يعم الكون كله .

وحل الموعد . وكأنما قام البعث في هذا الحشد النائم . وتحركت الجماعات ونشطت . ودوت في الجو دقات الطبول ، وارتفعت الأغاني والصيحات من جديد ، واقتربت الساعة التي سوف تموت فيها المرأة التعسة .

وانفتحت أبواب المعبد ، ونفذ من داخله ضوء شديد ، واستطاع السيد فوج والنبيل فرنسيس كرومارتي أن يتبينا الضحية ، وقد سلط عليها ضوء وهاج ، يقتادها كاهنان إلى خارج المعبد ، وبدا لهما أن المرأة التعسة ، وقد تملكتها غريزة البقاء ، تحاول أن تتخلص من أثر المخدر وتفلت من أيدي جلاديها ، ودق قلب النبيل فرنسيس كرومارتي بشدة ، وحين امتدت يده المرتعدة وأمسكت بيد فيلياس فوج ، شعر بأن يد الأخير تقبض على مدية مفتوحة .

وفي تلك اللحظة انطلق الحشد ، واستسلمت المرأة من جديد لذلك التخدير الذي تسببه أدخنة القنب . ومرت في وسط الدراويش الذين كانوا يشيعونها بصيحاتهم الدينية .

وتبعها فيلياس فوج ورفاقه ، وقد اندسوا في الصفوف الخلفية للجمهور .

وبعد دقيقتين ، وصلوا إلى ضفة الغدير وتوقفوا على بعد يقل عن خمسين خطوة من كومة الحطب التي وضعت فوقها جثة المهراجا . وخلال الضوء الضعيف ، رأوا الضحية ولا حراك بها ، ممددة بالقرب من جثة زوجها . وأتوا بشعلة أدنوها من الكومة ، وسرعان ما اشتعل الخشب المشرب بالزيت .

وفي هذه اللحظة أمسك سير فرنسيس والدليل بفيلياس فوج ومنعاه من الاندفاع في لحظة حماس جنوني ، نحو كومة الحطب .

على أن فيلياس فوج كان قد دفعهما عنه فعلاً في اللحظة التي انقلب فيها المشهد فجأة . فقد ارتفعت صيحة رعب ، وارتمى كل هؤلاء القوم على الأرض وقد استبد بهم الذعر . لم يكن المهراجا إذن ميتاً ، فقد رآه الجميع يقف فجأة كالطيف ويرفع زوجته بين يديه ، وينزل من كومة الحطب وسط أعمدة الدخان التي جعلته يبدو كالشبح .

واستلقى الدراويش والحرس والكهنة ووجوههم على الأرض ، وقد تملكهم رعب مفاجئ ، ولم يجرؤوا على رفع عيونهم والنظر إلى هذه المعجزة .

ومرت الضحية الساكنة محمولة على ذراعين قويتين ، ولايبدو أنهما تشعران بثقلها ، وظل السيد فوج والنبيل فرنسيس كرومارتي واقفين وأحنى الپارسي رأسه ، أما پاسپارتو فلا شك في أنه لم يكن بأقل ذهولاً منهم .

وتم هذا البعث بالقرب من الموضع الذي كان يقف فيه السيد فوج والنبيل فرنسيس كرومارتي ، وهناك سمع من يقول بلهجة موجزة : « فلنهرب » .

وكان المتحدث إليهم هو پاسپارتو نفسه ، الذي كان قد تسلل من كومة الحطب وسط الدخان الكثيف! كان پاسپارتو قد انتهز فرصة الظلام الذي ما زال منتشراً ، فانتزع المرأة الشابة من بين براثن الموت! پاسپارتو الذي لعب دوره بجرأة موفقة ، فمر بأمان في غمرة الرعب الشامل!

وبعد لحظة ، كان الأربعة قد اختفوا في الغابة ، وقد حملهم الفيل منطلقاً بخطواته السريعة . إلا أن الصيحات التي لاحقتهم ، والجلبة والضوضاء التي ارتفعت في الفضاء ، ثم رصاصة انطلقت فاخترقت قبعة فيلياس فوج ، أنبأهم كل ذلك بأن الخدعة قد انكشف أمرها .

فقد ظهرت عندئذ ، فوق كومة الحطب ، جثة المهراجا العجوز ، وأدرك الكهنة ، حين أفاقوا من الرعب الذي حل بهم ، أن المرأة قد خطفت .

واندفعوا في الحال داخل الغابة . وتبعهم الحراس وأطلقوا رصاصة . إلا أن الخاطفين كانوا قد هربوا مسرعين ، وأصبحوا في بعض لحظات بعيدين عن مرمى الرصاص والسهام .

١٤

فيلياس فوج يجتاز كل وادي الجانج البديع

دون أن يفكر في مشاهدته

ونجح الاختطاف الجريء . وانقضت ساعة وما زال پاسپارتو يضحك مسروراً لنجاحه . وضغط النبيل فرنسيس كرومارتي على يد الشاب المقدام . وقال له سيده : «أحسنت!» دلالة على تقديره العظيم ، مما دعا پاسپارتو إلى أن يرد عليه قائلاً إن كل الفضل في هذا العمل يرجع إليه . أما المسألة كلها فلم تكن بالنسبة إلى پاسپارتو سوى فكرة «غريبة» . وكان يضحك كلما تصور أنه ، وهو پاسپارتو ، لاعب الجمباز القديم ، وشرطي المطافئ سابقاً ، كان خلال لحظات زوجاً ميتاً لامرأة جميلة ، بل مهراجا عجوزاً محنطاً .

أما الهندية الشابة فإنها لم تشعر بما حدث لها . وكانت مستلقية في أحد المقعدين متدثرة بأغطية السفر .

وكان الفيل في ذلك الوقت يجري بسرعة في الغابة التي ما زالت مظلمة ، يقوده البارسي في مهارة وثقة . ثم انطلق يجتاز سهلاً فسيحاً بعد أن انقضت ساعة على مغادرته معبد پيللاجي وتوقف الجميع في الساعة السابعة ، وكانت السيدة الصغيرة لا تزال منهارة القوى . فسقاها الدليل بضع جرعات من الماء والبراندي ، إلا أن تأثير المخدر ظل متمكناً منها ، فكان لابد من أن يمتد مفعوله فترة أخرى .

ولما كان النبيل فرنسيس كرومارتي يعرف الأثر المخدر الذي يسببه استنشاق أبخرة القنب ، فإنه لم يشعر بأي قلق على الفتاة الهندية .

على أن الضابط الكبير ، وإن كان مطمئناً إلى شفائها فإنه كان شديد القلق على مستقبلها . ولم يتردد في أن يصرح لفيلياس فوج بأنها إذا بقيت في الهند فإنها ستقع لا محالة من جديد في أيدي جلاديها . فإن هؤلاء المجانين كانوا منتشرين في كل أرجاء شبه الجزيرة ، وكانوا يستطيعون بكل تأكيد أن يستردوا ضحيتهم على الرغم من رجال الشرطة الإنجليز ، سواء كانت في مدراس أم في بومباي أم في كلكتا! . وذكر فرنسيس كرومارتي ، تأييداً لقوله ، واقعة مماثلة حدثت أخيراً ، وكان من رأيه أن السيدة الشابة لن تكون في أمان حقيقي إلا إذا غادرت الهند .

وأجاب فيلياس فوج بأن هذه الملاحظات ستكون موضع اهتمامه ، ثم يقرر بعد ذلك ما يجب عليه أن يعمله .

وفي حوالي العاشرة أعلن الدليل وصولهم إلى محطة الله آباد . وهناك ظهر الخط الحديدي الذي كان قد انقطع ، وامتد لتسير عليه القطر مجتازة المسافة من الله آباد إلى كلكتا في أقل من يوم وليلة .

وكان من المؤكد إذن أن يصل فيلياس فوج في الوقت المناسب ليستقل الباخرة التي لن تبحر إلا في ظهر اليوم التالي أي في الخامس والعشرين من أكتوبر متجهة إلى هونج كونج .

وأدخلت السيدة الصغيرة إلى غرفة من غرف المحطة . وكلف پاسپارتو بالذهاب للبحث عن أشياء عديدة تلزمها ، كأدوات للزينة ، وثوب ، وشال ، وفراء ، الخ ، فيشتري ما يجده من هذه الأشياء ، وفتح له سيده من أجل ذلك اعتماداً مالياً غير محدود .

وانصرف پاسپارتو من فوره ، وأسرع يجوب شوارع المدينة . ومدينة الله آباد ، ومعناها مدينة الله ، من أكثر المدن الهندية تقديساً عند الهنود ، ذلك لأنها مشيدة عند ملتقى نهرين مقدسين هما نهر الجانج ونهر الجومنا ، يفد إلى مياههما الحجاج من جميع أنحاء شبه

الجزيرة . ثم إن أساطير «روميانا» تؤكد أن نهر الجانج ينبع من السماء وينحدر بفضل «براهما»[1] إلى الأرض .

ولما كان پاسپارتو يقوم بشراء ما طلب منه شراؤه ، أتيح له أن يشاهد المدينة التي كان يحميها في الزمن الماضي حصن عظيم ، وأصبح الآن سجناً من سجون الدولة . ولم يعد الآن في المدينة تجارة أو صناعة تذكر ، بينما كانت قديماً مدينة صناعية وتجارية . وقد بحث پاسپارتو كثيراً ودون طائل ، عن محل لبيع الأقمشة والملابس الحديثة ، كما لو كان في شارع «ريجينت» على مسيرة خطوات من محلات «فارمر وشركاه» . ولم يجد ، إلا عند بائع يهودي عجوز متعب مع ذلك في المعاملة ، تلك الأشياء التي كان يريد شراءها ، ثوباً من قماش اسكتلندي ، ومعطفاً فضفاضاً ، ورداء جميلاً من جلد كلب البحر ، لم يتردد في أن يدفع ثمناً له خمسة وسبعين جنيهاً . ثم عاد إلى المحطة مزهواً بما حصل عليه .

وفي تلك الأثناء كانت السيدة زوجة أوودا قد بدأت تفيق من غفوتها . وبدأ مفعول المخدر الذي سلطه عليها كهنة معبد «پيللاجي» يتبدد شيئاً فشيئاً وأخذت عيناها تستردان كل ما فيهما من سحر هندي .

لقد عدد «أوساف أودول» أمير الشعراء آيات الجمال والسحر في ملكة «اهيهنا جارا» فقال :

«إن شعرها اللامع ، المفروق إلى جزأين متساويين ، يحيط بتلك الهالة المستديرة التي يرسمها خداها الرقيقان الأبيضان ، اللذان يشعان لمعة وطراوة . ولحاجبيها الأسودين رسم ومتانة قوس «كاما» إلهة الحب ، وتحت أهدابها الطويلة الحريرية ، وفي الحدقة السوداء لعينيها الواسعتين الصافيتين تسبح ، كما تسبح في بحيرات الهملايا المقدسة ، أنقى الأضواء الربانية . وتتلألأ أسنانها الدقيقة المتساوية البيضاء بين شفتيها المبتسمتين ، وكأنها قطرات الندى في قلب زهرة رمان لم تتفتح بعد كل التفتح ، وفي أذنيها الصغيرتين اللطيفتين بثنياتهما المتسقة ، وفي يديها

١ - «براهما» : الإله الأعلى خالق الكون، عند الهندوس.

القرمزيتين ، وفي قدميها الصغيرتين الممتلئتين الرقيقتين كبراعم زهر اللوتس ، يسطع أجمل ما في جزيرة سيلان من لآلئ ، وما في «جولكند» من جواهر . وإن حزامها الرقيق المرن الذي تكفيه يد واحدة لتطويقه ، ليعلو القوس البديع الذي يرسمه خصرها المستدير . إنها لتبدو في امتلاء نصفها العلوي ، حيث يتفجر الشباب الغض ، فيعرض أبهى كنوزه ، وتحت طيات قميصها الحريري ، تبدو وكأنها قد صاغتها من فضة خالصة تلك اليد الساحرة ، يد «ڤيكفا كارما» النحات الخالد» .

على أننا إذا صرفنا النظر عن كل هذا الإسهاب الشعري ، لاكتفينا بأن نقول إن زوجة أوودا ، أرملة مهراجا «بندلكوند» ، كانت امرأة فاتنة ، بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معان عند الأوربيين . كانت تتكلم الإنجليزية كلاماً صحيحاً نقياً . ولم يكن الدليل مبالغاً حين أكد أن هذه الپارسية الشابة قد طورها التعليم تطويراً كاملاً .

في تلك الأثناء ، كان القطار يتأهب لمغادرة محطة الله آباد . وكان الپارسي واقفاً ينتظر . فدفع له السيد فوج الأجر المتفق عليه دون أن يزيد عليه فلساً واحداً . وهذا ما دهش له پاسپارتو ، إذ كان يدرك كل ما يدين به سيده لإخلاص هذا الدليل وتفانيه في خدمته . فهو في الواقع جازف بحياته عن طيب خاطر في مغامرة معبد «پيللاجي» . وإذا علم الهندوس هذا الأمر فيما بعد ، فإنه لن يستطيع أن يفلت من انتقامهم في سهولة ويسر .

بقيت أيضاً مسألة الفيل «كيومي» دون حل . فماذا يفعل السيد فوج بهذا الفيل الذي اشتراه بذلك الثمن الباهظ ؟ على أن فيلياس فوج كان قد اتخذ فعلاً قراره في هذا الموضوع . فقال للدليل :

- أيها الپارسي ، إنك كنت خدوماً ومخلصاً . وقد دفعت لك أجر خدمتك ولكني لم أكافئك على إخلاصك . فهل لك رغبة في هذا الفيل ؟ خذه ، إنه لك!»

ولمعت عينا الدليل ، وصاح قائلاً :

إنها ثروة ، تلك التي تهبها لي يا صاحب السعادة!»

فأجاب السيد فوج : «اقبلها أيها الدليل ، وسأظل مع هذا كله مديناً لك» .

فصاح پاسپارتو : «هذا بديع! خذه يا صديقي! إن كيومي حيوان طيب وشجاع» .

وذهب إلى الحيوان ، وقدم له بضع قطع من السكر قائلاً له «خذ يا كيومي ، خذ!»

وصدرت من الفيل همهمة تعبر عن الرضا ثم لف خرطومه حول خصر پاسپارتو ورفعه إلى مستوى رأسه ولم يخف پاسپارتو ، بل أخذ يداعب الحيوان الذي ما لبث أن أنزله ببطء إلى الأرض . وصافح بخرطومه يد الشاب الطيب مصافحة قوية .

وبعد لحظات استقر فيلياس فوج والنبيل فرنسيس كرومارتي وپاسپارتو في عربة قطار مريحة ، احتلت السيدة أوودا أحسن مكان فيها ، وانطلق بهم القطار بأقصى سرعة متجهاً نحو «بيناريس» .

وكان هناك ما لا يزيد على ثمانين ميلاً تفصل هذه المدينة عن الله آباد ، قطعها القطار في ساعتين .

وفي خلال هذه الرحلة ، عادت المرأة الشابة إلى صوابها تماماً ، وقد تبخرت من رأسها سحب «الهانج» المخدرة . وكم كانت دهشتها كبيرة حين وجدت نفسها في قطار السكة الحديدية ، في المقصورة التي وضعت فيها ، مرتدية ملابس أوربية ، بين ركاب تجهلهم تماماً ، وأقبل عليها رفاقها أولاً يعنون بأمرها وينعشونها ببضع نقاط من شراب كحولي . ثم قص عليها الضابط كل ما حدث لها . واهتم في روايته بتأكيد ما أبداه فيلياس فوج من إخلاص وتضحية بالذات ، وأنه لم يتردد في المجازفة بحياته لينقذها من براثن الموت . وشرح خاتمة المغامرة التي يرجع الفضل في إخراجها إلى خيال پاسپارتو الجريء . وتركه السيد فوج يتحدث دون أن ينطق هو حرفاً واحداً . وكان پاسپارتو يردد في خجل : «إن هذا ليس شيئاً مذكوراً!»

وشكرت السيدة أوودا منقذيها شكراً جزيلاً ، وكانت دموعها في

شكرها أبلغ من كلامها . وكانت عيناها الجميلتان تفصحان عن اعترافها بالجميل أكثر مما يفصح عنه لسانها .

ولما عاد بها الفكر إلى المشاهد التي مرت بها في احتفالات (السوتي) ، التي أقيمت لحرقها ، ثم وقع نظرها على تلك الأرض الهندية التي ما زالت تخبئ لها ، في أرجائها المختلفة ، أشد الأخطار ، ارتجفت رعباً . وأدرك فيلياس فوج ما كان يدور بخلدها ، ولكي يهدئ روعها ، عرض عليها ، ببروده المعهود ، أن يصحبها حتى هونج كونج ، تقيم فيها زمناً كافياً ويُنسى أمرها خلاله كل النسيان .

وقبلت السيدة أوودا هذا العرض شاكرة كل الشكر . وكان أحد أقاربها ، في الواقع ، يقيم في هونج كونج ، وهو پارسي مثلها ، ومن كبار تجار هذه المدينة الإنجليزية الخالصة ، ولو أنها تقع في نقطة ما على الشاطئ الصيني .

وفي الثانية عشرة والنصف ، وقف القطار في محطة بيناريس . وتؤكد الأساطير البراهماتية أن هذه المدينة تشغل الموضع الذي كانت عنده مدينة «كاري» القديمة ، معلقة ، في غابر الزمان ، بين الأرض والسماء . إلا أن «بيناريس» في عصرنا هذا ، عصر الحقائق الواقعة ، تستقر كل الاستقرار على الأرض ، ويطلق عليها الشرقيون اسم «أثينا الهند» . واستطاع پاسپارتو في لحظة عابرة ، أن يلمح منازلها المبنية من الطوب ، وأكواخها المصنوعة من أوتاد خشبية وقش وأغصان ، تلك الأكواخ التي كانت تضفي عليها منظراً موحشاً للغاية ليس له أي طابع محلي مميز .

وكان على النبيل فرنسيس كرومارتي أن يتوقف عند هذه النقطة . كانت الفرق التي عاد للحاق بها تعسكر على بعد بضعة أميال شمالي المدينة ، وعلى ذلك فقد ودع الضابط فيلياس فوج ، وتمنى له كل نجاح مستطاع ، معبراً له عن رغبته في أن يواصل رحلته بشكل أقل غرابة وشذوذاً ، وأجدى من ذي قبل . وضغط السيد فوج برفق على أصابع رفيقه . وقدمت له السيدة أوودا تحياتها المفعمة بالمودة . وقالت إنها لن

تنسى أبداً ما تدين به من فضل للنبيل فرنسيس كرومارتي . أما پاسپارتو فإنه تشرف بمصافحة يد الضابط مصافحة صادقة . وتساءل متأثراً متى وأين تسمح له الظروف بأن يخدم بإخلاص مثل هذا الرجل الفاضل . ثم انصرف الضابط بعد ذلك .

بعد بيناريس ، استمر الخط الحديدي ، في جزء من أجزائه ، متبعاً وادي نهر الجانج . وبدت من خلال النوافذ الزجاجية ، في جو صحو مشرق مناظر « بهار » الطبيعية المنوعة ، من جبال مغطاة بالخضرة ، وحقول الشعير والذرة والقمح ، ومستنقعات آهلة بالتماسيح الضخمة الخضراء اللون ، وقرى منظمة وغابات ما زالت نضرة . وجاءت فيلة وأبقار ذوات أسنام غليظة ، تستحم في مياه النهر المقدسة . كما جاءت ، على الرغم من فصل الشتاء المبكر ودرجة الحرارة الباردة ، جماعات من الهندوس من كلا الجنسين ، تتوضأ في خشوع وتقوى . وهؤلاء المؤمنون ، وهم ألد أعداء الديانة البوذية ، أتباع مخلصون للديانة البراهمية التي تتجسد في هذه الشخصيات الثلاث : « هويسنو » إلهة الشمس « وشيفا » وهو التشخيص الإلهي لقوى الطبيعة و« براهما » السيد الأصلي للكهنة والمشرعين . ولكن بأي عين يجب أن ينظر كل من براهما وشيفا وهويسنو إلى بلاد الهند التي أصبحت الآن تابعة لبريطانيا العظمى ، كلما مرت سفينة بخارية في نهر الجانج فعكرت مياهه المقدسة ؟

ومرت كل هذه المناظر أمام أعينهم في لمحات سريعة . وكثيراً ما اختفت بعض التفاصيل خلف سحابة بيضاء من بخار الماء . واستطاع المسافرون بصعوبة أن يلمحوا حصن « شونار » على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من « بيناريس » ، وهو من حصون مهراجات « بهار » ، ثم « غازيپور » وما بها من مصانع ماء الورد ، « وپاتنا » التي تقام بها السوق الرئيسة في الهند لتجارة الأفيون ، « وموبخير » ، وهي مدينة أوربية بكل معاني الكلمة ، بل إنها مدينة إنجليزية مثل مانشستر أو برمنجهام ، مشهورة بمصانع سبك الحديد ، ومصانع الأدوات الحديدية

والأسلحة البيضاء التي تصعد من مداخنها المرتفعة أدخنة سوداء تعكر سماء « براهما » . إنها مدينة صناعة حقيقية في قلب بلاد الأحلام!

ثم أقبل الليل . وانطلق القطار بأقصى سرعة وسط عواء النمور والدببة والذئاب التي كانت تفر أمام القاطرة ، ولم يعد المسافر يستطيع أن يرى غرائب « الپنجال » أو « جولكوند » أو خرائب « جور » أو « مورشجاباد » التي كانت العاصمة في الماضي ، أو « بوردوان » ، أو « هرجلي » أو « شاندرناجور » تلك البقعة الفرنسية في الإقليم الهندي ، التي كان يمكن أن يفخر پاسپارتو برؤية علم بلاده يخفق في سمائها .

وأخيراً وصلوا إلى كلكتا في السابعة صباحاً . وكان على الباخرة القاصدة إلى هونج كونج ألا تبرح الميناء إلا في الثانية عشرة ظهراً . ولذلك فقد كان أمام فيلياس فوج فسحة من الوقت قدرها خمس ساعات . وكان مقدراً في خط سير هذا السيد أن يصل إلى عاصمة الهند في اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر ، أي بعد مرور ثلاثة وعشرين يوماً منذ مغادرته لندن . وقد وصل في اليوم المحدد ، فلم يكن بذلك متأخراً أو متقدماً عن موعده . وكان لسوء حظه قد أضاع اليومين اللذين اقتصدهما في الطريق بين لندن وبومباي .

ونحن نعلم كيف أضاعهما ، عند اجتيازه شبه الجزيرة الهندية . على أننا نعتقد أنه لم يأسف على ضياعهما .

١٥

بضعة آلاف من الجنيهات تخرج

من حقيبة الأوراق المالية فيخف بذلك وزنها

وقف القطار في المحطة . وكان پاسپارتو أول من غادر العربة ، وتبعه السيد فوج الذي ساعد رفيقته الحسناء على النزول إلى الرصيف . وكان السيد فوج يقصد التوجه مباشرة إلى الباخرة التي سوف ترحل إلى هونج كونج ، ليحجز بها مكاناً مريحاً تشغله السيدة أوودا التي لم يكن يريد أن يفترق عنها قط ، ما دام في هذا البلد خطر على حياتها .

وفي اللحظة التي كان فيها السيد فوج يتأهب للخروج من المحطة ، اقترب منه شرطي وقال له : السيد فيلياس فوج ؟ »

– نعم ، هو أنا .

فأضاف الشرطي وهو يشير إلى پاسپارتو : «وهذا الرجل خادمك ؟ »

– نعم .

– أرجوكما أن تتبعاني ، أنتما الاثنان .

ولم تبدر من السيد فوج أي حركة تدل على أنه قد فوجئ بأية صورة فقد كان الشرطي يمثل القانون ، والقانون مقدس في عرف كل إنجليزي . وأراد پاسپارتو ، وفقاً لطبيعته الفرنسية ، أن يتفاهم ، ولكن الشرطي لمسه بعصاه لمسة خفيفة ، وأشار إليه فوج بأن يطيع الشرطي .

وسأل السيد فوج : «هل تستطيع هذه السيدة أن تصحبنا ؟ »

فأجاب الشرطي : «نعم تستطيع » .

واستصحب الشرطي السيد فوج والسيدة أوودا وپاسپارتو حتى مركبة ذات أربع عجلات وبها أربعة أماكن ، يطلق عليها اسم «پالكي جاري» ويجرها جوادان . وسارت العربة . ولم يتكلم أحد أثناء الطريق .

واجتازت العربة أولاً «المدينة السوداء» ذات الشوارع الضيقة التي تحدها أكواخ تزدحم بشعب خليط من جميع الأجناس ، وقوم قذرين يلبسون ثياباً رثة . ثم مرت العربة مجتازة المدينة الأوربية التي تزينها منازل من الطوب ، تظللها أشجار جوز الهند ، يروح ويغدو فيها ، على الرغم من الصباح المبكر ، فرسان أنيقون ، ودواب بديعة المنظر تجر العربات .

ووقفت عربة «الپالكي جاري» أمام منزل بسيط المظهر ، ولكنه بالتأكيد لم يكن مخصصاً للسكن ، وأنزل الشرطي أسراه . نعم ، نستطيع أن نسميهم الآن أسرى . واقتادهم إلى داخل غرفة على نوافذها قضبان حديدية ، وقال لهم : «ستمثلون أمام القاضي «أوباديا» في الثامنة والنصف » .

ثم انسحب وأغلق الباب .

وصاح پاسپارتو وهو يتهالك على مقعده : «ها نحن قد سجنا! »

وقالت السيدة أوودا مخاطبة في الحال السيد فوج بصوت حاولت عبثاً أن تجعله يخفي تأثرها : «سيدي ، يجب أن تتخلى عني! إنهم يلاحقونك من أجلي! لأنك أنقذت حياتي! »

واكتفى فيلياس فوج بأن رد عليها قائلاً إن هذا مستحيل! وأنه لا يعقل أن يحاكم من أجل مسألة «السوتي» ، وكيف يجرؤ الشاكون على الظهور أمام القضاء ؟ فلابد أن هناك خطأ ما . وأضاف قائلاً إنه على أية حال لن يتخلى عن المرأة الشابة ، وأنه سيذهب بها إلى هونج كونج .

ولاحظ پاسپارتو قائلاً : ولكن الباخرة سوف ترحل في الثانية عشرة ظهراً .

فأجاب السيد الرزين : «سنكون على ظهرها قبل الثانية عشرة ظهراً» .

وجاء هذا الرد في لهجة ملؤها الثقة ، حتى إن پاسپارتو لم يتمالك من أن يقول لنفسه . «يا إلهي! بالتأكيد ، سنكون على ظهر الباخرة قبل منتصف النهار» .

على أنه لم يكن مطمئناً بالمرة إلى الموقف .

وفي الثامنة والنصف ، فتح باب الغرفة ، وظهر الشرطي من جديد ، واقتاد المقبوض عليهم إلى الغرفة المجاورة ، وهي قاعة الجلسة ، وكان يشغلها جمهور غفير ، يتكون من أوربيين وأهال .

وجلس السيد فوج والسيدة أوودا وپاسپارتو على مقعد مواجه لمقاعد القاضي وكاتب الجلسة .

ودخل القاضي «أوباديا» إلى القاعة في الوقت نفسه تقريباً ، يتبعه كاتب الجلسة . وكان القاضي رجلاً ضخم الجسم مستدير الوجه . ومد يده فانتزع شعراً مستعاراً معلقاً على مشجب في الحائط ، ووضعه برشاقة على رأسه .

ثم قال : «القضية الأولى» .

ولكنه ما أن وضع يده على رأسه حتى قال : «ولكن ليس هذا شعري!»

فأجاب الكاتب : «إنه في الواقع ، يا سيدي أوباديا ، شعري أنا» .

– يا سيدي العزيز «اويستيريوف» ، كيف تتوقع من قاض أن يصدر حكماً عادلاً وعلى رأسه شعر كاتب جلسة!»

وتبادل الرجلان شعريهما . وفي أثناء هذه المقدمات كان پاسپارتو يغلي من القلق ونفاد الصبر ، فإن عقارب ساعة الحائط الكبيرة كانت تبدو وكأنها تدور بسرعة كبيرة .

وأعاد القاضي قوله : «القضية الأولى» .

فقال الكاتب اويستريوف : فيلياس فوج ؟

فأجاب السيد فوج : «هاأنذا» .

– وپاسپارتو ؟

فأجاب پاسپارتو : «حاضر» .

فقال القاضي أوباديا : «حسناً! أيها المتهمان ، إن رجال الشرطة كانوا يترصدونكم يومين كاملين أمام جميع القطر القادمة من بومباي» .

فصاح پاسپارتو وقد نفد صبره : «ولكن بماذا تتهموننا ؟»

فأجاب القاضي : «سوف تعلم ذلك» .

وقال السيد فوج عندئذ : إنني مواطن إنجليزي ، لي الحق في أن . . .

فسأله السيد أوباديا : «هل أساء إليك أحد ؟» .

– كلا .

– حسناً ، أدخلوا الشاكين .

وتنفيذاً لأمر القاضي ، فتح حاجب المحكمة باباً من الأبواب ، وأدخل ثلاثة من الكهنة .

فتمتم پاسپارتو : «هذه إذن المسألة ، ها هم أولئك الأوغاد الذين أرادوا حرق سيدتنا الصغيرة!»

ووقف الكهنة أمام القاضي . وقرأ كاتب المحكمة بصوت مرتفع شكوى مقدمة ضد السيد فيلياس فوج وخادمه لانتهاكهما حرمة مكان تقدسه الديانة البراهماتية .

وسأل القاضي فيلياس فوج : «هل سمعت ؟»

فأجاب السيد فوج وهو ينظر إلى ساعته : «نعم يا سيدي ، وأنا أعترف بالتهمة» .

– آه ، أنت تعترف إذن ؟

– أعترف ، وأنتظر أن يعترف هؤلاء الكهنة الثلاثة بدورهم بما كانوا يريدون أن يفعلوه في معبد «پيللاجي» .

ونظر الكهنة بعضهم إلى البعض الآخر ، وبدا عليهم أنهم لم يفهموا شيئاً مما قاله المتهم .

وصاح پاسپارتو بحدة : «دون شك! في معبد پيللاجي حيث كانوا يستعدون لحرق ضحيتهم! » .

وذهل الكهنة مرة ثانية من هذا الكلام ، ودهش القاضي « أوباديا » دهشة عميقة .

وسأل : « أي ضحية ؟ ومن يحرقون ؟ وفي قلب مدينة « بومباي ؟ »

فصاح پاسپارتو : « بومباي ؟ »

– دون شك . لقد حدث ما نتكلم عنه في معبد « ماليبارهيل » في بومباي ، وليس في معبد « پيللاجي » .

وأضاف كاتب المحكمة قائلاً ، وهو يضع زوجاً من الأحذية على المكتب : « وها هي ذي أحذية الشخص الذي انتهك حرمة المعبد المقدس نقدمها دليلاً من أدلة الإثبات »

فصاح پاسپارتو : هذا حذائي! فقد فوجئ بدليل الاتهام ، ولم يستطع أن يمسك نفسه عن هذه الصيحة غير الإرادية .

ويمكن أن نتصور ذلك الارتباك الذي وقع في نفسية السيد والخادم . فإنهما قد نسيا حادث معبد بومباي ، ذلك الحادث الذي أتى بهما أمام قاضي كلكتا .

وكان الشرطي فيكس قد أدرك في الواقع كل الفائدة التي يستطيع أن يحصل عليها بسبب الحادث المشؤوم . فأخر موعد سفره اثنتي عشرة ساعة ، وأقام من نفسه ناصحاً ومستشاراً لكهنة « ماليبارهيل » ، ووعدهم بأن يحصلوا على تعويضات كبيرة ، وهو يعلم جيداً أن الحكومة الإنجليزية لا تتهاون في مثل هذه الجريمة . ثم أركبهم القطار التالي وأطلقهم في أثر منتهكي الحرمات المقدسة . ولما ضاع بعض الوقت في تخليص الأرملة الشابة فقد وصل فيكس والكهنة إلى كلكتا قبل فيلياس فوج وخادمه ، اللذين كان على رجال الضبط أن يقبضوا عليهما عند نزولهما من القطار بناء على برقية أرسلت إليهم . وكم كانت خيبة أمل فيكس كبيرة ، حين علم أن فيلياس فوج لم يصل بعد إلى العاصمة الهندية . ولابد أنه اعتقد أن اللص الكبير توقف عند محطة من محطات

سكة حديد شبه الجزيرة ، والتجأ إلى بعض الأقاليم الشمالية . وقضى فيكس أربعاً وعشرين ساعة يترصده على المحطة ، وهو في هم مقيم . وكم كانت فرحته كبيرة حين رآه في ذلك الصباح نفسه ينزل من عربة القطار ، تصحبه مع ذلك امرأة شابة ، لم يستطع أن يعرف السبب في وجودها معه . فأرسل خلفه في الحال أحد رجال الشرطة . وهكذا اقتيد السيد فوج وپاسپارتو وأرملة مهراجا « بندلكوند » أمام القاضي « أوباديا » .

ولو كان پاسپارتو أقل انهماكاً بقضيته تلك ، لاستطاع أن يلمح ، في ركن من أركان قاعة المحكمة ، المخبر الذي كان يتبع الاستجواب باهتمام يسهل إدراكه ، فإنه لم يتلق حتى الآن في كلكتا ، أمر القبض الذي لم يصله لا في السويس ولا في بومباي!

وفي تلك الأثناء كان القاضي « أوباديا » قد حرر محضراً بالاعتراف الذي أفلت من فم « پاسپارتو » الذي ودَ لو أعطى كل ما يملك على أن يسترد ما صدر منه من كلام في غير تبصر .

وقال القاضي : « إذن فقد اعترفتم بالوقائع ؟ »

فأجاب السيد فوج بهدوء : « نعم ، اعترفنا بها »

فاستطرد القاضي قائلاً : « حيث أن القانون الإنكليزي يهدف إلى حماية جميع ديانات شعوب الهند على قدم المساواة حماية واحدة فعالة ، وحيث أن الجريمة المعروضة علينا قد اعترف بها المدعو پاسپارتو ، الذي أقر بأنه قد دنس بقدمه بلاط معبد « ماليبارهيل » في بومباي في اليوم العشرين من أكتوبر ، فقد حكمنا على پاسپارتو المذكور بالحبس خمسة عشر يوماً وبغرامة قدرها ثلاثمائة جنيه » .

فصاح پاسپارتو الذي لم يتأثر في الحقيقة إلا بفداحة الغرامة : ثلاثمائة جنيه ؟ .

فصاح الحاجب بصوت يجلجل : « اسكت! »

وأضاف القاضي « أوباديا » : « وحيث أنه لم يثبت بشكل حسي ملموس انتفاء التواطؤ على فعل الجريمة بين الخادم وسيده ، الذي هو

مسؤول على كل حال عن أفعال وتصرفات خادمه الأجير ، فالمحكمة تدين فيلياس فوج المذكور وتحكم عليه بالحبس ثمانية أيام وبغرامة قدرها مائة وخمسون جنيهاً . والآن ، أيها الحاجب ، ناد على قضية أخرى » .

وأحس فيكس وهو منزو في ركنه بارتياح يصعب التعبير عنه . فإنه إذا احتجز فيلياس فوج ثمانية أيام في كلكتا لكان لديه أكثر من الوقت اللازم لوصول أمر القبض عليه .

وذهل پاسپارتو . فإن هذا الحكم قد أنزل الخراب بسيده ، وأفقده رهاناً قدره عشرون ألف جنيه ، وكل ذلك لأنه دخل متسكعاً في ذلك المعبد المنحوس!

أما فيلياس فوج فإنه لم تختلج فيه جارحة ، وظل متمالكاً نفسه كما لو كان هذا الحكم لا شأن له به ، إلا أنه في اللحظة التي نادى فيها الحاجب على قضية أخرى ، نهض وقال :

« إنني أقدم كفالة » .

فأجاب القاضي : « هذا من حقك » .

وشعر فيكس ببرودة تسري في ظهره ، إلا أنه استرد ثقته واطمئنانه حين سمع القاضي يحدد الكفالة التي يجب أن يقدمها فيلياس فوج وخادمه « باعتبارهما من الأجانب » بمبلغ ضخم يقدر بألف جنيه لكل منهما!

وعلى ذلك فلا بد أن يدفع السيد فوج مبلغ ألفي جنيه إذا لم يشأ أن ينفذ عقوبة الحبس التي حكم بها عليه وعلى خادمه .

وقال فوج : « سأدفع الضمان » .

ومد يده فأخرج من الحقيبة التي كان يحملها پاسپارتو رزمة من الأوراق المالية وضعها على منضدة كاتب المحكمة .

وقال القاضي : « سوف يرد لكما هذا المبلغ عند خروجكما من السجن . وإلى أن ينفذ الحكم بالحبس فإنكما مطلقا السراح نظير هذه الكفالة » .

فقال فيلياس فوج لخادمه : « هيا بنا » .

وصاح پاسپارتو بحنق : « ولكن فليعيدوا لي على الأقل حذائي! »

وأعادوا له الحذاء .

فتمتم قائلاً : « هذا حذاء كلفني ثمناً غالياً! أكثر من ألف جنيه في مقابل كل فردة منه! فضلاً عن أنه يضايقني! »

وتبع پاسپارتو سيده ، وهو في غم .

أما السيد فوج فإنه قدم ذراعه للمرأة الشابة . وكان فيكس يأمل ألا يدفع اللص مبلغ الألفي جنيه ، فيقضي بذلك الأيام الثمانية المحكوم بها عليه في السجن . ولذلك فقد عاد إلى اقتفاء أثر فوج .

واستأجر السيد فوج عربة ركب فيها في الحال مع السيدة أوودا وپاسپارتو . وجرى فيكس خلف العربة التي وقفت بعد هنيهة على أحد أرصفة ميناء المدينة .

وعلى بعد نصف ميل داخل حوض الميناء ، كانت الباخرة رانجون راسية ، يرفرف في أعلى صاريها علم الابحار . ودقت الساعة الحادية عشرة وكان فيلياس فوج سابقاً موعده بساعة . ورآه فيكس وهو ينزل من العربة ويستقل قارباً مع السيدة أوودا وخادمه . ودق الشرطي الأرض بقدمه من شدة الغيظ . وصاح : « يا للوغد إنه راحل! وكيف ضحى بألفي جنيه! إنه يبدد المال كما يفعل اللصوص! آه ، سوف أتعقبه ولو ذهب إلى آخر الدنيا إذا لزم الأمر . على أنه بالسرعة وبالكيفية التي يتنقل بها ، سوف يبدد كل المال المسروق! »

وكان مفتش الشرطة مصيباً في الرأي الذي ورد بخاطره ، فالواقع أن فيلياس فوج قد أنفق في طريقه ، منذ أن غادر لندن ، أكثر من خمسة آلاف جنيه ، في نفقات السفر والعطايا ، وشراء الفيل ودفع الكفالات والغرامات . وبذلك كانت النسبة المئوية من المبلغ المسروق الذي سوف يسترد ، تلك النسبة التي خصصت مكافأة لرجال الشرطة ، قد أخذت تتناقص باطراد .

١٦
فيكس يبدو أنه لا يدرك ما يقال له

كانت الرانجون ، وهي إحدى البواخر التي تسيرها الشركة الهندية الشرقية في بحار الصين واليابان ، سفينة بخارية مبنية من الحديد ، ذات رفاص ، حمولتها القائمة ألف وسبعمائة وسبعون طناً ، وقوتها الاسمية أربعمائة حصان . وكانت تعادل المونجوليا في السرعة ، ولكنها لم تكن تضارعها في الراحة التي توفرها للركاب . ولذلك فإن السيدة أوودا لم تستقر فيها ذلك الاستقرار المريح الذي كان يرجوه لها فيلياس فوج . وعلى كل ، فإن مسافة الرحلة كانت تقدر بثلاثمائة ألف وخمسمائة ميل فقط تقطعها الباخرة في أحد عشر أو اثني عشر يوماً ، ولم يبد على تلك الفتاة الشابة أنها مسافرة متعبة لمرافقيها .

وفي الأيام الأولى لهذه الرحلة البحرية زادت معرفة السيدة أوودا بفيلياس فوج . كانت تعبر له ، في جميع المناسبات ، عن عظيم تقديرها لجميله . وكان السيد الرزين ينصت إليها بغاية الهدوء ، في الظاهر على الأقل ، دون أن يصدر عنه أي صوت أو حركة تكشف عما يختلج في صدره من أحاسيس .

وكان يعنى بتوفير كل ما تحتاج إليه حتى لا يعوزها أي شيء إطلاقاً . وكان يتردد عليها بانتظام في ساعات معينة ، فينصت إلى

حديثها على الأقل ، إن لم يتحدث هو إليها . كان يقوم نحوها بكل الواجبات التي تقتضيها أدق آداب المجاملة ، في لطف ورقة وسرعة خاطر ، وكأنه آلة دقيقة ضبطت أجزاؤها لتؤدي هذا الغرض . وتحيرت السيدة أوودا في أمره ، ولكن پاسپارتو قد أوضح لها قليلاً شخصية سيده الغريبة : فحكى لها قصة الرهان الذي دفع بهذا السيد للطواف حول العالم ، وابتسمت السيدة أوودا . ومهما كان الأمر فإنها كانت مدينة له بحياتها . ولن تقل مكانة منقذها في نفسها ما دامت تنظر إليه بعين العرفان بالجميل .

وأيدت السيدة أوودا قصتها المؤثرة كما قصها الدليل الهندوسي . كانت تنتمي إلى تلك السلالة التي تحتل المكان الأسمى بين مختلف الأجناس الوطنية في الهند . وقد أثرى عدد كبير من التجار البارسيين ثراء كبيراً في الهند ، من تجارة الأقطان . وكان أحدهم ، السير « جيمس جيجيبهوي » ، وقد منحته الحكومة الإنجليزية لقباً رفيعاً من ألقاب النبلاء . وكانت السيدة أوودا من أقارب هذا الرجل الثري الذي كان يعيش في بومباي . ثم إنها كانت تعتزم اللحاق في هونج كونج بالسيد الفاضل « جيجي » ، وهو أحد أبناء عمومة السيد « جيجيبهوي » . فهل يا ترى ستجد عنده الملجأ الأمين والعون المنشود ؟ إنها لا تستطيع الآن أن تؤكد ذلك . وقد أجاب السيد فوج عن تساؤلها مطمئناً لها ، ثم أخبرها أن الأمور كلها سوف تحل وتنتظم كما تحل المسائل الرياضية . وكانت هذه عبارته المعتادة!

فهل أدركت المرأة الصغيرة ذلك المعنى الذي قصده فوج بتعبيره هذا ، « التنظيم الرياضي للأمور » ؟ لا نستطيع الإجابة عن هذا السؤال ومع ذلك فقد أخذت عيناها الصافيتان صفاء مياه بحيرات الهملايا المقدسة تنظران في عيني السيد فوج . ولكن فوج الذي لا يستطيع أن يفهمه أحد والذي ما زال غامضاً كما كان على الدوام ، لم يكن فيما يظهر ذلك الشخص الذي يتوقع منه أن يلقي بنفسه في تلك البحيرات!

انقضى ذلك الشطر الأول من رحلة « الرانجون » البحرية في ظروف

طيبة للغاية . وكان الجو محتملاً . وبدا ذلك الجزء الكبير كله من الخليج الواسع الأرجاء الذي يسميه البحارة «أذرع البنجال» ملائماً كل الملاءمة لسير الباخرة ، وما لبث بحارة الرانجون أن لمحوا جزيرة «جراند اندامان» ، وهي الجزيرة الرئيسة من أرخبيل «اندامان» التي يرتفع جبلها «ساديل پيك» إلى علو ألفين وأربعمائة قدم ، فيستدل برؤيته الملاحون على طريقهم وهم على مسافة كبيرة منه .

واستطال الساحل عند اقتراب الباخرة منه . ولم يظهر عليه أي فرد من «الپايواس» المتوحشين سكان تلك الجزيرة . ويعتبر أولئك «الپايواس» من أحط المخلوقات البشرية . إلا أنه كان من الخطأ اعتبارهم من أكلة اللحوم البشرية .

وبدا المنظر الطبيعي العام لهذه الجزائر جميلاً للغاية . فظهرت في المقدمة غابات شاسعة من أشجار اللاتانية ونخيل «الأريك» وأشجار البامبوزيا ، وجوز الطيب ، و«التيك» ، وأشجار السنط الضخمة ، وأشجار السرخس ، تغطي الأراضي . وترتفع خلفها الجبال الرائعة الشاهقة . ويزخر الشاطئ بالآلاف من طيور السنونو البحرية الثمينة التي يؤكل عشها لأنه لذيذ الطعم يحبه أهل الصين . على أن كل هذا المنظر الطبيعي المتنوع لمجموعة جزر «الأندامان» الذي بدا للناظرين قد انطوى سريعاً ، وانطلقت «الرانجون» في اتجاه مضيق «ملقا» الذي يؤدي إلى بحار الصين .

فماذا يا ترى كان يفعله المفتش فيكس خلال هذه الرحلة البحرية الطويلة وقد دفعه سوء حظه إلى القيام بها ؟ لقد ترك للسلطات في كلكتا تعليمات تقتضي بأنه إذا وصلها أخيراً أمر القبض ، فعليها أن ترسل هذا الأمر إليه في هونج كونج . ثم استطاع أن يستقل الباخرة رانجون دون أن يلمحه پاسپارتو . وكان يأمل أن يخفي وجوده حتى تصل الباخرة ، وكم كان من الصعب عليه في الواقع أن يفسر وجوده على ظهر الباخرة من غير أن يثير شكوك پاسپارتو ، الذي كان يعتقد حتماً أنه باق في بومباي . إلا أن طبيعة الظروف نفسها ومنطقها قد

حملته على تجديد صلاته بالشاب الأمين . فكيف حدث ذلك ؟ هذا ما سنعرفه حالاً .

أصبحت كل آمال المفتش ومطالبه تتركز الآن في بقعة واحدة من الأرض ، هي هونج كونج ، فإن الباخرة لن تقف في سنغافورة وقتاً كافياً يسمح له بأن يقوم بعمل مثمر في هذه المدينة . فكان لابد من القبض على اللص في هونج كونج ، وإلا أفلت منه نهائياً .

وكانت هونج كونج في الواقع أرضاً إنجليزية ، ولكنها آخر أرض إنجليزية في تلك الرحلة حول العالم . وبعدها يواصل السيد فوج رحلته إلى الصين واليابان وأمريكا حيث يجد ملجأ أميناً . فإذا وجد المفتش أخيراً في هونج كونج أمر القبض الذي كان مرسلاً بالتأكيد في أثره ، فإنه سوف يقبض على فوج ويسلمه إلى هيئة الشرطة المحلية . فلا صعوبة في هذا الأمر . فإذا تجاوز في رحيله هونج كونج فإن أمر القبض لن يكفيه ، ويجب عليه حينئذ أن يستصدر قراراً بتسليم المجرم . وفي هذا الإجراء كثير من التأخير والتباطؤ والعقبات المختلفة الأشكال التي قد يستغلها المجرم فيفلت نهائياً من يد العدالة . فإذا فشل الأمر في هونج كونج فإنه سوف يستحيل أو يتعذر عليه أن يحاول من جديد محاولة ناجحة .

وكان فيكس يقول لنفسه ، ويكرر القول خلال الساعات الطويلة التي قضاها في غرفته بالباخرة : «إذن ، إما أن يكون أمر القبض قد وصل إلى هونج كونج ، فأقبض على المجرم ، وإما ألا يكون قد وصل ، فيجب في هذه المرة أن أؤخر رحيله بأي ثمن كان! لقد فشلت في بومباي ، وفشلت في كلكتا! فإذا ضاعت فرصتي في هونج كونج ضاعت معها سمعتي . يجب أن أنجح مهما كلفني الأمر . ولكن ما هي الوسيلة التي أتخذها لتأخير رحيل هذا الرجل الملعون فوج ، إن كان من الضروري تأخيره ؟

وقرر فيكس في نفسه ، كحل أخير لهذه المسألة ، أن يعترف بحقيقة الأمر لپاسپارتو ، وأن يحيطه علماً بحقيقة هذا السيد الذي ارتبط بخدمته

والذي لم يكن بالتأكيد شريكه في السرقة . فإذا اتضحت حقيقة الأمور لپاسپارتو بعد هذا الاعتراف ، فإنه لابد أن يخشى التعرض للاتهام بالاشتراك في هذه الجريمة ، وسينحاز إلى جانب فيكس ولا ريب . على أن هذه الوسيلة فيها الكثير من المخاطرة ، فإن كلمة صغيرة يقولها پاسپارتو لسيده تكفي لأن تعرض مشروع فيكس كله للفشل التام .

وهكذا كان فيكس مرتبكاً كل الارتباك ، على أن وجود السيدة أوودا على ظهر الباخرة رانجون في صحبة فيلياس فوج قد فتح له آفاقاً جديدة . وتساءل عن شخصية تلك المرأة والظروف التي تجمعت وتوافقت فجعلت منها رفيقة لفوج . ولابد أن تكون المقابلة بينهما قد تمت في الواقع بين بومباي وكلكتا ، وإنما في أية بقعة من بقاع شبه الجزيرة حدث ذلك ؟ وهل كانت المصادفة وحدها هي التي جمعت بين فيلياس فوج والمسافرة الشابة ؟ أو كانت الرحلة على العكس من ذلك ، قد قام بها ذلك السيد بقصد اللحاق بهذه المخلوقة الفاتنة ؟ نعم وإنها لفاتنة حقاً! لقد رآها فيكس في قاعة محكمة كلكتا . ومن السهل أن ندرك الحيرة التي لابد أن يكون المفتش قد وقع فيها . فقد تساءل عما إذا كانت هذه المسألة تخفي جريمة اختطاف . نعم ، لابد أن الأمر كان كذلك! ورسخت هذه الفكرة في عقله ، وأدرك كل الفائدة التي يستطيع أن يجنيها من هذه الواقعة . وسواءً كانت هذه السيدة متزوجة أم غير متزوجة فقد اختطفت ، ومن الممكن في هونج كونج إيقاع الخاطف في متاعب ومشاكل لا يستطيع الخلاص منها ولو بذل الكثير من المال!

على أنه كان يجب المبادرة بالعمل قبل وصول الباخرة إلى هونج كونج . فقد كان لفوج تلك العادة الممقوتة ، عادة القفز من باخرة إلى أخرى وفي استطاعته أن يبتعد كثيراً قبل أن يتخذ فيكس أي إجراء ضده .

فكان من الضروري إذن إخطار السلطات الإنجليزية بالأمر وبخط سير الباخرة رانجون قبل نزول فوج منها . ولم يكن هناك ما هو أيسر من ذلك ، فإن الباخرة سوف ترسو في سنغافورة التي يربطها خط تلغرافي بالساحل الصيني .

ومع ذلك فقد عزم فيكس على استجواب پاسپارتو قبل أن يقدم على عمل أي شيء ، وحتى يعمل وهو واثق من نفسه . وكان يعلم أنه من السهل أن يحمل هذا الفتى على الكلام . وقرر أن يظهر نفسه بعد أن ظل مختفياً حتى ذلك اليوم . ولم يكن لديه وقت يضيعه . فقد كان في اليوم الحادي والثلاثين من أكتوبر ، وستلقي الباخرة مرساها في سنغافورة في اليوم التالي .

وعلى ذلك خرج فيكس من غرفته في ذلك اليوم وصعد إلى سطح الباخرة وقد عزم على أن يقابل پاسپارتو ، فيدنو منه ويرسم على وجهه أشد علامات الدهشة . وكان پاسپارتو يتمشى في مقدمة السفينة ، حينما اندفع المفتش نحوه صائحاً : «أنت! على ظهر الرانجون!»

فأجاب پاسپارتو وقد أخذته الدهشة ، حين عرف فيه رفيقه في السفر على ظهر المونجوليا : «السيد فيكس على ظهر الباخرة! كيف ذلك ؟ تركتك في بومباي ثم ألقاك ثانية في طريقي إلى هونج كونج! إذن فأنت تقوم برحلة حول العالم!»

فأجاب فيكس : «كلا ، كلا إنني سأتوقف في هونج كونج ، بضعة أيام على الأقل» .

فقال پاسپارتو الذي بدت على وجهه علامات الدهشة ، في لحظة عابرة «آه! ولكن كيف لم أرك على ظهر الباخرة منذ أن أبحرنا من كلكتا ؟»

– كنت متوعكاً . وشرفي ، أصابني دوار البحر وظللت راقداً في غرفتي . ولم أرتح في خليج البنغال كما ارتحت في المحيط الهندي . وكيف حال سيدك فيلياس فوج ؟

– في أتم صحة وعافية ، دقيق في مواعيده ، ومضبوط في نظام رحلته! فلم يتأخر يوماً واحداً! آه! يا سيد فيكس ، إنك لا تعلم بالطبع أن معنا الآن في رحلتنا سيدة شابة» .

فأجاب الشرطي : «سيدة شابة!» وبدا كمن لم يفهم ما قاله محدثه .

على أن پاسپارتو ما لبث أن روى له القصة . فحدثه عن واقعة معبد بومباي ، ثم شراء الفيل بألفي جنيه ثم واقعة «السوتي» ، واختطاف أوودا والحكم الذي أصدرته محكمة كلكتا ثم إخلاء سبيلهما بكفالة . أما فيكس الذي كان يعرف الشطر الأخير من هذه الحوادث ، فقد تظاهر بأنه يجهلها جميعاً . واستمتع پاسپارتو بلذة وهو يقص هذه المغامرات على مستمعه الذي أبدى بدوره كل اهتمام وهو ينصت إليه .

وسأله فيكس : «وأخيراً ، هل عزم سيدك على أن يستصحب معه هذه الشابة إلى أوربا ؟»

– كلا يا سيد فيكس ، إننا سنعهد بها إلى قريب من أقاربها ، وهو من كبار تجار هونج كونج .

فقال المخبر لنفسه ، وهو يخفي خيبة أمله : «ليس هناك ما يمكن عمله» ثم قال لپاسپارتو : «هل لك في قدح من الجن يا سيد پاسپارتو ؟» .

١٧

ما حدث في أثناء الرحلة

من سنغافورة إلى هونج كونج

ومنذ ذلك اليوم ، كثرت مقابلات پاسپارتو والمخبر . ولكن المخبر اتخذ بصدد رفيقه موقفاً فيه الكثير من التحفظ ، ولم يحاول أبداً أن يجره إلى الحديث ، ولم يقع نظره إلا مرتين على السيد فوج الذي كان يقيم دائماً في قاعة الجلوس بالباخرة ، إما في رفقة السيدة أوودا ، وإما مشتركاً في لعبة الهويست ، طبقاً لعادته .

أما پاسپارتو فإنه أخذ يمعن الفكر جدياً في تلك المصادفة الغريبة التي وضعت فيكس مرة أخرى في طريق سيده ، الشيء الذي كان يبعث حقاً على الدهشة . فهذا السيد اللطيف المجامل ولاشك ، الذي قابلاه أولاً في السويس ، ثم سافر معهما على ظهر المونجوليا ، ونزل في بومباي حيث قال إنه سوف يقيم بعض الوقت ، ثم قابلاه بعد ذلك على ظهر الرانجون ، متجهاً نحو هونج كونج ، أي أنه كان ، باختصار ، يتبع خطا السيد فوج ، هذا السيد ، يجب ألا يفكر الإنسان جدياً في أمره فحسب ، بل عليه أن يجهد الفكر . فبين هذه الحوادث توافق ، أقل ما يقال عنه إنه عجيب . فمن هو يا ترى الشخص الذي يقتفي أثره ؟ وكان پاسپارتو مستعداً أن يراهن بخفيه وقد احتفظ بهما في عناية شديدة ، على أن فيكس سوف يغادر هونج هونج معهم في الوقت نفسه ، وربما أبحر معهم على الباخرة نفسها .

ولو أجهد پاسپارتو عقله في التفكير قرناً من الزمان لما استطاع أن يدرك أمر المهمة المكلف بها الشرطي ، وكان من المستحيل عليه أن يتصور أن فيلياس فوج كانت تطارده الشرطة طوال رحلته حول الكرة الأرضية كما تطارد اللصوص . ولما كان في طبيعة البشر أن يفسروا كل ما يعن لهم من الأمور ، فقد فسر پاسپارتو وجود فيكس معهم دائماً في كل مكان يذهبون إليه بالكيفية الآتية ، وذلك بعد أن أضيئت بصيرته على حين غرة ، وكان تفسيره هذا معقولاً إلى حد كبير : لقد ظن أن فيكس لا يمكن أن يكون سوى مخبر بعثه في أعقاب السيد فوج زملاؤه في نادي «الريفورم» ليتأكدوا من أنه يقوم برحلته حول العالم بانتظام وفقاً لخط السير المتفق عليه . وقد أعجب الشاب الطيب القلب برأيه هذا ، وأصبح مزهواً ببعد نظره وفطنته ، وقال لنفسه مراراً : «هذا واضح! هذا واضح! إنه جاسوس أرسله هؤلاء السادة في إثرنا! إن هذا عمل لا يليق! فالسيد فوج رجل فاضل وأمين! فكيف يبعثون وراءه مخبراً يتجسس عليه! الويل لكم أيها السادة أعضاء نادي الريفورم ، إن هذا سوف يكلفكم ثمناً غالياً!»

ومع أن پاسپارتو قد اهتز طرباً لهذا الاكتشاف الذي توصل إليه ، فإنه لم يذكر عنه شيئاً لسيده ، خشية أن يجرح شعوره لعدم الثقة التي أظهرها نحوه خصومه . ولكنه علل النفس بالتهكم على فيكس كلما سنحت له الفرصة ، وذلك تلميحاً ، دون أن يكشف له عن قصده .

وفي مساء الأربعاء الثلاثين من أكتوبر ، دخلت الباخرة «الرانجون» في مضيق «ملقا» الذي يفصل شبه الجزيرة التي تحمل هذا الاسم عن أراضي سومطرة . وكانت هناك جزر صغيرة جبلية وعرة ، بديعة المنظر ، ولكنها تحجب الجزيرة الكبيرة عن الأنظار .

وفي الرابعة من صباح اليوم التالي رست السفينة رانجون في ميناء سنغافورة لتتزود بالفحم . وقد سبقت موعدها المقرر للوصول بمقدار نصف ساعة .

وقيد فيلياس فوج هذا السبق في كراسته الخاصة في خانة الربح .

وفي هذه المرة نزل إلى البر ترافقه السيدة أوودا التي أبدت رغبتها في أن تتنزه بضع ساعات .

ولما كان فيكس يرتاب في كل حركة يأتيها فوج ، فقد تبعه خفية . أما پاسپارتو ، الذي كان يسخر من مناورات فيكس ، فقد انصرف لشراء ما اعتاد شراءه .

وجزيرة سنغافورة ليست كبيرة ، وليست ذات منظر طبيعي رائع . وهي خالية من الجبال ومن المواقع المرتفعة . ومع ذلك فهي جميلة على صغر مساحتها . إنها بستان تخترقه طرقات بديعة . واستقل فيلياس فوج والسيدة أوودا مركبة لطيفة تجرها تلك الجياد الرشيقة المستوردة من «هولندا الجديدة» ، وسارت بهما وسط مجموعات من أشجار النخيل ذات الأوراق اللامعة ، وشجر القرنفل الذي تتكون براعمه من أزهاره المتفتحة . وكانت هناك أدغال من أشجار الفلفل ، كسياج النباتات الشائكة في الريف الأوربي . أما أشجار نخيل الدقيق (ساجو) ، وأشجار السرخس الكبيرة ذات الأغصان الباسقة فكانت تضفي على تلك المناطق الاستوائية منظراً متنوعاً . وكانت أشجار جوز الطيب ذات الأوراق اللامعة تملأ الجو عطراً نفاذاً . وغابات الجزيرة ممتلئة بجماعات القردة النشطة المقطبة الوجوه . ومما لا ريب فيه أن الأدغال كانت آهلة بالنمور ولا عجب إذا علمنا أن مثل هذه الجزيرة الصغيرة نسبياً ، لم تفن بها الحيوانات المفترسة فناء تاماً ، فإن هذه الحيوانات تأتي إليها من جزيرة «ملقا» عابرة المضيق سباحة .

وبعد أن تجولت السيدة أوودا في الريف ساعتين ومعها رفيقها الذي كان ينظر قليلاً إلى ما حوله دون أدنى اهتمام ، عادت إلى المدينة التي تتكون من مجموعة كبيرة من المنازل الضخمة العتيقة ، تحيط بها حدائق فيحاء تنمو فيها أشجار «المانجوستة» والأناناس وأجود ما في الدنيا من فاكهة .

وفي العاشرة كانا عائدين إلى الباخرة ، يتبعهما مفتش الشرطة دون أن يخطر وجوده ببالهما .

وكان پاسپارتو ينتظرهما على سطح الباخرة رانجون . وقد اشترى الشاب الطيب بضع عشرات من ثمار «المانجوستة» وهي ثمار في حجم التفاح المتوسط لها لون بني قاتم من الخارج وأحمر زاه من الداخل . والجزء الذي يؤكل منها أبيض اللون ، يذوب في الفم فتحس له طعماً لذيذاً للغاية لا مثيل له . وكان پاسپارتو بادي السعادة ، وهو يقدم هذه الثمار للسيدة أوودا التي شكرته في كثير من الرقة .

وفي الحادية عشرة ، كانت الباخرة رانجون قد تزودت بكل ما يلزمها من الفحم ، فأقلعت . وبعد بضع ساعات لم يعد الركاب يرون جبال «ملقا» العالية التي تضم غاباتها أجمل نمور الأرض .

ويفصل ألف وثلاثمائة ميل تقريباً ميناء سنغافورة عن جزيرة هونج كونج ، وهو إقليم إنجليزي صغير مقتطع من الساحل الصيني . وكان يهم فيلياس فوج أن يعبر هذه المسافة في ستة أيام على الأكثر ، حتى يدرك في هونج كونج الباخرة التي سوف ترحل في اليوم السادس من نوفمبر قاصدة إلى يوكوهاما ، وهي أحد الموانئ اليابانية الرئيسة .

وكانت حموله الرانجون تعتبر حمولة زائدة ، فقد صعد إليها في سنغافورة عدد كبير من الركاب : منهم بعض الهندوس وأهالي سيلان ومنهم صينيون وقوم من الملايو ، وبرتغاليون ، شغل أكثرهم غرف الدرجة الثانية .

وتغير الجو مع الربع الأخير من القمر ، بعد أن كان لطيفاً حتى ذلك الأوان ، فارتفعت أمواج البحر ، وهبت الريح قوية أحياناً ، ولكنها كانت تأتي لحسن الحظ من الجهة الجنوبية الشرقية فتساعد على سير السفينة . وكان الربان يبسط الشراع كلما تيسر له ذلك . وكانت الرانجون مجهزة بحيث تستطيع كثيراً أن تسير بشراعيها المتوسطين . فتزداد سرعتها بتأثير البخار مضافاً إليه ضغط الريح . وبهذه الكيفية سارت محاذية سواحل آنام وكوشينشين على أمواج قصيرة ولكنها كانت متعبة أحياناً .

على أنه إذا كانت غالبية الركاب قد أصيبت بدوار البحر وتأثرت

صحتهم من هذه الرحلة ، فالسبب في ذلك يرجع إلى عيب في بناء السفينة ، لا إلى اضطراب البحر .

وكان هناك في الواقع عيب كبير في بناء البواخر التي تسيرها شركة شبه جزيرة الهند في بحار الصين : فالنسبة بين غاطس السفينة وتجويفها لم تحسب حساباً مضبوطاً . ونتيجة لذلك فإن هذه المقاييس لا تضمن للسفينة إلا مقاومة ضعيفة حين يضطرب البحر . ثم إن حجم فراغها المغلق الذي لا تدخله المياه كان غير كاف بالمرة ، فالسفينة تكون بذلك «غاطسة» كما يقال في لغة البحار . ونتيجة لهذا الوضع فإن القليل من الماء إذا أصاب سطح السفينة قلل من سرعتها . ولذلك فإن هذه السفن كانت أردأ نوعاً ، على الأقل من ناحية محركها وجهازها المولد للبخار ، من سفن شركة «الميساچيري» الفرنسية ، مثل «الإمبراطورة» و«الكامبودج» إذ إن هذه السفينة الأخيرة يمكنها ، كما يقدر المهندسون ، أن تحمل كمية من الماء يعادل وزنها وزن السفينة قبل أن تغطس . بينما لا تستطيع سفن شركة شبه جزيرة الهند «جولجوندا» و«كوريا» ثم «رانجون» أن تحمل ما يعادل سدس وزنها دون أن تغرق في اليم .

ولذلك فقد كان من الأفضل اتخاذ احتياطات شديدة كلما ساءت الأحوال الجوية . فيجب أحياناً تسيير السفينة ببخار ضعيف مع استعمال الشراع الرئيس الكبير . وكان في سير السفينة هكذا ببطء وصعوبة ضياع للوقت لم يعره فيلياس فوج على ما يبدو أي اهتمام . ولكن ظهرت على پاسپارتو علامات السخط ، فاتهم ربان السفينة ، والميكانيكي ، والشركة بالتقصير . وكان حانقاً على كل أولئك الذين اشتركوا في أعمال نقل الركاب . وربما ساهمت فكرة ذلك المصباح الغازي الذي استمر مشتعلاً على حسابه في منزل «ساڤيل رو» بقسط وافر من نفاد صبره .

وسأله المخبر ذات يوم قائلاً : «يبدو أنكم تتعجلون الوصول إلى هونج كونج ؟»

فأجاب پاسپارتو قائلاً : «نعم ، كل العجلة!»

– أتعتقد أن السيد فوج يتلهف على ركوب الباخرة القاصدة إلى يوكوهاما ؟

– لهفة شديدة .

– وعلى ذلك فأنت تؤمن الآن بحقيقة تلك الرحلة العجيبة حول العالم ؟

– إيماناً تاماً . وما رأيك أنت يا سيد فيكس ؟

– أنا ؟ إنني لا أصدقها .

فقال پاسپارتو وهو يغمز بعينيه : يا لك من مهذار .

وأحدثت هذه الكلمة مفعولها في المخبر فتركته ساهماً . وشغل هذا الوصف باله دون أن يعرف لذلك سبباً . فهل حزر الفرنسي شخصيته ؟ إنه لا يستطيع التحقق من هذا . ثم كيف يستطيع پاسپارتو أن يتعرف على شخصيته كمخبر ، تلك الصفة التي لم يعرف سرها أحد سواه ؟ ومع ذلك فلا بد من أن پاسپارتو كان يخفي عنه فكرة معينة ، ما دام قد حدثه بهذه الصورة .

وفضلاً عن ذلك ، فقد حدث في يوم آخر أن تمادى الشاب السليم الطوية في دعابته التي تمكنت منه هذه المرة فلم يستطع أن يمسك لسانه عن الكلام ، وسأل رفيقه قائلاً بلهجة خبيثة : «يا سيد فيكس ، هل سيكون من سوء حظنا أن نفترق عنك في هونج كونج فنتركك فيها ؟»

فأجاب فيكس وقد ارتبك كثيراً : «ولكني لا أعرف ، ربما إذا . . .»

فقال پاسپارتو : «آه! إنه يسعدني للغاية أن ترافقنا بعد هونج كونج! نعم إن مندوباً لشركة شبه جزيرة الهند مثلك لا يستطيع أن يتوقف في الطريق . إنك لم تكن مسافراً لأبعد من بومباي ، ومع ذلك فهاأنت ذا في طريقك إلى الصين ، وستكون فيها عما قريب . ثم إن أميركا ليست ببعيدة ، وأوربا لا تبعد كثيراً عن أمريكا ، إنها على بعد خطوة واحدة منها» .

ونظر فيكس بإمعان إلى محدثه الذي بدا له لطيف المحيا . فقر عزمه على أن يشاركه الضحك . وسأله پاسپارتو ، الذي لازمه التوفيق في ذلك اليوم ، عما إذا كانت مهنته تلك تدر عليه ربحاً وفيراً . فأجاب فيكس دون أن يضطرب : «نعم ، ولا ، فهناك أعمال ناجحة وأخرى فاشلة . ولكن تأكد أنني لا أنفق في تنقلاتي شيئاً من مالي الخاص» .

فأجاب پاسپارتو وهو يضحك أكثر من قبل : «أوه إنني واثق من ذلك كل الثقة» .

ولما انتهى الحديث ، عاد فيكس إلى غرفته وأخذ يفكر . لقد انكشف أمره فيما يبدو . وعرف الفرنسي صفته كمخبر ، عرفها بوسيلة ما ولكن هل أخطر بذلك سيده ؟ وما هو الدور الذي كان يلعبه في كل هذا الموضوع ؟ هل كان شريكاً لسيده أم لم يكن له شريكاً ؟ وهل انكشفت خطته ، فتكون بذلك قد باءت بالفشل ؟ وأمضى المخبر في هذا التفكير ساعات مريرة . فكان يعتقد حيناً أنه قد فقد كل رجاء ، ثم يحدوه الأمل في أن يكون السيد فوج جاهلاً تماماً هذا الموقف ، ولم يتوصل إلى رسم أي خطة يتبعها ، ومع ذلك فقد أخذ الهدوء يتسرب إلى تفكيره المضطرب ، وعزم على أن يكون صريحاً مع پاسپارتو ، فإذا لم تكن الظروف مواتية للقبض على فوج في هونج كونج ، واستعد هذا الأخير لمغادرة الإقليم الإنجليزي نهائياً هذه المرة ، فإنه ، أي فيكس ، سوف يبوح بالحقيقة كلها لپاسپارتو . فإن كان پاسپارتو شريكاً لسيده ، وكان سيده يعلم كل شيء ، فإن القضية تكون في هذه الحالة خاسرة نهائياً . وإذا لم يكن للخادم أي يد في السرقة ، فإن من مصلحته أن يتخلى عن سيده السارق .

كان هذا هو موقف الرجلين ، يعلو عليهما فيلياس فوج وهو في برجه العاجي ، يتم دورته الفلكية حول العالم دون أن يبالي بالشهب التي كانت تحوم حوله . ومع ذلك فقد كان إلى جواره نجم مضطرب ، على حد تعبير علماء الفلك ، كان يمكن أن يحدث بعض الاضطراب في قلبه .

ولكن لا! إن سحر السيدة أوودا لم يحدث أي أثر في قلبه ، مما أدهش پاسپارتو كثيراً . وإن كانت هناك اضطرابات ، أثارها في قلب فوج جمال السيدة أوودا الفتان ، فإن تقديرها كان أشق من تقدير الاضطرابات التي حدثت في النجم « أورانوس » فأدت إلى اكتشاف النجم « نبتون » .

نعم! كان هذا الأمر يبعث الدهشة كل يوم في نفس پاسپارتو الذي كان يطالع في عيني الشابة آيات الاعتراف بجميل سيده! ولم يكن في قلب فيلياس فوج من العاطفة إلا ما يجعله يسلك مسلك الشهامة والبطولة ، أما أن يكون في قلبه مكان للحب ، فلا! وأما مشاغل تلك الرحلة فلم يكن لها أي أثر في نفسه .

كان پاسپارتو يعيش في قلق مستمر . وذات يوم بينما كان متكئاً على حاجز غرفة الآلات ، ينظر إلى الآلة القوية التي كانت تثور وتفور ، اهتزت الباخرة في حركة طويلة عنيفة ، فاضطرب الرفاص فوق الأمواج ، وانطلق البخار من الصمامات مما أثار غضب الفتى الهمام . فصاح قائلاً : « إن هذه الصمامات لا تقوم بعملها كما يجب! إننا لا نكاد نسير! يا لخيبة هؤلاء الإنجليز! آه! لو كانت هذه سفينة أمريكية فإنها ربما قفزت فوق سطح الماء ، ولكنها لابد من أن تسير أسرع من ذلك! »

١٨

فيلياس فوج وپاسپارتو وفيكس

يمضي كل منهم إلى سبيله

وفي الأيام الأخيرة للرحلة اكفهر الجو ، واشتدت الريح التي أخذت تهب هبوباً متواصلاً من ناحية الشمال الغربي ، فكانت تعرقل سير السفينة وكانت الرانجون ، وهي سفينة قليلة الثبات ، تتأرجح بشدة . وأظهر الركاب ، وهم على حق ، سخطهم على تلك الأمواج المستطيلة التي كانت تثيرها الرياح فتزهق الأرواح . وفي خلال اليومين الثالث والرابع من نوفمبر كان الجو عاصفاً ، وكانت الزوابع تلطم مياه البحر بعنف . واضطرت الرانجون إلى طي معظم شراعاتها نصف يوم كامل ، وسارت معتمدة على ست دورات فقط من رفاصاتها ، منحرفة فوق الأمواج ، ثم طوت كل الشراعات ، ومع ذلك فقد كان الكثير من عتادها يصفر بفعل الرياح العاصفة .

ونفهم من ذلك أن سرعة الباخرة قد انخفضت بدرجة كبيرة ، وقدر وفقاً لذلك أنها سوف تصل إلى هونج كونج متأخرة عشرين ساعة عن موعدها المحدد ، أو مدة أطول من ذلك إذا لم تتوقف العواصف .

وشاهد فيلياس فوج هذا المنظر ، منظر البحر الثائر الذي بدا وكأنه يصارعه هو نفسه . ومع ذلك فقد كان يحتفظ بهدوئه ورباطة جأشه العاديين . ولم يتجهم وجهه لحظة واحدة ، على الرغم من أن تأخير

عشرين ساعة كان يمكن أن يعرض رحلته للخسارة ، إذ يفوته اللحاق بالباخرة التي سوف تبحر إلى يوكوهاما . إلا أن هذا الإنسان الهادئ الأعصاب لم يكن يشعر بأي قلق أو ضيق . فقد كانت العاصفة تبدو وكأنها عنصر مدون في منهاجه ، وأنه قد توقعها وأعد عدته لها . ولاحظت السيدة أوودا ، التي كانت تتحدث إليه عن تلك العواقب ، أنه ما زال على هدوئه السابق . أما فيكس فإنه كان ينظر إلى هذه الأمور بعين أخرى . فقد كان على العكس من ذلك مسروراً لهبوب العاصفة . وقد يغدو سروره مفرطاً إذا اضطرت الباخرة إلى الفرار أمام هذا الإعصار . وكان كل هذا التأخير في مصلحته ، لأنه سوف يجبر فوج على البقاء بضعة أيام أخرى في هونج كونج . واكفهرت السماء ، مشتركة في المعركة مع العواصف والزوابع . وتوعكت صحة فيكس . ولكن ذلك كله لم يكن على جانب كبير من الأهمية : إنه لم يعد يبالي بما يصيبه من الغثيان . وكان كلما تلوى جسمه ألماً من دوار البحر ، اهتزت نفسه فرحاً واغتباطاً .

أما پاسپارتو ، فإن المرء يدرك في يسر مقدار الغيظ الذي استبد به ولم يستطع له كتماناً ، وهو يمر بهذه المحنة . فقد كانت الأمور تجري حتى ذلك الوقت على أحسن حال! وكأن الأرض والماء في خدمة سيده . وكانت السفن البخارية والقطر الحديدية طوع أمره . وخيل إليه أن الريح والبخار قد تعاهدا على تيسير رحلته . فهل دقت ساعة الكوارث والمتاعب ؟ وفقد پاسپارتو مرحه وحيويته كما لو كانت العشرين ألف جنيه ، وهي قيمة الرهان ، قد خرجت من حافظة نقوده هو . وأغاظته تلك الرياح العاصفة وجعلته يثور ، وود لو ضرب ذلك البحر المتمرد بالسياط ، إن استطاع إلى ذلك سبيلا . فياللشاب المسكين! لقد أخفى عنه فيكس بكل حرص ما كان يشعر به من رضا ، وحسناً فعل ، فلو أدرك پاسپارتو سر رضاء فيكس ، لما تركه يهنأ به لحظة واحدة .

وبقي پاسپارتو على سطح السفينة رانجون طول المدة التي كان يهب فيها الإعصار . ولم يكن ليستطيع البقاء في أسفل السفينة ، بل

أخذ يتسلق الصواري ، ويدهش بحركاته طاقم السفينة ، ويقدم كل ما يستطيعه من مساعدات في خفة القرود . وألقى الكثير من الأسئلة على الربان وعلى الضباط والبحارة الذين لم يستطيعوا أن يمسكوا أنفسهم عن الضحك عند رؤيتهم هذا الشاب المرتبك . وكان پاسپارتو يريد أن يعرف حتماً الوقت الذي سوف تستغرقه العاصفة . فأحاله البعض عندئذ إلى البارومتر الذي رفض أن يرتفع ثانية . وهز پاسپارتو في يده البارومتر ، ولم يفده ذلك شيئاً ، فلم تؤثر الهزات والشتائم في ذلك الجهاز غير المسؤول .

وأخيراً هدأت العاصفة ، وتحسنت حالة البحر في اليوم الرابع من نوفمبر ، وأصبحت الريح ملائمة من جديد . وهدأ پاسپارتو مع هدوء الجو . وأمكن بسط الشراعات العلياو السفلى . وانطلقت الرانجون في طريقها بسرعة كبيرة . على أنه لم يكن من المستطاع تدارك الوقت الذي فات . وكان لابد من قبول ما كان . ولم تظهر الأرض إلا في الخامسة من صباح اليوم السادس . وكانت خطة فيلياس فوج تقدر وصول الباخرة في اليوم الخامس ، ولكنها لم تصل إلا في اليوم السادس ، فتكون قد تأخرت عن موعدها أربعاً وعشرين ساعة . وكان من المؤكد فوات فرصة اللحاق بالباخرة القاصدة إلى يوكوهاما . وفي السادسة صعد المرشد إلى سطح الرانجون واتخذ مكانه على القنطرة ليقود السفينة من خلال الممرات المائية حتى ميناء هونج كونج .

وكان پاسپارتو يتحرق شوقاً لاستجواب ذلك المرشد وسؤاله عما إذا كانت الباخرة القاصدة إلى يوكوهاما قد برحت هونج كونج أم لم تبرحه . ولكنه لم يجرؤ على القيام بهذا الاستجواب ، مفضلاً أن يحتفظ في نفسه حتى آخر لحظة ، بشيء من الأمل . وقد أفضى لفيكس بما يقلقه ، وهو ذلك الثعلب الماكر ، الذي حاول أن يطيب خاطره ، فقال له إن السيد فوج سوف يحل هذه المشكلة فيستقل الباخرة التالية ، مما جعل پاسپارتو يستشيط غيظاً . على أنه إذا لم يتجرأ پاسپارتو على سؤال المرشد ، فإن السيد فوج ، بعد أن قرأ دليل « برادشو » ، سأل

المرشد المذكور ، في هدوئه المعهود ، عما إذا كان يعرف الوقت الذي تبحر فيه باخرة من هونج كونج قاصدة يوكوهاما .

فأجاب المرشد : « غداً صباحاً ، مع ارتفاع المد » .

فقال السيد فوج من غير أن تبدو عليه أية دهشة : آه!

وود پاسپارتو الذي كان حاضراً هذا الحديث لو استطاع أن يقبل المرشد . أما فيكس فكان يود أن يكسر عنقه .

وسأل السيد فوج . « ما اسم تلك الباخرة ؟ »

فأجاب الدليل : « لوكارناتيك »

– ألم تكن مبحرة بالأمس ؟

– نعم يا سيدي ، وإنما كان من الضروري إصلاح فرن من أفرانها ، وبذلك تأجل رحيلها إلى الغد .

فأجاب السيد فوج : « أشكرك » . ثم نزل بخطوته الآلية الرتيبة إلى قاعة الجلوس في الرانجون .

أما پاسپارتو فإنه أمسك بيد المرشد وشد عليها بقوة قائلاً له : « يا لك من رجل طيب القلب أيها المرشد! »

ولم يدرك المرشد بطبيعة الحال السبب في هذه العواطف الطيبة . وارتفع صوت صفارة الباخرة ، فصعد المرشد إلى القنطرة وقام بقيادة الباخرة وسط أسطول من المراكب الشراعية الصينية ومراكب الصيد وغيرها من المراكب التي كانت تزدحم في مضايق هونج كونج . وبعد ساعة كانت الرانجون قد رست على رصيف الميناء ونزل منها الركاب .

ويجب الاعتراف بأن المصادفة ، في هذه الظروف ، قد خدمت فيلياس فوج بشكل غريب . فإذا لم تكن الباخرة « لوكارناتيك » قد اضطرت إلى إصلاح أفرانها فإنها كانت ولابد قد رحلت في اليوم الخامس . وكان على المسافرين القاصدين إلى اليابان أن ينتظروا ثمانية أيام حتى قيام الباخرة التالية لها . وكان السيد فوج متأخراً في الواقع أربعاً وعشرين ساعة . إلا أن هذا التأخير لم يكن له عواقب وخيمة على ما بقي من الرحلة .

والواقع أن الباخرة التي تعبر المحيط الهادي من يوكوهاما إلى سان فرنسيسكو كانت على اتصال مباشر بالباخرة القادمة من هونج كونج ، فلا تستطيع الإبحار قبل وصول الأخيرة إلى يوكوهاما . وبالطبع سيتأخر إبحارها من يوكوهاما بمقدار أربع وعشرين ساعة ، على أنه يمكن تعويض هذا التأخير بسهولة خلال الاثنين وعشرين يوماً التي تستغرقها الرحلة عبر المحيط الهادي . وعلى ذلك يكون فيلياس فوج متأخراً بمقدار أربع وعشرين ساعة تقريباً عن موعده المحدد في خطة رحلته ، وذلك بعد أن انقضى خمسة وثلاثون يوماً على مغادرته لندن .

ولما لم تكن الباخرة لوكارناتيك مبحرة إلا في الخامسة من صباح اليوم التالي ، فقد كان أمام السيد فوج ست عشرة ساعة يقضي فيها شؤونه ، أي الشؤون التي تخص السيدة أوودا . وعندما رست السفينة قدم ذراعه إلى الشابة وصحبها إلى هودج ، وطلب إلى الحمالين أن يرشدوه إلى فندق ، فأشاروا عليه بالذهاب إلى « فندق النادي » . وانطلق بهما الهودج ، يتبعه پاسپارتو . وبعد عشرين دقيقة وصل إلى الفندق . فحجز فوج جناحاً للمرأة الشابة ، واهتم بإعداد كل ما يلزمها . ثم قال لها إنه سوف يقوم في الحال بالبحث عن ذلك القريب الذي سوف يتركها في رعايته في هونج كونج . وأعطى في الوقت نفسه أمراً إلى پاسپارتو بأن يظل في الفندق حتى يعود ، فلا يترك المرأة وحدها فيه .

وتوجه السيد فوج إلى دار « البورصة » حيث كان يتوقع أن يجد من يعرف شخصية السيد « جيجي » الذي كان يعد من أغنى تجار المدينة .

وكان السمسار الذي قصد السيد فوج رؤيته يعرف في الواقع التاجر الپارسي . على أن هذا التاجر كان قد غادر هونج كونج منذ سنتين فلم يعد مقيماً فيها ، فإنه قد جمع فيها ثروة طائلة ، وارتحل إلى أوربا ليستقر فيها ، في هولندا على ما يعتقد البعض ، ويستدلون على ذلك بالعلاقات العديدة التي كانت تربطه بذلك القطر خلال مزاولته نشاطه التجاري .

وعاد فيلياس فوج إلى فندي «النادي» ، والتمس في الحال مقابلة السيدة أوودا ، وأخبرها أن السيد جيجي لم يعد يقيم في «هونج كونج» وأنه يقيم في الغالب في هولندا .

ولم تجب السيدة أوودا على ذلك بشيء في بادئ الأمر . ومرت بيدها على جبهتها . وظلت بضع لحظات تفكر . ثم قالت بصوتها الرقيق :

«وماذا أعمل إذن يا سيد فوج ؟»

فأجاب السيد الفاضل : «المسألة في منتهى البساطة ، تذهبين إلى أورپا»

– ولكن لا أستطيع أن أستغل . . .

– إنك لا تستغلين شيئاً ، وجودك معي لا يعطل خطتي في شيء . أي پاسپارتو!

فأجاب پاسپارتو : «نعم يا سيدي» .

– اذهب إلى الباخرة «لوكارناتيك» واحجز فيها ثلاث غرف .

وغادر پاسپارتو الفندق في الحال . وقد سره أن يواصل رحلته في صحبة الشابة التي كان يراها رائعة الحسن ، فاتنة الجمال .

١٩

پاسپارتو يرعى شؤون سيده

ولم تكن هونج كونج إلا جزيرة صغيرة ، جاءت معاهدة «نانكينج» المبرمة بعد حرب عام ١٨٤٢ فدعمت ملكية انجلترا لها .

وفي بضع سنوات تجلت العبقرية الاستعمارية فشيدت فيها مدينة عظيمة وأنشأت ميناء هاما ، هو ميناء ڤيكتوريا . وتقع هذه المدينة على مصب نهر « كانتون » ، ويفصلها ستون ميلاً فقط عن مدينة «ماكاو» البرتغالية القائمة على الضفة المقابلة للنهر . إلا أنه كان لابد أن تتفوق هونج كونج على «ماكاو» في الميدان التجاري ، وأصبح الجزء الأكبر من البضائع الصينية يمر الآن في المدينة الإنجليزية . وإن وجود مخازن البضائع والمستشفيات وأرصفة السفن ومستودعات الجمارك ، وكنيسة من الطراز القوطي ، ودار للحكومة ، وشوارع معبدة ومرصوفة ، ليبعث على الاعتقاد بأن إحدى مدن ولايات « كنت » أو «سيري» التجارية قد انتقلت من مكانها ودارت حول الكرة الأرضية حتى استقرت في تلك البقعة من الإقليم الصيني ، في نقطة تقابل مكانها الأصلي على الوجه الآخر من الكرة الأرضية .

وتوجه پاسپارتو ، ويداه في جيوبه ، إلى ميناء ڤيكتوريا ، وأخذ يتأمل الهوادج وعربات الشراعات ، التي ما زالت شائعة الاستعمال في

الإمبراطورية الصينية ، ويشاهد كل ذلك الحشد من الصينيين واليابانيين والأوربيين الذين كانوا يتدافعون بالمناكب في الشوارع . وكان كل هذا يذكر الشاب الطيب بمدينة بومباي أو كلكتا أو سنغافورة التي مر بها في طريقه ، وكأنما كانت هناك سلسلة من المدن الإنجليزية تحيط بالعالم .

ووصل پاسپارتو إلى ميناء ڤيكتوريا . وهناك عند مصب نهر « كانتون » وجد حشداً كبيراً من السفن من مختلف الجنسيات ، منها سفن إنجليزية وفرنسية وأميركية وهولندية ، ومنها سفن حربية وأخرى تجارية ، ومراكب يابانية أو صينية ، ثم قوارب لنقل الزهور ، تبدو كأنها حدائق غناء طافية فوق سطح الماء . ولاحظ پاسپارتو عدداً من الأهالي مرتدين ملابس صفراء ، وكلهم من الشيوخ . وحينما دخل حانوت حلاق صيني ، ليحلق ذقنه على الطريقة الصينية ، علم من الحلاق الذي كان يحسن التحدث بالإنكليزية ، أن هؤلاء الشيوخ تزيد سن كل منهم على الثمانين عاماً ، ولذلك كان لهم الحق في ارتداء هذا الزي الأصفر ، وهو اللون الإمبراطوري . ووجد پاسپارتو هذا الأمر غريباً للغاية ، ولم يعرف له سبباً .

وما أن انتهى من حلاقة ذقنه ، حتى توجه إلى الرصيف الذي رست عنده الباخرة « لوكارناتيك » . وهناك لمح فيكس يذرع الرصيف طولاً وعرضاً ، فلم يدهش من ذلك . إلا أن مفتش الشرطة كان تبدو على وجهه علامات خيبة الأمل الشديدة .

فقال پاسپارتو لنفسه : « حسناً! هذا فأل سيّىء للسادة أعضاء نادي الريفورم » ودنا من فيكس مبتسماً في مرح ، متجاهلاً أمارات الغضب البادية على وجهه .

وكان لدى الشرطي من الأسباب القوية ما يدعوه إلى أن يصب جام غضبه ، وينزل لعناته على ذلك الحظ الجهنمي العاثر الذي كان يلازمه . فإن أمر القبض لم يصله حتى الآن! والواقع أن الأمر المذكور كان يجري في أعقابه ، وهو لن يلحقه إلا إذا أقام بضعة أيام في هذه المدينة . ولما كانت هونج كونج آخر أرض إنجليزية في هذه الرحلة ، فإن السيد فوج سوف يفلت منه إلى الأبد إذا لم ينجح في حجزه فيها .

وسأله پاسپارتو : حسناً يا سيد فيكس . هل عزمت على المجيء معنا إلى أميركا ؟ »

فأجاب فيكس وقد صر على أسنانه : « نعم » .

فقهقه پاسپارتو ضاحكاً وقال « هيا ، هيا ، كنت واثقاً أنك لن تستطيع أن تفارقنا . تعال واحجز مكانك . تعال! »

ودخل الاثنان إلى مكتب النقل البحري وحجزا غرفاً لأربعة أشخاص . ولكن المستخدم أخبرهم أن الإصلاحات اللازمة للباخرة « لوكارناتيك » قد تمت ، ولذلك فإنها سوف تبحر في الثامنة من مساء اليوم نفسه ، وليس في صباح اليوم التالي ، كما أذيع من قبل .

فأجاب پاسپارتو : « هذا حسن للغاية! إن هذا الأمر في صالح سيدي وسأذهب لإحضاره » .

وفي تلك اللحظة اتخذ فيكس في نفسه قراراً متطرفاً . فقد عزم على أن يبوح بكل شيء إلى پاسپارتو ، فربما كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لحجزه بضعة أيام أخرى في هونج كونج . وعند مغادرتهم المكتب عرض فيكس على رفيقه أن يتناول معه شراباً منعشاً في حانة . وكان أمام پاسپارتو فسحة من الوقت فقبل الدعوة .

وكانت هناك حانة قريبة من رصيف الميناء ذات مظهر جذاب . فدخلها الاثنان . وكانت الحانة عبارة عن قاعة فسيحة مزخرفة ، بسط داخلها فراش كبير مزود بالوسائد . وكان عدد من النائمين مستلقين على هذا الفراش .

وجلس ما يقرب من الثلاثين شخصاً إلى موائد صغيرة من الخيزران المجدول مصفوفة في القاعة الكبيرة . وكان بعضهم يتجرع كؤوساً من الجعة الإنجليزية أو من شراب « الإيل » أو « البورتو » ، وآخرون يحتسون أنواعاً أخرى من المشروبات الكحولية ، كالجن والبراندي . وفضلاً عن ذلك فإن أغلب الموجودين كانوا يدخنون في أنابيب طويلة من الفخار الأحمر محشوة بكرات صغيرة من الأفيون المعطر بروح الورد . وكان بعض المدخنين الذين وهنت قواهم ينزلقون من وقت إلى

آخر تحت النضد فيأتي إليهم خدم الحانة ويحملونهم من أقدامهم ورؤوسهم ويضعونهم على الفراش الكبير بالقرب من بعض الزبائن النائمين . فكان ما يقرب من عشرين شخصاً من أولئك السكارى يرقدون متجاورين ، وهم في أقصى درجات التخدير .

وأدرك فيكس وپاسپارتو أنهما قد دخلا إحدى (الغرز) التي يتردد عليها أولئك البائسون البلهاء هزيلو الأجسام ، الذين يبيع لهم الإنجليز سنوياً ما يقدر بمائتين وستين مليوناً من الفرنكات من ذلك المخدر المهلك المسمى بالأفيون . فيا للملايين اللعينة التي يربحها الإنجليز من آفة من أسوأ الآفات التي تحل بالطبيعة البشرية .

وقد حاولت الحكومة الصينية أن تعالج هذا الوباء فسنت قوانين صارمة ، ولكنها كانت قوانين لا جدوى لها . وانتقلت عادة تعاطي الأفيون من طبقة الأثرياء ، التي كانت في بادئ الأمر تستأثر بها ، إلى الطبقات الدنيا . ولم يعد بعد ذلك في الإمكان وقف انتشار الوباء ، وأصبح الناس يتعاطون الأفيون في كل مكان وبخاصة في الأقاليم الوسطى للإمبراطورية الصينية . وينغمس الرجال والنساء في تلك النزوة الوخيمة . وهم إذ تتمكن منهم عادة استنشاق المخدر ، لا يستطيعون منها خلاصاً إلا بتحمل آلام فظيعة تنتج من تقلصات شديدة في المعدة . ويستطيع المدمن العريق في الإدمان أن يدخن عدداً من الأنابيب قد يبلغ الثمانية في اليوم الواحد . ولكنه يموت حتماً في ظرف خمس سنوات . وفي حانة من هذه الحانات العديدة المنتشرة حتى في مدينة هونج كونج ، دخل فيكس وپاسپارتو ليتناولوا ما ينعشهم من الشراب ولم يكن مع پاسپارتو أي نقود ، ولكنه تقبل ما أبداه له رفيقه من مجاملة ، على أن يسدد دينه في الزمان والمكان المناسبين .

وطلبا زجاجتين من شراب «البورتو» ، وأقبل الفرنسي على تعاطيهما بلهفة وشهية ، بينما التزم فيكس جانب التحفظ وأخذ يتأمل رفيقه بانتباه . وتحدثا في مواضيع شتى ، وخاصة في تلك الفكرة الجميلة التي واتت فيكس ، فكرة السفر على ظهر الباخرة «لوكارناتيك» . ثم

تحدثا عن هذه الباخرة وعن تقديم موعد رحيلها بضع ساعات . ولما أفرغ پاسپارتو في جوفه الزجاجتين ، نهض متأهباً للانصراف لإخطار سيده بتغيير الموعد فاستوقفه فيكس قائلاً : «لحظة واحدة» .

– ماذا تريد يا مستر فيكس ؟

– أريد أن أفشي لك أسراراً خطيرة .

فصاح پاسپارتو ، وهو يفرغ في فمه بضع قطرات من النبيذ باقية في قاع كأسه : «أمور خطيرة! حسناً ، سوف نتكلم عنها غداً . أما اليوم فلم يعد عندي وقت للحديث» .

فأجاب فيكس : ابق ، إن المسألة تتعلق بسيدك!

وعندما سمع پاسپارتو هذه العبارة نظر إلى محدثه باهتمام ، وبانت الدهشة على وجهه ، وعاد إلى الجلوس .

وسأله : ما الذي تريد أن تحدثني عنه ؟

ووضع فيكس يده على ذراع رفيقه ، وسأله وقد خفض صوته : «هل عرفت إذن من أكون ؟»

فقال پاسپارتو مبتسماً : «طبعاً!»

– إذن فسأعترف لك بكل شيء .

– أتعترف الآن يا رفيقي العزيز بعد أن علمت أنا كل شيء! آه! لم يعد للأمر الآن أية أهمية! ومع ذلك فقل ما تريد . إنما اسمح لي أولاً أن أقول لك إن هؤلاء السادة قد كلفوا أنفسهم نفقات باهظة بلا جدوى!

فقال فيكس : «بلا جدوى ؟ على رسلك يا هذا ، إنك تجهل حتماً قيمة المبلغ!»

فأجاب پاسپارتو : «كلا ، بل إني أعرفها ، إن المبلغ يقدر بعشرين ألف جنيه» .

فأجاب فيكس وهو يشد على يد الفرنسي «إنه خمسون ألف جنيه!»

فصاح پاسپارتو : «ماذا! هل وصلت الجرأة بالسيد فوج إلى هذا الحد ؟ . . . خمسون ألف جنيه ؟ حسن! هذا سبب وجيه آخر يدعو إلى الإسراع وعدم إضاعة دقيقة واحدة» .

قال ذلك وقد نهض ثانية .

فاستطرد فيكس الذي دفع پاسپارتو إلى الجلوس ثانية بعد أن أتى له بزجاجة أخرى من البراندي : «نعم ، خمسون ألف جنيه! . . وإذا نجحت في مهمتي فسوف أنال مكافأة قدرها ألفا جنيه . فهل تريد الحصول على خمسمائة جنيه نظير مساعدتي ؟

فصاح پاسپارتو وقد اتسعت عيناه اتساعاً كبيراً .

– مساعدتك ؟

– نعم ، مساعدتي في حجز السيد فوج بضعة أيام أخرى في هونج كونج!

فقال پاسپارتو : بديع! وماذا تقصد بذلك ؟ ألم يكف هؤلاء السادة أن يبعثوا من يقتفي أثر سيدي ، وأن يشكوا في أمانته ، بل أرادوا أيضاً أن يقيموا في وجهه العقبات ، إنني في خجل من أمرهم » .

فسأله فيكس « آه! ماذا تعني ؟ »

– أقول إن تصرفهم هذا غير مهذب بالمرة ، يتساوى في ذلك أن يجردوا السيد فوج مما يملك وأن يستولوا على ما في جيبه من مال .

– أي نعم . إن هذا هو ما نقصده فعلاً .

فصاح پاسپارتو الذي بدأ ينفعل تحت تأثير البراندي الذي كان يسقيه إياه فيكس ، والذي كان يشربه دون وعي : «ولكن هذه مكيدة إنها مكيدة حقيقية! يا لهم من زملاء أفاضل! »

ولم يعد فيكس يفهم شيئاً من كلام محدثه .

وصاح پاسپارتو : «نعم ، إنهم زملاؤه ، أعضاء نادي الريفورم! إعلم يا مستر فيكس أن سيدي رجل أمين ، وأنه إذا عقد رهاناً فإنه إنما يبغي من ورائه الربح الشريف » .

فسأل فيكس وهو يمعن النظر في پاسپارتو : «ولكن من تظنني إذن ؟ »

– يا لله! إنك من أعضاء نادي الريفورم ، كلفت بمتابعة رحلة سيدي ، وهذا عمل مهين للغاية! ومع أنني قد حزرت صفتك هذه منذ وقت طويل ، لكنني اجتهدت ألا أبوح بأمرها إلى السيد فوج .

فسأله فيكس بلهفة : « إذن فهو لا يعلم شيئاً عني ؟ »

فأجاب پاسپارتو وهو يفرغ كأسه مرة أخرى في جوفه « لا شيء بالمرة » .

ومر مفتش الشرطة بيده على جبهته . وتردد قبل أن يواصل الحديث . فماذا يجب عليه أن يفعله ؟ إن الخطأ الذي وقع فيه پاسپارتو خطأ ظاهره بريء ، ولكنه يجعل خطته صعبة التنفيذ . وكان واضحاً أن هذا الشاب يتكلم بإخلاص وبطوية سليمة ، وأنه لم يكن شريكاً لسيده في جريمته ، الأمر الذي كان يخشاه فيكس . فقال في نفسه : « حسناً ، يجب عليه أن يساعدني مادام أنه لم يكن شريكاً للص » .

ولثاني مرة قرر المفتش في نفسه أمراً . ولم يكن لديه متسع من الوقت للانتظار ، فقد كان من الضروري أن يقبض على فوج في هونج كونج مهما كلفه الأمر .

وقال فيكس بلهجة مقتضبة : «اسمع . . اسمعني جيداً ، إنني لست من تظن . . . أي لست مندوباً من أعضاء نادي الريفورم » .

فقال پاسپارتو وهو ينظر إليه نظرة ساخرة : « إليك عني! »

– إنني مفتش شرطة ، عهدت إليّ الإدارة المركزية بمأمورية خاصة . . .

– أنت . . أنت مفتش شرطة! . .

فاستمر فيكس قائلاً : «نعم ، وأستطيع أن أثبت لك ذلك ، ها هو أمر التكليف » .

وأخرج ورقة من حافظته ، وأراها لرفيقه ، فإذا بها أمر موقع عليه من مدير الشرطة المركزية . وذهل پاسپارتو ، وأخذ يمعن النظر في فيكس وهو لا يستطيع أن ينطق حرفاً واحداً .

واستطرد فيكس يقول : «إن رهان فوج هذا ما هو إلا خدعة وقعتم ضحيتها ، أنت وزملاؤه في نادي الريفورم . فقد كانت مصلحته في أن يشرككم معه في جريمته دون علم منكم » .

فصاح پاسپارتو : «ولكن لماذا ؟ . . . »

– اسمع . في الثامن والعشرين من سبتمبر الماضي ، سرق مبلغ خمسة وخمسين ألف جنيه من بنك إنجلترا . وكان السارق شخصاً أمكن التعرف على أوصافه . وإليك هذه الأوصاف ، وهي تنطبق ، بجميع تفاصيلها على أوصاف المدعو فوج .

فصاح پاسپارتو ، وهو يضرب المائدة بقبضه يده القويه : دع عنك هذا القول ، إن سيدي أشرف إنسان على وجه الأرض! »

فأجاب فيكس : « ماذا تعرف عنه! إنك لا تعرف حتى شخصيته! لقد التحقت بخدمته يوم رحيله ، ثم سافر في عجلة منتحلاً عذراً واهياً غير معقول ولم يحمل معه حقائب ، بل حمل رزمة كبيرة من الأوراق المالية! ومع ذلك فأنت تجرؤ على التأكيد بأنه رجل شريف! »

فكرر الشاب المسكين القول بشكل آلي : « نعم ، نعم! »

– هل تريد إذن أن يقبض عليك بوصفك شريكاً له في الجريمة ؟

وأمسك پاسپارتو رأسه بيديه وانقلبت سحنته فلم يعد في الإمكان التعرف عليه . ولم يعد يجرؤ على النظر إلى مفتش الشرطة . فهل يمكن أن يكون فيلياس فوج لصاً ، وهو الذي أنقذ أوودا ، وهو الرجل الكريم الشجاع! ومع ذلك فقد كانت كل القرائن ضده! ولم يقبل پاسپارتو أن يصدق مع ذلك أن سيده مذنب .

وقال لمفتش الشرطة بعد أن تمالك نفسه بجهد كبير : « وأخيراً ، فماذا تريد مني أن أفعله ؟ »

فأجاب فيكس : « إليك ما أريده منك . لقد اقتفيت أثره حتى هذا المكان ، ولكني لم أتسلم إلى الآن أمر القبض عليه ، ذلك الأمر الذي طلبت من لندن أن ترسله إلي . فيجب عليك إذن أن تساعدني في حجزه في هونج كونج .

– تطلب مني أنا أن . . .

– فإذا فعلت فإني أتقاسم معك المكافأة التي قررها بنك إنجلترا وقدرها ألفا جنيه .

فأجاب پاسپارتو : « لن أفعل ذلك أبداً! »

وأراد أن ينهض ولكنه سقط ثانية ، وهو يشعر بانهيار قواه العقلية والجسمية . فتمتم قائلاً : « يا سيد فيكس ، مهما كانت صحة ما قلته لي الآن . . . وحتى لو كان سيدي حقيقة ذلك اللص الذي تبحث عنه . . . وهو ما أنكره ، فإنني ما زلت في خدمته . . . لقد شهدته رجلاً طيباً وكريماً . . . فلن أخونه أبداً . . . لا . . . لن أخونه ولو أعطيت ذهب العالم كله . . .

– أترفض إذن ؟ . . .

– نعم أرفض .

فأجاب فيكس : « فلنعتبر إذن أنني لم أقل شيئاً ولنشرب! »

– نعم ، لنشرب!

وشعر پاسپارتو بوطأة الخمر تثقل رأسه شيئاً فشيئاً . ولما كان فيكس يعلم أنه يجب عليه أن يبعده عن سيده بأي ثمن ، فإنه عزم على أن يفقده كل حواسه وكانت على المائدة بضعة أنابيب معبأة بالأفيون ، فدس إحداها في يد پاسپارتو الذي أمسكها في الحال ورفعها إلى شفتيه ، ثم أشعلها واستنشق بضعة أنفاس ، سقط بعدها ، وقد ثقلت رأسه بفعل المخدر .

فقال فيكس : « وأخيراً فإن السيد فوج لن يخطر في الوقت المناسب برحيل الباخرة لوكارناتيك في الصباح المبكر . وحتى لو استطاع أن يرحل مع الباخرة فإنه سوف يرحل على الأقل دون أن يصحب هذا الفرنسي الملعون » . ثم قام وغادر الحانة بعد أن دفع الحساب .

٢٠
فيكس يتصل بفيلياس فوج اتصالاً مباشراً

وكان السيد فوج ، أثناء هذه الأحداث التي كان من شأنها أن تعرض مستقبله للضرر البليغ ، يتجول بصحبة السيدة أوودا في شوارع المدينة الإنجليزية . فمنذ أن قبلت السيدة أوودا عرضه أن يوصلها إلى أوربا ، كان عليه أن يفكر في كل التفاصيل التي تستلزمها مثل هذه الرحلة الطويلة . ومن المحتمل أن نرى إنجليزياً يطوف العالم وليس معه إلا حقيبة صغيرة يحملها في يده ، ولكن أي امرأة لا تستطيع القيام هكذا بمثل هذه الرحلة الطويلة . وكانت الضرورة تقتضيه أن يشتري ملابس وأشياء أخرى من معدات السفر . وقد أدى السيد فوج هذه المهمة بالهدوء نفسه الذي كان يتصف به . وكان يرد على كل الاعتذارات أو الاعتراضات التي كانت تبديها الأرملة الشابة ، حين تستشعر الحرج من كل هذه المجاملة الرقيقة ، بأن يقول لها عبارة لا تتغير : «هذا كله في صالح رحلتي ، إنه جزء من خطتي» .

وبعد الانتهاء من شراء تلك اللوازم ، عاد السيد فوج والشابة إلى الفندق وتناولا طعام العشاء على المائدة الرئيسة التي كانت معدة إعداداً فاخراً . ولما كانت السيدة أوودا تشعر بشيء من التعب فإنها نهضت وشدت على يد منقذها الرزين ، تحييه على عادة الإنجليز ، وصعدت إلى غرفتها .

أما السيد المبجل نفسه ، فإنه قضى المساء كله مستغرقاً في مطالعة جريدتي «التيمس» و«أخبار لندن المصورة» .

وإذا كان من طبيعة فوج أن يندهش لشيء ما ، فكان الأحرى به أن يندهش لعدم رؤية خادمه عندما حانت ساعة الرقاد . ولكنه لما كان يعلم أن الباخرة المسافرة إلى يوكوهاما لن تغادر هونج كونج إلا في صباح اليوم التالي ، فإنه لم يعر المسألة أي اهتمام .

وفي اليوم التالي لم يحضر پاسپارتو عندما استدعاه السيد فوج .

ولا يستطيع أي امرئ أن يدرك ما جال بخاطر السيد فوج عندما علم أن خادمه لم يعد إلى الفندق ، ولكنه ، أي السيد فوج ، اكتفى بأن يتناول حقيبته ، واستدعى السيدة أوودا وأرسل في طلب هودج . وكانت الساعة عندئذ الثامنة . وكانت الساعة المقدرة لبلوغ المد أقصى ارتفاع له – فتستفيد منه الباخرة «لوكارناتيك» وتخرج من الممرات البحرية – هي الساعة التاسعة والنصف .

ولما وصل الهودج أمام باب الفندق ، صعد السيد فوج والسيدة أوودا إلى تلك العربة المريحة ، وتبعتهما الأمتعة محمولة على عربة يد .

وبعد نصف ساعة ، نزل المسافران على رصيف الميناء ، وهناك علم السيد فوج أن الباخرة لوكارناتيك قد أبحرت في اليوم السابق .

وبعد أن كان السيد فوج يتوقع أن يجد كلاً من الباخرة وخادمه ، فإنه أصبح مضطراً للاستغناء عن كليهما .

على أنه لم يبد على وجهه أية علامة تنبئ عن خيبة الأمل .

ولما رأى السيدة أوودا تنظر إليه في قلق ، فإنه اكتفى بأن يقول لها : «هذا حادث عارض لا أكثر ولا أقل» .

وفي هذه اللحظة اقترب منه شخص كان ينظر إليه باهتمام . وكان هذا الشخص هو المفتش فيكس الذي حياه وقال له : «ألست مثلي يا سيدي أحد ركاب الباخرة رانجون ، التي وصلت بالأمس ؟»

فأجابه السيد فوج ببرود «بلى سيدي ، على أنني لم أتشرف . . .»

– عفواً سيدي ، ولكنني كنت أتوقع أن أقابل هنا خادمك .

فسألته السيدة الشابة بلهفة : « وهل تعرف يا سيدي أين هو ؟ »

فأجاب فيكس وهو يتصنع الدهشة ، « كيف ، أليس معكم ؟ »

فردت السيدة أووداً : « كلا . إنه لم يظهر منذ الأمس . فهل ركب الباخرة لوكارناتيك دوننا ؟ »

فأجاب الشرطي : « دونكم ، يا سيدتي ؟ ولكن معذرة لسؤالي هذا ، هل كنتم عازمين على السفر في هذه الباخرة ؟ »

– نعم يا سيدي .

– وأنا أيضاً يا سيدتي ، وترينني لذلك شديد الأسف والضيق ، فإن باخرة « لوكارناتيك » وقد أتمت ما يلزمها من إصلاحات ، قد غادرت هونج كونج قبل موعدها باثنتي عشرة ساعة دون أن يخطر أحد بذلك . ويجب علينا الآن الانتظار ثمانية أيام أخرى حتى يحين قيام الباخرة التالية لها!

وشعر فيكس بقلبه يرقص من الفرح وهو ينطق بهذه الكلمات « ثمانية أيام . » نعم ثمانية أيام! سوف يحجز فوج في هونج كونج ثمانية أيام ، وسيكون لدى فيكس ما يكفي من الوقت حتى يصل أمر القبض . وهكذا ابتسم الحظ أخيراً للرجل الذي يمثل القانون .

ولذلك فكم كانت الضربة التي تلقاها فيكس شديدة حينما سمع فيلياس فوج يقول بصوته الهادئ : « ولكنه يبدو لي أنه توجد في ميناء هونج كونج سفن أخرى خلاف لوكارناتيك » .

وقدم السيد فوج ذراعه للسيدة أووداً لتتكئ عليها ، واتجه نحو أحواض السفن باحثاً عن سفينة على وشك الرحيل .

وتبعهما فيكس وهو مذهول . وكأن هناك خيطاً يربطه بذلك الرجل .

ومع ذلك فإن الحظ كان يبدو قد تخلى فعلاً عن ذلك الإنسان الذي خدمه حتى ذلك الحين . فقد أخذ فيلياس فوج يذرع الميناء في كل الاتجاهات ، لمدة ثلاث ساعات وهو مصمم ، إذا اقتضى الحال ، على أن

يستأجر سفينة تنقله إلى يوكوهاما . على أنه لم ير سوى سفن محملة بالبضائع أو سفن تفرغ حمولتها ، وهي جميعها لا تستطيع الإبحار على هذه الحال . وعاد الأمل يراود فيكس .

ومع ذلك لم يضطرب فيلياس فوج ، وعاد يواصل بحثه حتى لو انتهى به المطاف إلى مكاو . وإذا ببحار يقترب منه في مدخل الميناء ، وخاطبه قائلاً . « أتبحثون سعادتكم عن مركب ؟ »

فسأله السيد فوج : « أعندك مركب معد للإبحار ؟ »

– نعم ، يا صاحب السعادة ، إنه مركب إرشاد ، رقمه ٤٣ ، وهو أحسن ما في الأسطول .

– هل يسير جيداً ؟

– ما بين ثمانية وتسعة أميال تقريباً . أتحب أن تراه ؟

– نعم .

– ستسرون منه يا صاحب السعادة . هل ستقومون بنزهة في البحر ؟

– لا ، إنها رحلة .

– رحلة ؟

– هل تقوم بتوصيلي إلى يوكوهاما ؟

وظل البحار ، عند سماعه هذه الكلمات ، واقفاً مدلى الذراعين ، جاحظ العينين .

وقال : « أتمزح يا صاحب السعادة ؟ »

– كلا! لقد فاتني السفر بالباخرة « لوكارناتيك » . ويجب أن أكون في يوكوهاما في اليوم الرابع عشر من الشهر على أكثر تقدير . لأركب السفينة القاصدة إلى سان فرنسيسكو .

فقال المرشد : « آسف ، فالأمر مستحيل » .

– إني أعطيك مائة جنيه (٢,٥٠٠ فرنك) في اليوم ، ومكافأة قدرها مائتا جنيه إذا وصلت في الوقت المحدد .

فسأله المرشد : « أجد هذا ؟ »

وأجاب السيد فوج : « كل الجد » .

وتنحى المرشد جانباً ، وأخذ ينظر إلى البحر ، يتنازعه على ما يبدو عاملان : الرغبة في كسب مبلغ كبير ، والخوف من المغامرة مسافة بعيدة في البحر . وكان فيكس يرتجف بشدة .

وفي هذه الأثناء ، التفت السيد فوج ناحية السيدة أوودا ، وسألها : « أتخافين يا سيدتي ؟ »

فأجابت الشابة : « لا أخاف ما دمت معك يا سيد فوج » .

واقترب المرشد ثانية من السيد الفاضل ، وأخذ يدير قبعته بين يديه .

فقال له السيد فوج : « ما رأيك أيها المرشد ؟ »

فأجاب المرشد ، حسناً ، يا صاحب السعادة ، إنني لا أستطيع أن أخاطر بنفسي وبرجالي وبكم ، في هذه الرحلة الطويلة على ظهر مركب تكاد تبلغ حمولته عشرين طناً ، وفي مثل هذا الوقت من السنة . وفضلاً عن ذلك فإننا لن نصل في الموعد المناسب ، فإن بين هونج كونج ويوكوهاما مسافة قدرها ألف وستمائة وخمسون ميلاً .

فقال السيد فوج : ألف وستمائة ميل ليس غير .

– إنها هكذا بالفعل .

وتنفس فيكس الصعداء .

واستطرد المرشد قائلاً : « على أنه قد توجد وسيلة أخرى لتدبير هذا الأمر » .

وكتم فيكس أنفاسه .

وسأل فيلياس فوج : « وكيف ذلك ؟ »

– بالذهاب إلى ناجازاكي في الطرف الجنوبي لليابان ، على بعد ألف ومائة ميل ، أو إلى شنجهاي فقط ، على بعد ثمانمائة ميل من هونج كونج .

وفي هذه الرحلة الثانية ، لا يبتعد المرء عن الساحل الصيني ، وفي هذا مزية كبيرة ، فضلاً عن أن التيارات تحمل السفن إلى الشمال .

فأجاب فيلياس فوج : « أيها المرشد ، إنني يجب أن أركب السفينة الأميركية في يوكوهاما ، وليس في شنجهاي أو في ناجازاكي » .

فأجاب المرشد : « ولم لا ؟ إن السفينة الذاهبة إلى سان فرنسيسكو لن تبدأ رحلتها من يوكوهاما . إنها سوف تتوقف عند يوكوهاما وعند ناجازاكي ، ولكن الميناء الذي ستقوم منه هو شنجهاي » .

– هل أنت متأكد مما تقول ؟

– نعم متأكد .

– ومتى تغادر الباخرة شنجهاي ؟

– في السابعة من مساء اليوم الحادي عشر . فأمامنا إذن أربعة أيام . وأربعة أيام هي ست وتسعون ساعة ، فإذا سرنا بسرعة متوسطة قدرها ثمانية أميال في الساعة ، وكانت الخدمة عندنا جيدة ، والريح جنوبية شرقية ، وكان البحر هادئاً ، فإننا نستطيع أن نقطع الثمانمائة ميل التي تفصلنا عن شنجهاي في هذه المهلة .

– ومتى تستطيع الرحيل ؟

– في ساعة واحدة . أي ما يكفي من الوقت لشراء مؤونة السفر ولتجهيز المركب للإبحار .

– قبلت العرض . . هل أنت صاحب المركب ؟

– نعم ، واسمي « جون بنسبي » ، صاحب المركب « تانكادير » .

– هل تريد نقوداً ؟

– نعم ، إذا كان هذا لا يضايقك يا صاحب السعادة .

– إليك مائتي جنيه دفعة أولى تحت الحساب . . .

واستدار فيلياس فوج صوب فيكس وقال له : « سيدي . . . إذا شئت أن تنتهز هذه الفرصة . . .

فأجاب فيكس بعزم قائلاً : « كنت على وشك أن أطلب منك هذه المنة يا سيدي .

– حسناً . سوف نكون في نصف ساعة على ظهر المركب .

وقالت السيدة أوودا التي شغل بالها كثيراً اختفاء پاسپارتو :
« ولكن هذا الشاب المسكين . . »

فأجاب فوج : « سأفعل من أجله كل ما في وسعي » .

وبينما توجه فيكس إلى المركب ، وهو مضطرب الأعصاب ، غضبان ، محموم ، انصرف فوج والسيدة أوودا إلى مكاتب شرطة هونج كونج . وهناك أعطى فيلياس فوج أوصاف پاسپارتو . وأودع مبلغاً من المال يكفي لإعادته إلى وطنه . وقام بالإجراء نفسه لدى قنصل فرنسا ، وبعد أن مر الهودج بالفندق وأخذا متاعهما ، عاد بالمسافرين إلى الميناء .

ودقت الساعة الثالثة . وكانت السفينة المرشدة رقم ٤٣ ، وعلى ظهرها طاقمها ، وكل ما يلزمها من مؤن ، مستعدة للإبحار . « والتانكادير » هذه سفينة صغيرة دقيقة جميلة ذات صاريين ، حمولتها عشرون طناً ، مقدمتها رفيعة ، طليقة في حركاتها ، مستطيلة جداً في خط مائها وكأنها ، في كل ذلك سفينة سباق . وتدل قطعها النحاسية اللامعة ، والحديدية المطلية بالزنك ، وسطحها الأبيض اللون بياض العاج ، على أن صاحبها « جون بنسبي » كان يحرص على أن تكون في أحسن حال . وكان صارياها يميلان قليلاً إلى الوراء . وكانت تنشر عدداً من الشراعات الرئيسة . وتستطيع إعداد الكثير من الشراعات للريح التي تأتي من الخلف . ولابد أنها كانت تسير سيراً سريعاً ، وكانت في الواقع قد فازت بالكثير من الجوائز في مسابقات مراكب الإرشاد .

وكان طاقم « التانكادير » يتكون من ربانها « جون بنسبي » ومن أربعة أشخاص ، وهم من أولئك البحارة الجسورين الذين يغامرون ، في كل الأجواء ، باحثين عن السفن ، ممن يعرفون تلك البحار كل المعرفة . أما « جون بنسبي » فقد كان رجلاً في حوالي الخامسة والأربعين من العمر ، شديد المراس ، أسمر اللون من لفح الشمس والجو ، حاد النظر ، نشيط المحيا ، متزناً كل الاتزان ، ماهراً في عمله ، وكان في كل ذلك أهلاً لأن يبعث الثقة في أكثر النفوس خوفاً .

وصعد فيلياس فوج والسيدة أوودا إلى ظهر السفينة . وكان فيكس قد سبقهم إليها . ونزل الجميع من تحت السقيفة الخلفية للمركب إلى غرفة مربعة ، جدرانها المجوفة على شكل إطاري تعلو أريكة دائرية . وفي وسط الغرفة خوان ينيره مصباح لا يتأثر باهتزازات السفينة . وكانت الغرفة صغيرة ولكنها نظيفة .

وقال السيد فوج لفيكس . « آسف ، فليس لدي شيء أفضل من هذا أقدمه لك » ، وانحنى فيكس ولم يجب .

وشعر مفتش الشرطة بنوع من الإذلال إذ إنه كان يستغل بهذه الصورة مروءة السيد فوج .

وقال لنفسه مفكراً « إنه وغد بالتأكيد ، ولكنه وغد مهذب وأي تهذيب . ومع ذلك فهو وغد على أية حال! »

وفي الساعة الثالثة وعشر دقائق ، ارتفعت الشراعات . ورفرف علم إنجلترا على صاري السفينة . وكان الركاب جالسين على سطحها . وألقى السيد فوج والسيدة أوودا على رصيف الميناء نظرة أخيرة بحثاً عن پاسپارتو ، وتأكدا من عدم وجوده .

ولم يكن فيكس مطمئناً مرتاح البال ، لأن المصادفة قد تحضر إلى هذا المكان نفسه ذلك الشاب المسكين ، الذي أساء معاملته كل الإساءة ، وكان لا مفر حينئذ من تقديم تفسيرات وإيضاحات لا يستطيع أن يجعلها في مصلحته . ولكن الفرنسي لم يظهر ، ولاشك في أن المخدر القوي مازال مؤثراً عليه .

وأخيراً وجه الربان « جون بنسبي » سفينته إلى عرض البحر ، ومرقت السفينة « تانكادير » تقفز فوق الأمواج ، والرياح تدفع شراعاتها الرئيسة .

٢١

صاحب السفينة «تانكادير»

يوشك أن يخسر جائزة قدرها مائتا جنيه

كانت تلك الرحلة البحرية القائمة لعبور ثمانمائة ميل في سفينة حمولتها عشرون طناً ، وفي تلك الفترة من السنة على الأخص ، مخاطرة كبيرة . وكانت بحار الصين رديئة عموماً ، فهي معرضة لضربات رياح رهيبة ، وعلى الأخص في فترات الاعتدال الشمسي والوقت مازال في الأيام الأولى من شهر نوفمبر .

ومن الواضح أن مصلحة المرشد كانت في الذهاب بركابه إلى يوكوهاما مادام أجره يزداد بازدياد عدد الأيام . ولكنه قد يكون عديم التبصر إذا حاول القيام بهذه الرحلة في مثل ظروفها . وإن الرحلة نفسها لشنجهاي لتتسم بطابع الجرأة والإقدام . على أن « جون بنسبي » كان كبير الثقة في سفينته « تانكادير » التي كانت ترتفع فوق الأمواج ، وقد لا تكون في ذلك مخطئة .

وخلال الساعات الأخيرة لذلك النهار ، سارت التانكادير في ممرات هونج كونج البحرية المتقلبة الأطوار ، سيراً مدهشاً ، في مختلف الأوضاع وبتأثير مختلف الرياح ، قريبة كانت أو خلفية .

وقال فيلياس فوج في اللحظة التي خرجت فيها السفينة إلى عرض البحر : « لست بحاجة ، أيها المرشد ، إلى أن أوصيك بالإسراع بقدر ما تستطيع » .

فأجاب « جون بنسبي » : فلتفوض لي هذا الأمر يا صاحب السعادة . ففيما يختص بالشراعات ، فإننا نحمل منها كل ما تسمح لنا الرياح بحمله . ولن تزيد شراعاتنا العلوية الأمامية من سرعة السفينة ، ولن يكون لها أية فائدة ، اللهم إلا أن تشل حركة السفينة وتضر بسيرها .

– إن هذه مهنتك وليست مهنتي ، أيها المرشد ، وإنني أضع ثقتي فيك .

ووقف فيلياس فوج معتدل القوام ، متباعد الساقين ، متزناً ، وكأنه ملاح ، وأخذ ينظر إلى البحر المتلاطم الأمواج ، دون أن يتحرك . أما السيدة الصغيرة ، فإنها كانت ، وهي جالسة في مؤخرة السفينة ، تشعر بالاضطراب وهي تتطلع إلى ذلك المحيط ، الذي بدأ الظلام يخيم عليه ، مع الغسق ، والذي كانت تتحداه في سفينة هزيلة . وانبسطت فوق رأسها الشراعات البيضاء التي كانت تحملها في الفضاء ، كأنها أجنحة كبيرة . وقد بدت السفينة الصغيرة ، إذ تدفعها الرياح ، كأنها تطير في الهواء .

وأقبل الليل . وكان القمر داخلاً في ربعه الأول . وأخذ الضوء الضعيف يحتجب بعد قليل خلف ضباب الأفق . وأقبلت سحب من جهة الشرق وسيطرت على جزء من السماء .

وأوقد المرشد مصابيحه الكشافة ، وهو احتياط لا غنى عن اتخاذه في هذه البحار ، التي يرتادها الكثيرون في المواضع القريبة من الأرض ، ولم يكن من النادر فيها ملاقاة البواخر ، وتتعرض السفينة الصغيرة ، وهي تسير بمثل هذه السرعة الكبيرة إلى أن تتهشم لأقل صدمة تحدث لها .

ووقف فيكس غارقاً في أحلامه ، عند مقدمة السفينة وقد تنحى جانباً وهو يعلم أن فوج قليل الكلام بطبيعته . وفضلاً عن ذلك ، فإنه كره أن يخاطب ذلك الرجل ، الذي ارتضى خدماته وكان يفكر أيضاً في المستقبل . وكان يبدو له يقيناً أن السيد فوج لن يتوقف في يوكوهاما ، وأنه سيركب في الحال الباخرة القائمة إلى سان فرنسيسكو ليصل إلى أمريكا ، التي تضمن له أراضيها الشاسعة الخلاص والأمان من القصاص . وبدت له خطة فيلياس فوج من أبسط ما يمكن .

فبدلاً من أن يركب فوج هذا البحر من إنجلترا إلى الولايات المتحدة رأساً ، كما قد يفعل أي وغد من عامة الشعب ، فإنه قام برحلة طويلة واجتاز ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ليصل إلى القارة الأميركية ، ليكون في أمان أكثر ، حيث يلتهم في هدوء أموال المصرف ، بعد أن يكون قد ضلل الشرطة . ولكن ماذا سيفعل فيكس إذا وطأت قدماه أرض الاتحاد الأميركي ؟ هل يتخلى عن ذلك الرجل ؟ كلا ، وألف مرة كلا! حتى لو اقتضاه الأمر أن يحصل على أمر بتسليم المجرم إلى السلطة المختصة ، فإنه لن يبتعد عنه شبراً واحداً . لقد كان هذا واجبه ، وسيؤديه حتى النهاية . وعلى كل حال ، فقد واتته فرصة سعيدة : إن پاسپارتو لم يعد إلى جانب سيده ، وقد أصبح من الضروري ، ولاسيما بعد أن أفضى إليه فيكس بحقيقة أمره ، ألا يتقابل بعد ذلك السيد وخادمه .

ولم يكن فيلياس فوج ، هو الآخر ، قد أعرض عن التفكير في خادمه ، الذي اختفى بشكل غريب للغاية . فبعد التفكير في المسألة ، بدا له أنه ليس من المستحيل أن يركب الشاب المسكين السفينة «لوكارناتيك» في آخر لحظة ، بسبب غلطة أو سوء فهم . وكان هذا أيضاً رأي السيدة أوودا التي كانت تشعر بالأسف الشديد من أجل هذا الخادم الأمين الذي تدين له بالكثير . وكان في الإمكان إذن العثور عليه ثانية في يوكوهاما ، وإذا كانت لوكارناتيك قد حملته إلى تلك المدينة فسيكون من اليسير معرفة ذلك .

وفي حوالي الساعة العاشرة بدأت الريح تشتد . وربما كانت الفطنة تقضي بضغط الشراعات ، على أن الربان ، وقد فحص بعناية حالة السماء ، ترك الشراعات بحالتها التي كانت عليها . ثم إن «التانكادير» كانت تحمل شراعاتها بكل ثبات ، فإن غاطسها في الماء كبير . وكانت على أتم الاستعداد لطي الشراعات إذا هبت العواصف .

ولما انتصف الليل نزل فيلياس فوج والسيدة أوودا إلى الغرفة . وكان فيكس قد سبقهما إليها وتمدد على إحدى الأرائك . أما الربان ورجاله فإنهم ظلوا طول الليل على سطح السفينة .

وعند شروق شمس اليوم التالي ، الثامن من شهر نوفمبر ، كانت السفينة قد قطعت أكثر من مائة ميل . ودل جهاز قياس السرعة الذي استعمل عدة مرات ، على أن متوسط سرعة السفينة كان بين ثمانية وتسعة أميال في الساعة . وكانت شراعات «التانكادير» على درجة كافية من المرونة ، تتلقى الريح في جميع الأوضاع ، وكانت بذلك تمكن السفينة من حدها الأقصى للسرعة ، فإذا استمرت الريح على هذه الحال كانت الفرص كلها مواتية للسفينة .

ولم تبتعد «التانكادير» طول ذلك اليوم عن الشاطئ ابتعاداً محسوساً ، فإن تيارات الساحل كانت ملائمة لها . وكانت على بعد لا يزيد على خمسة أميال من الساحل ، مستديرة نحوه بالجزء الخلفي من جانبها الأيسر ، وكان ذلك الساحل ، كثير التعاريج ، يظهر لها أحياناً من خلال بعض المواضع التي لا يغطيها الضباب .

ولما كانت الريح تهب آتية من البر ، فقد كان البحر أقل اضطراباً ، وهو ظرف موات للسفينة ، فإن السفن ذات الحمولة الصغيرة تضار كثيراً من اضطراب الأمواج الذي يحد من سرعتها أو «يقتلها» على حد التعبير البحري .

ولما انتصف النهار ، هبطت الريح قليلاً واتجهت نحو الجنوب الشرقي ، وشد الربان الأجزاء العليا من الصاريين ، ولكنه بعد ساعتين ، اضطر إلى فكها ، فإن الريح اشتدت من جديد .

وأكل السيد فوج والسيدة أوودا بشهية «بسكوتاً» وأغذية محفوظة ، فقد كانا لحسن الحظ لا يتأثران بدوار البحر . ودعي فيكس إلى مشاركتهما طعامهم ، واضطر إلى القبول ، وهو يعلم أنه لا مفر من شحن المعدة كما تشحن السفن ، على أن هذا الأمر قد أغاظه! إذ وجد أنه ليس من اللائق أن يسافر على حساب هذا الرجل ويتغذى من مأكولاته الخاصة . ومع ذلك فقد أكل ، بسرعة في الواقع دون أن يجلس ، ولكنه أكل على أية حال .

ومع ذلك ، فما أن انتهت الوجبة ، حتى اعتقد أنه من الواجب عليه أن يتحدث مع السيد فوج على حدة ، فخاطبه قائلاً : «سيدي» .

وسلخت كلمة «سيدي» هذه شفتيه ، وقاوم نفسه حتى لا يمسك بخناق هذا «السيد . .»

وقال له : «سيدي ، لقد غمرني فضلك إذ دعوتني إلى ركوب سفينتك ، ولو أن مواردي لا تسمح لي بأن أتصرف بسخاء كما تفعل ، ولكن في نيتي أن أدفع نصيبي . .»

فأجاب السيد فوج : «لندع هذا الكلام يا سيدي» .

– ولكني مصمم . .

فردد فوج بنغمة لا تدع مجالاً للرد «لا يا سيدي إن هذا من المصروفات العامة!»

وانحنى فيكس ، وكأنه يختنق ، ثم ذهب يتمدد على مقدم السفينة ، ولم يفه ببنت شفة طول ذلك اليوم .

وكانت السفينة في تلك الأثناء تمرق بسرعة . وكان «جون بنسبي» قوي الأمل . وقال مراراً للسيد فوج إنهم سوف يصلون إلى شنجهاي في الوقت المطلوب . وكان فوج يرد عليه ببساطة أنه يعتمد عليه في ذلك . ثم إن كل طاقم السفينة كان يعمل بحماس كبير . وكانت الجائزة تغري هؤلاء الناس الطيبين . ولذلك لم تكن ثمة ساعة لم تشد بدقة ، ولا شراع لم يثبت ويشد بقوة ، ولا انحراف خاطئ للسفينة يمكن أن يلام بسببه قائد الدفة! ولم يحدث أن أديرت سفينة بمهارة أشد من هذه المهارة في مسابقات الزوارق لنادي «اليخت الملكي»!

وفي المساء ، وجد الربان أن جهاز تسجيل السرعة قد سجل مسافة مائتين وعشرين ميلاً قطعتها السفينة منذ أن غادرت هونج كونج ، وتسنى لفيلياس فوج أن يأمل ألا يدون أي تأخير في خطته حين يصل إلى يوكوهاما . وعلى ذلك فإن أول عائق خطير قابله منذ أن غادر لندن لن يسبب له ، على ما يحتمل ، أية خسارة .

وفي أثناء الليل ، ومع الساعات الأولى للصباح ، دخلت «التانكادير» مباشرة في مضيق «فوكيين» ، الذي يفصل جزيرة «فورموزا» الكبيرة عن الساحل الصيني ، وقطعت بذلك مدار

السرطان . وكان البحر مضطرباً للغاية في ذلك المضيق ، الذي تغشاه دوامات تسببها التيارات المائية المضادة . وأرهقت السفينة كثيراً . وأضعفت الأمواج القصيرة من سيرها وأصبح من الصعب الوقوف بثبات على سطحها .

ومع طلوع النهار ، اشتدت الريح مرة أخرى . وكان في مظهر السماء ما ينبئ باقتراب عاصفة . ثم إن البارومتر كان يدل على تغيير قريب في حالة الجو ، وكانت حركته في أثناء النهار غير منتظمة ، وكان الزئبق يتذبذب في غير انتظام . وشوهد البحر يرتفع ناحية الجنوب الشرقي في تموجات مستطيلة تنم عن هبوب العاصفة . وكانت الشمس قد غربت البارحة في ضباب أحمر اللون ، في وسط الإشعاعات الفوسفورية المنبثقة من المحيط .

وتطلع الربان مدة طويلة إلى مظهر السماء الردي، ، وتمتم بألفاظ غير مفهومة . وإذ وجد نفسه ، في لحظة ما ، بالقرب من راكب سفينته فوج ، قال له «أيمكن يا صاحب السعادة أن أفضي لك بكل شيء ؟»

فأجاب فيلياس فوج : «أجل بكل شيء» .

– حسناً ، ستهب علينا عاصفة .

فسأل السيد فوج ببساطة : «وهل ستهب من الشمال أم من الجنوب ؟»

– من الجنوب . أنظر ، إنه إعصار يتجمع .

– أهلاً بإعصار الجنوب ، ما دام سيدفعنا في الطريق الصحيح .

– ما دام هذا رأيك ، فلم يعد لي ما أقوله .

أما «جون بنسبي» فإن هواجسه لم تخدعه . فإن الإعصار كان يمكن أن يمر كسلسلة مضيئة من شعلة كهربائية ، على حد قول أحد علماء الظواهر الجوية المشهورين ، في فترة من السنة أقل تقدماً من الفترة التي كانوا فيها . أما في فترة الاعتدال الشمسي الشتائي فكان يخشى أن يهب الإعصار في عنف شديد .

واتخذ الربان احتياطاته مقدماً . فطوى كل شراعات السفينة وأنزل

الدعامات الأفقية للصواري ووضعها على السطح ، وأغلق المنافذ الموجودة على سطح السفينة بإحكام ، فلم يعد من الممكن أن تنفذ نقطة ماء واحدة إلى هيكل السفينة ، ولم يبسط سوى شراع واحد مستطيل الشكل ، من قماش متين ، بشكل معين يسمح للسفينة أن تتلقى الريح من الخلف . وانتظر الجميع هبوب الإعصار .

وكان جون بنسبي قد دعا ركابه إلى النزول في الغرفة . على أن هذه الغرفة ، بحيزها الضيق ، أو بالأحرى هذا السجن ، الذي لا يكاد يدخله الهواء ، ومع الاهتزاز الناتج من اضطراب الأمواج ، لم يكن بها ما يسر الخاطر ، فلم يقبل السيد فوج أو السيدة أوودا أو فيكس النزول إليها ومغادرة سطح السفينة .

وفي حوالي الساعة الثامنة هبت الريح وسقط المطر على ظهر السفينة .

وارتفعت التانكادير ، بشراعها الصغير ، كريشة في مهب تلك الرياح التي لا يستطيع أحد أن يصفها وصفاً دقيقاً ، حين تهب في قوة الزوابع . وقد تكون أقرب إلى الحقيقة إذا قارنا سرعتها بأربعة أضعاف سرعة قاطرة بخارية منطلقة بكل ما تملك من قوة .

وانطلقت السفينة طول النهار متجهة نحو الشمال تحملها الأمواج الهائلة ، محتفظة لحسن الحظ بسرعة الأمواج نفسها . وتعرضت مراراً لأن يغطيها جبل من تلك الجبال المائية التي كانت تنتصب خلفها . ولكن الربان كان يجنبها الكارثة بمهارته في إدارة الدفة . وكان الركاب كثيراً ما يغطيهم رذاذ الماء الذي كانوا يتلقونه في كثير من الفلسفة . وكان فيكس يتذمر ولاشك . أما السيدة أوودا الجريئة فإنها ، وقد أخذت عيناها تتأملان وجه زميلها الذي ما وسعها إلا أن تعجب بثباته ورزانته ، قد أظهرت أنها جديرة بتقديره ، وجابهت الخطوب إلى جواره . أما فيلياس فوج فقد كان يبدو وكأن تلك الأعاصير جزء من خطته .

وكانت التانكادير تسير حتى ذلك الوقت نحو الشمال ، ولما حل المساء ، حدث ما كانوا يخشونه ، فإن الريح دارت ثلاثة أرباع

الدورة ، ولفحت الشمال الغربي . وأخذت السفينة عندئذ ترتج ارتجاجاً مخيفاً ، وقد أعطت جانبها للأمواج . وأخذ البحر يصدم السفينة بقوة من شأنها أن تبعث الهلع في النفوس ، وبخاصة إذا لم يعلم أحد مقدار ارتباط أجزاء السفينة بعضها ببعض .

واشتدت العاصفة مع قدوم الليل ، أكثر من ذي قبل . ولما رأى جون بنسبي ظلام الليل ، ومع الظلام تشتد العواصف ، استبدت به الهواجس ، وتساءل عما إذا كان من الأفضل الآن الرسو بالسفينة . واستشار بحارته .

ولما انتهت مشاورة رجاله ، اقترب « جون بنسبي » من السيد فوج وقال له : « أعتقد ، يا صاحب السعادة ، أنه من الأفضل لنا أن نصل إلى ميناء من موانئ الساحل » .

فأجاب فيلياس فوج : هذا هو اعتقادي أنا أيضاً » .

وقال الربان : « آه! ولكن أي الموانئ ؟ »

فأجاب فيلياس فوج بهدوء : « لا أعرف منها غير واحد فقط » .

– ما هو ؟

– شنجهاي .

وظل الربان بضع ثوان وهو لا يفهم ما يعنيه هذا الجواب ، وما ينطوي عليه من آيات العناد والصلابة . ثم صاح قائلاً :

« مرحاً يا صاحب السعادة ، الحق معك . إلى شنجهاي » .

– وظلت التانكادير محتفظة باتجاهها نحو الشمال .

وكان الليل رهيباً! ولم تنقلب السفينة ، وكان ذلك معجزة!

ومالت السفينة مرتين ميلاً خطيراً ، ولو لم تكن الحبال مشدودة شداً متيناً ، لانتزع كل ما كان على ظهرها . وكانت السيدة أوودا خائرة القوى ، على أنه لم تصدر منها أية شكوى على الإطلاق . وقد أسرع نحوها السيد فوج أكثر من مرة ليحميها من سطوة الأمواج .

وطلع النهار . وكانت العاصفة لا تزال منطلقة في ثورة عارمة . ومع ذلك فقد هبطت الريح في الجنوب الشرقي . وكان هذا تغييراً ملائماً ،

واعتدلت السفينة في طريقها فوق ذلك البحر المضطرب الذي أخذت أمواجه تتطاحن مع الأمواج التي أثارها تغير الرياح الطارئ . ونتج عن ذلك تصادم الأمواج العالية تصادماً كان يمكن أن يسحق أية سفينة أقل متانة وصلابة .

وكان الساحل يظهر للرائي من وقت لآخر من خلال الضباب المنقشع ، ولم تكن هناك أية باخرة على مدى البصر . فكانت التانكادير هي السفينة الوحيدة التي تخوض عباب البحر .

وفي منتصف النهار ، بدت بعض دلائل الهدوء النسبي وظهرت أكثر وضوحاً عندما مالت الشمس نحو الأفق .

وكان قصر الفترة التي استغرقتها العاصفة ناتجاً عن شدتها . واستطاع المسافرون ، وهم محطمو القوى ، أن يتناولوا القليل من الطعام ويخلدوا إلى شيء من الراحة .

وكان الليل هادئاً بعض الهدوء . ونشر الربان الأشرعة فانطلقت السفينة في سرعة كبيرة . ولما انبلج صباح اليوم التالي ، الحادي عشر من الشهر ، شوهد الساحل واستطاع «جون بنسبي» أن يؤكد أنهم كانوا على بعد لا يزيد على مائة ميل من شنجهاي .

مائة ميل ، ولم يبق لاجتيازها سوى نهار واحد! وكان لابد من أن يصل السيد فوج في المساء نفسه إلى شنجهاي ، إذا أراد ألا يفوته اللحاق بالباخرة يوكوهاما . لقد كان من المحتمل أن يكون في تلك اللحظة على بعد ثلاثين ميلاً من الميناء لولا تلك العاصفة التي أضاع بسببها عدة ساعات .

وخفت الريح بشكل محسوس ، ولكن البحر سكن لسوء الحظ مع سكون الريح . وارتفعت كل الشراعات وانبسطت وغطت السفينة ، وأزبد البحر تحت مقدّمها .

وفي الثانية عشرة كانت التانكادير على بعد لا يزيد عن أربعين ميلاً من شنجهاي وبقي أمامها ست ساعات للوصول إلى الميناء قبل قيام باخرة يوكوهاما .

وكان القلق والخوف يعصفان بنفوس ركاب السفينة . فكانوا يريدون الوصول بأي ثمن . وكان الجميع ، فيما عدا فيلياس فوج بالطبع ، يحسون بقلوبهم تدق بشدة من نفاد صبرهم . وكان على السفينة أن تحتفظ بسرعة متوسطة قدرها تسعة أميال في الساعة ، ومع ذلك فإن الريح كانت تخف باستمرار! وأصبحت نسيماً غير منتظم بل نفحات من النسيم طائشة تأتي من الساحل . وكانت تمر ، وكان سطح البحر يتغضن بعد مرورها مباشرة .

ومع ذلك فقد كانت السفينة خفيفة ، وشراعاتها عالية ، من نسيج دقيق ، فكانت تجمع الأنسمة الطائشة جمعاً منتظماً ، يساعدها تيار الماء ، حتى إنه في السادسة ، قدر جون بنسبي أنه لم يبق أمامه سوى عشرة أميال للوصول إلى نهر شنجهاي ، فإن المدينة نفسها تقع على مسافة اثني عشر ميلاً على الأقل من مصب النهر .

وفي السابعة أصبحوا على بعد ثلاثة أميال من شنجهاي . وصدرت من فم الربان شتيمة فاحشة . فإن جائزة المائتي جنيه سوف تفلت من يديه . ونظر إلى السيد فوج ، ولكن السيد فوج كان غير بادي التأثر ، مع أن ثروته كلها كانت معرضة في تلك اللحظة للضياع .

وفي تلك اللحظة ذاتها ، ظهر على سطح الماء جسم مقوس أسود اللون تعلوه ذؤابة من الدخان . وكانت هذه هي السفينة الأميركية التي كانت خارجة من الميناء في موعدها المحدد .

وصاح جون بنسبي ، وهو يدفع الدفة بحركة يائسة من ذراعه : «ياللعنة!» .

وقال فيلياس فوج ببساطة : «أعطوا إشارات!»

وكان هناك مدفع برونزي صغير مقام على مقدمة التانكادير . وكان يستعمل في إعطاء الإشارات في أوقات الضباب .

وشحن المدفع حتى فوهته . على أنه في اللحظة التي استعد فيها الربان لتقديم قطعة من الفحم المشتعل من فتحة المدفع صاح السيد فوج : «لينكس العلم» .

ورفع العلم حتى منتصف الصاري ، وكان هذا علامة الخطر ، وكان الأمل في أن تراه الباخرة الأميركية فتحول طريقها لحظة للحاق بالسفينة .

وقال السيد فوج : « أطلقوا النار! »

ودوى صوت المدفع البرونزي الصغير في الجو .

٢٢

باسپارتو يرى أنه من الفطنة

أن يكون في جيب الإنسان بعض النقود حتى في البلاد الواقعة على الوجه الآخر من الكرة

بعد أن غادرت الكارناتيك هونج كونج في السادسة والنصف من مساء اليوم السابع من شهر نوفمبر ، اتجهت بأقصى سرعتها صوب الأراضي اليابانية . وكان على ظهرها حمولة كاملة من الركاب والبضائع . وظلت حجرتان خاليتين في مؤخرتها ، وهما اللتان سبق حجزهما لحساب السيد فيلياس فوج .

وفي صباح اليوم التالي رأى الرجال الذين كانوا في مقدمة الباخرة ، وهم مندهشون بعض الشيء ، مسافراً يخرج من سقيفة حجرات الدرجة الثانية زائغ البصر قليلاً ، مضطرب السير ، منكوش الرأس ، يأتي مترنحاً ليجلس على حزمة من الخشب . وكان هذا المسافر هو باسپارتو بشخصه . وإليكم ما حدث :

بعد أن انقضت بضع ثوان على مغادرة فيكس للحانة ، جاء خادمان وحملا باسپارتو الذي كان يغط في نوم عميق ، وأرقداه على السرير المخصص للمدخنين . ولبث باسپارتو نائماً ثلاث ساعات ، ولكنه كان تحت وطأة كابوس ثقيل ، تطارده فكرة ثابتة هي أن يستيقظ وأن يقاوم مفعول المخدر المتسبب عن الأفيون . وكانت فكرة الواجب الذي لم يقم بإتمامه تهز خموله . فقام وغادر سرير المدمنين وخرج من الحانة وهو

يترنح ويتكئ على الجدران ويسقط ثم ينهض ، يدفعه ، في قوة لا تقاوم ، شعور غريزي ، وأخذ يصيح قائلاً : الكارناتيك! الكارناتيك!

وكانت الباخرة في الميناء ، يتصاعد منها دخان ، مستعدة للرحيل . ولم يكن بين پاسپارتو وبينها سوى بضع خطوات خطاها وقفز على سلم السفينة المتحرك ونفذ من فتحتها الموصلة إلى داخلها وسقط بلا حراك في الجزء الأمامي في اللحظة التي رفعت فيها السفينة مراسيها .

وقام بعض الملاحين المعتادين على مثل هذه المناظر بحمل الشاب المسكين وإنزاله في حجرات الدرجة الثانية ، ولم يستيقظ پاسپارتو إلا في صباح اليوم التالي وهو على بعد مائة وخمسين ميلاً من أراضي الصين . هذا هو الأمر الذي يفسر وجود پاسپارتو في ذلك الصباح على سطح السفينة « لوكارناتيك » ومجيئه ليستنشق ، ملء رئتيه ، أنسمة البحر المنعشة . وأفاقه الهواء الصافي من سكره ، وبدأ بجمع شتات أفكاره ، ولم يستطع إلا بصعوبة . ولكنه تذكر أخيراً حوادث البارحة ، واعترافات فيكس ، والحانة ، إلخ . . .

وقال لنفسه : « من الواضح أنني سكرت سكراً قبيحاً! ماذا يا ترى سيقول السيد فوج ؟ وعلى كل حال فإنه لم تفتني الباخرة ، وهذا هو الأمر الأساسي » .

وفكر في فيكس ، فقال « أما بخصوص هذا الشخص ، فإنني أرجو أن نكون قد تخلصنا منه ، وأنه لم يجرؤ على ملاحقتنا في الكارناتيك ، بعد العرض الذي قدمه لي . كيف هذا! أمفتش شرطة ومخبر يطارد سيدي المتهم بالسرقة التي ارتكبت في مصرف إنجلترا! كلا وربي ، لا يمكن أن يكون مستر فوج لصاً إلا أن يكون من الممكن أن أكون أنا قاتلاً! فهل كان من واجب پاسپارتو أن يقص هذه الأشياء على سيده ؟ وهل كان من اللائق أن يحيطه علماً بالدور الذي لعبه فيكس في هذه المسألة ؟ أليس من الأفضل أن ينتظر وصوله إلى لندن ليقول له إن شرطياً من شرطة العاصمة قد تعقبه في جولته حول العالم ، ثم يضحك معه من هذه القصة ؟ نعم ولا شك . وعلى كل حال فهذه مسألة تجدر دراستها . إنما الأمر العاجل هو

مقابلة السيد فوج وحمله على قبول اعتذاره عن هذا السلوك الشائن . وعلى ذلك فقد نهض پاسپارتو وكان البحر مضطرباً ، والسفينة تتأرجح بشدة . وسار الشاب المسكين ، بساقين مازالتا واهيتين ، ووصل في مشقة إلى الجزء الخلفي من السفينة ، ولم ير على سطح السفينة أي شخص يشبه سيده أو السيدة أوودا .

وقال لنفسه : « حسناً ، إن السيدة أوودا مازالت راقدة في هذه الساعة أما السيد فوج فلا بد أنه وجد من يلعب معه الهويست ، كعادته . . »

ونزل إلى القاعة . ولم يكن بها السيد فوج . ولم يكن بوسع پاسپارتو أن يفعل سوى شيء واحد : أن يسأل صراف السفينة عن الغرفة التي يشغلها السيد فوج . ورد عليه الصراف بأنه لا يعرف مسافراً بهذا الاسم .

وقال پاسپارتو ملحاً : « عفواً ، إنني أسأل عن سيد مهذب ، طويل القامة هادئ الطبع ، قليل الاختلاط بالناس ، تصحبه سيدة شابة .

فأجاب الصراف : لا توجد سيدات على ظهر السفينة ، وزيادة على ذلك فهاك كشفاً بأسماء الركاب ، تستطيع الاطلاع عليه .

وفحص پاسپارتو الكشف . . . ولم يجد مدونا به اسم سيده . وتملكه شيء من الذهول . ثم طرأت بذهنه فكرة فصاح قائلاً :

« يا لله! هل أنا على ظهر السفينة لوكارناتيك ؟ »

فأجاب الصراف : « نعم » .

– وهي متجهة إلى يوكوهاما ؟

– تماماً .

لقد اعتراه ، في لحظة ، ذلك الخوف من أن يكون قد أخطأ السفينة! ولكنه كان فعلاً على ظهر الكارناتيك ، وتأكد أن سيده ليس فيها .

وتهاوى پاسپارتو على مقعد . فقد هزت الفكرة كيانه . وفجأة سطع له نور الحقيقة . وتذكر أن موعد رحيل الكارناتيك كان قد قدم ، وأنه كان من الواجب عليه أن يخطر سيده ولكنه لم يفعل! إن غلطته كانت

هي السبب إذن في أن السيد فوج والسيدة أوودا لم يلحقا بالباخرة عند قيامها .

إنها غلطته ، نعم ، ولكنها أيضاً غلطة ذلك الخائن الذي خدره وأسكره ليحجزه في هونج كونج فيباعد بينه وبين سيده! ذلك أنه قد أدرك أخيراً الخدعة التي قام بها مفتش الشرطة . والآن فإن السيد فوج لابد من أن يكون قد حل به الخراب ، ففقد رهانه ، وقبض عليه ، وربما سجن! . . . وأمام هذه الفكرة أخذ پاسپارتو يشد شعره ، آه! لو وقع فيكس في قبضة يده ، كم سيكون حسابه عسيراً!

وأخيراً ، وبعد أن مرت اللحظة الأولى لتلك الكارثة ، استعاد پاسپارتو هدوءه وأخذ يدرس الموقف . كان موقفاً لا يحسد عليه . فقد كان الفرنسي في طريقه إلى اليابان . وكان واثقاً من وصوله إليها ، ولكن ، ما السبيل إلى عودته منها ؟ لقد كان خالي الوفاض . لم يكن معه شلن أو بنس واحد! ومع ذلك فقد كان أجر سفره وغذائه على ظهر السفينة مدفوعاً مقدماً . فكان أمامه خمسة أو ستة أيام ليتخذ قراراً في أمره ، أما كم أكل وشرب خلال هذه الرحلة فهذا ما يصعب شرحه! فقد التهم طعام سيده وطعام السيدة أوودا وطعامه هو . لقد أكل كما لو كانت اليابان التي سوف يصلها ، بلداً صحراوياً ، خالياً من جميع المواد الغذائية .

ومع جزر البحر في صباح اليوم الثالث عشر ، دخلت الكارناتيك ميناء يوكوهاما . وهو موضع هام لرسو السفن في المحيط الهادي ، تقف عنده كل البواخر التي تنقل البريد والركاب بين أميركا الشمالية ، والصين ، واليابان ، وجزر الملايو . وتقع يوكوهاما في خليج « يبدو » على مسافة قليلة من مدينة « يبدو » نفسها ، العاصمة الثانية للإمبراطورية اليابانية ، وكانت في سالف الزمان مقر « المتيكون »[1] ، حين كان يوجد مثل ذلك الحاكم المدني ، وهي تضاهي مدينة « ميكو » ، تلك المدينة الكبيرة التي يسكنها « الميكادو » ذلك الامبراطور الديني ، سليل الآلهة!

١ – اسم كان يطلق على كبار الأشراف الإقطاعيين في اليابان، في الفترة بين سنة ١١٨٦ حتى ثورة ١٨٦٨.

وأقبلت الكارناتيك تصطف بجوار رصيف ميناء يوكوهاما ، بالقرب من مراطم الميناء ومخازن الجمرك ، وسط شتى البواخر التابعة لكل الأمم . ووطأ پاسپارتو بقدمه ، دون أي حماس ، تلك الأرض العجيبة ، أرض « أبناء الشمس » . ولم يكن لديه شيء يعمله أحسن من أن يتخذ المصادفة دليله ، ويسير بلا هدى في شوارع المدينة .

ووجد پاسپارتو نفسه أولاً في مدينة أوربية تماماً ، ذات منازل منخفضة الواجهة ، تزينها شرفات تمتد تحتها أروقة أنيقة ، مدينة تشغل ، بشوارعها وميادينها ومخازن البضائع البحرية وغير البحرية ، كل الحيز الممتد من مرتفع « تريتي » حتى النهر . وهناك كما في هونج كونج وفي كلكتا ، ترى خليطاً صاخباً من أقوام من كل الأجناس : أمريكيون ، وإنجليز ، وصينيون وهولانديون ، وباعة مستعدون لبيع وشراء كل شيء . ووجد الفرنسي نفسه غريباً في وسطهم وكأنما قد ألقي به في بلاد « الهوتينتوه »[1] .

وكان أمام پاسپارتو إجراء يتخذه : هو أن يقدم نفسه إلى القناصل الفرنسيين أو الإنجليز الموجودين بالمدينة . ولكنه كره الالتجاء إلى هذه الوسيلة ، دون غيرها من الوسائل . وعلى ذلك ، فإنه بعد أن اجتاز القطاع الأوربي من المدينة ، من غير أن تخدمه المصادفة في شيء ، دخل القطاع الياباني ، وهو معتزم السير حتى مدينة « يبدو » ، لو اقتضاه الأمر ذلك .

ويطلق على هذا القطاع الوطني من يوكوهاما اسم « نيبتن » ، وهو اسم إلهة من آلهة البحر ، يعبدها سكان الجزر المجاورة . وتشاهد فيه ممرات بديعة تحوطها أشجار الشوخ والأرز ، وأبواب مقدسة ذات هندسة غريبة ، وجسور مختفية تحت أشجار الخيزران والبوص ، ومعابد مقامة في حمى أشجار الأرز الضخمة المعمرة ذات المنظر المقبض . وأديرة « البونز »[2] التي يعيش في أعماقها الكهنة البوذيون وأشياع الدين

١ – أقوام في إفريقيا الجنوبية.

٢ – رهبان بوذيون.

الكنفوشي ، عيشة خاملة ، وشوارع لا آخر لها ، يلعب فيها أطفال ذوو بشرة وردية وخدود حمراء ، وصبية يخيل للإنسان أنهم اقتطعوا من صورة على ستارة شعبية ، وهم جميعاً ، يمرحون وسط كلاب صغيرة ذات سيقان قصيرة وقطط يميل لونها إلى الصفرة ، لا ذيل لها ، شديدة الكسل كثيرة التدلل .

وكانت الشوارع تموج بالناس ، لا ينقطع سيرهم فيها ، فمنهم « بونز » ، يمرون في مواكب وهم يدقون طبولهم دقاً رتيباً مملاً ، ومنهم موظفون في الجمارك أو ضباط في الشرطة ، على رؤوسهم قبعات مدببة مكسوة باللاكيه ، ويحمل كل منهم سيفين في حزامه ، وجنود يلبسون ملابس قطنية زرقاء ذات خطوط بيضاء ويحملون بنادق ذات « كبسول » ، ورجال من حرس « الميكادو » ، ملتحفون بأرديتهم الحريرية وقمصانهم ذات الشبكة الحديدية ، وعدد من جنود آخرين من مختلف الأنواع . ذلك أن مهنة الجندي في اليابان موقرة بقدر ما هي في الصين محقرة . ثم يمر رهبان يجمعون الصدقات ، وحجاج في أرديتهم الطويلة ، وعامة الأهالي من ذوي الشعر الناعم الأسود كالفحم ، والرؤوس الكبيرة والصدور العالية ، والسيقان الدقيقة ، والقامات القصيرة ، والبشرة الملونة ، ابتداء من الألوان النحاسية القاتمة المتفاوتة حتى اللون الأبيض الكامد ، ولكنها ليست مطلقاً بالصفار الذي يظهر على بشرة الصينيين ، الذين يختلف عنهم اليابانيون في هذه الصفة على الأخص . وأخيراً ، وبين العربات ، والهوادج ، والخيول ، والحمالين ، وعربات اليد ذات الشراعات ، والعربات المبطنة باللاكيه ، وعربات « الكانجو » الناعمة ، وهي نوع من « التختروان » المصنوع من الخيزران ، كان يشاهد بعض النسوة يتجولن سائرات في خطوات قصيرة بأقدامهن الصغيرة وهن منتعلات أحذية من التيل ، أو صنادل من القش أو قباقيب من الخشب المشغول ، نسوة لسن بالجميلات ، ذوات عيون متكسرة ، وصدر منخفض ، وأسنان قاتمة ، ولكنهن يرتدين في تأنق ملابسهن الوطنية « الكيمون » ، وهي عبارة عن ثوب (روب دوشامبر) يلتف به وشاح من

الحرير ، وله حزام يفتح من الخلف مع عقدة ضخمة الحجم ، يبدو أن الباريسيات الحديثات قد اقتبسنها من اليابانيات .

وتجول پاسپارتو بضع ساعات وسط هذا الحشد غير المتجانس ، وهو ينظر إلى الحوانيت الغريبة الغنية ، والأسواق التي تكدست فيها كل المصوغات اليابانية البراقة ، والمطاعم المزدانة بالأعلام والبيارق ، والتي كان ممنوعاً عليه الدخول فيها ، وبيوت الشاي ، تلك التي يشرب فيها في الفنجان الماء الساخن المعطر ، مع شراب « الساكي » وهو شراب مأخوذ من الأرز المتخمر ، ومحال التدخين التي يدخن المرء فيها تبغاً نقياً جداً ، لا الأفيون الذي لا يكاد اليابانيون يعرفون طريقة تعاطيه .

ثم وجد پاسپارتو نفسه في المزارع وسط حقول الأرز الشاسعة . وهناك تتفتح الأزهار الجميلة التي تظهر بأبهى ألوانها وأحلى عطرها ، فتجد زهرة الكاميليا (أو وردة الشرق) المتألقة ، وهي ليست محمولة هنا على شجيرات ، وإنما على أشجار داخل سياج من الخيزران ، وأزهار نبات الكريز ، والبرقوق ، والتفاح ، الذي يزرعه الأهالي لا لفاكهته وإنما لأزهاره ، والذي تحميه من منقار العصافير والحمام والغربان وغيرها من الطيور الشرهة ، أشكال خشبية مقطبة الوجه ، وأذرع دوارة تصدر أصواتاً مزعجة . وما من شجرة أرز عظيمة إلا وتؤوي نسراً أو بضعة نسور . وما من شجرة صفصاف « رومي » إلا وقد غطت بأوراقها طائر « المالك الحزين » ، الذي يقف كئيباً على ساقه . وأخيراً ، فهناك في كل مكان غربان صغيرة وبط وباشق وأوز بري ، وعدد كبير من طائر الرهو « الكركي » الذي يبجله اليابانيون ويعدونه رمز السعادة والعمر الطويل .

وبينما كان پاسپارتو يتجول على هذه الحال ، لمح بعض أزهار البنفسج بين الأعشاب فقال : « حسناً! ها هو ذا عشائي »

على أنه لما شمها ، لم يجد لها أية رائحة عطرية .

ففكر قائلاً : « لا خير لي فيها! »

وكان هذا الشاب الأمين قد تناول - على سبيل الاحتياط - قبل أن يغادر الباخرة ، وجبة غذاء وافرة بقدر ما استطاع ، ولكنه بعد أن تنزه

يوماً كاملاً ، شعر بمعدته خاوية . وكان قد لاحظ أن الخرفان والماعز والخنازير لا وجود لها إطلاقاً بين معروضات محلات الجزارة الوطنية ، ولما كان يعلم أن الدين عند اليابانيين يحرم قتل البقر الذي لا يستخدم إلا في شؤون الزراعة ، فقد استنتج من ذلك أن اللحم نادر في اليابان . ولم يكن مخطئاً في ذلك ، ولكنه إذا انعدمت لحوم الأبقار فإن معدته كان يمكن أن تقنع بقطع من لحم الخنزير الوحشي أو الظباء أو طائر الحجل أو السمان ، أو الدواجن ، أو الأسماك التي يجعل منها اليابانيون غذاءهم الأساسي إلى جانب الأرز .

وأقبل الليل . ودخل پاسپارتو المدينة الوطنية ، وتسكع في الشوارع وسط المصابيح المتعددة الألوان ، وهو ينظر إلى فرق المهرجين التي كانت تؤدي تمريناتها العجيبة ، والمنجمين الذين كانوا في أماكن مكشوفة يجمعون الجمهور حولهم . ثم رأى الخليج وقد ازدان بأنوار الصيادين الذين كانوا يجذبون السمك إليهم بضوء الراتنج المشتعل .

وخلت الشوارع آخر الأمر من الناس وحل محل الجمهور حلقات من «الياكونين» ، أولئك الضباط الذين كانوا ، في أرديتهم الفاخرة ، وفي وسط حاشيتهم ، يشبهون سفراء الدول . وأخذ پاسپارتو يقول ويردد القول ، كلما مرت به جماعة متأنقة لامعة منهم : «هيا! حسناً! ها هي سفارة يابانية أخرى في طريقها إلى أوربا!»

٢٣
پاسپارتو يطيل أنفه لدرجة كبيرة

وفي اليوم التالي ، قال پاسپارتو لنفسه ، وقد نال منه الإعياء والجوع ، بأنه لا مفر من أن يأكل مهما كلفه الأمر ، وأن يأكل في أقرب وقت ممكن . وكان في استطاعته أن يبيع ساعته ، ولكنه كان يفضل أن يموت جوعاً ولا يبيعها . وسنحت حينئذ الفرصة للشاب الطيب ليستغل ذلك الصوت القوي ، إن لم يكن المشجي ، الذي جادت عليه الطبيعة به . وكان يعرف بعض الأغاني الفرنسية والإنجليزية ، فعزم على تجربة أدائها ، ولابد أن اليابانيين كانوا مولعين بالموسيقا مادام كل شيء عندهم يجري على أصوات الصنج وقرع الطبول ، ولا مفر لهم من أن يقدروا كل التقدير مواهب موسيقي أوربي .

ولكن ربما كان الوقت في ذلك الصباح مبكراً لتنظيم جوقة موسيقية ؛ ثم إن هواة الطرب الذين يستيقظون فجأة ، قد لا يدفعون للمغني شيئاً من تلك النقود المسكوكة بصورة الميكادو .

واستقر رأي پاسپارتو على أن ينتظر إذن بضع ساعات ، وطرأ له وهو سائر في الطريق ، أنه يبدو في ملابسه أوجه بكثير مما يجب أن يكون عليه فنان متجول ، وخطر له أن يستبدل بملابسه ثياباً رثة أكثر انسجاماً مع مهنته . ثم إن هذا الاستبدال لابد أن يأتيه ببعض النقود ،

من فرق الثمن ، تمكنه من أن يتغلب فوراً على جوعه .

واتخذ القرار ، ولم يبق له سوى التنفيذ . وبحث پاسپارتو طويلاً قبل أن يعثر على أحد تجار الأشياء المستعملة ، من المواطنين ، وأفضى إليه بطلبه . وأعجب التاجر بالحلة الأوربية ، وما لبث پاسپارتو أن خرج من محله مرتدياً ثوباً يابانياً وعلى رأسه عمامة مضلعة ، أزالت الأيام لونها . وفي مقابل ذلك كانت بعض قطع من النقود ترن في جيبه .

وفكر قائلاً : «حسناً ، سأتصور أنني في حفلة تنكرية!» .

وأول ما اهتم پاسپارتو بعمله ، بعد أن أصبح ياباني المظهر ، هو أن دخل داراً «من دور الشاي» المتواضعة المظهر ، وهناك تغدى بفضلات بعض الطيور الداجنة وببعض حفنات من الأرز ، غداء رجل أصبح يجد مسألة الطعام مشكلة لابد من حلها .

وقال لنفسه بعد أن أكل كثيراً وشبع : «والآن ، لا ينبغي أن أفقد صوابي . فلم يعد بوسعي أن أبيع هذا الثوب البالي في مقابل ثوب ياباني آخر ، أكثر يابانية منه ، ويجدر بي إذن أن أدبر أمري كي أغادر بأسرع ما يمكن بلاد الشمس التي لن أحتفظ لها إلا بذكرى أليمة!»

وخطر بباله حينئذ أن يزور البواخر المتأهبة للرحيل إلى أمريكا . وكان في عزمه أن يتقدم بصفته طاهياً أو خادماً ، وسوف لا يطلب عن ذلك أجراً سوى السماح له بالسفر والطعام . فإذا وصل إلى سان فرنسيسكو فإنه سوف يفكر في تدبير أمره . والأمر المهم في الوقت الحاضر هو اجتياز أربعة آلاف وسبعمائة ميل من المحيط الهادي ، تمتد بين اليابان والدنيا الجديدة .

ولم يكن پاسپارتو من أولئك الذين يتركون فكرة ما تذبل وتتراخى ، فقد اتجه نحو ميناء يوكوهاما . على أنه كلما كان يقترب من أحواض السفن ، أخذ مشروعه ، الذي ارتآه بسيطاً في البداية ، تتضح له شيئاً فشيئاً استحالة تنفيذه . فما حاجة باخرة أمريكية إلى خادم أو طاه ؟ وأي ثقة يوحي بها وهو في هذا الزي ؟ وأين هي التوصيات أو الشهادات التي يتقدم بها ؟

وبينما كان يفكر على هذا المنوال ، وقع نظره على لافتة كبيرة كان مهرج يحملها ويتجول بها في شوارع يوكوهاما . وكانت اللافتة تحمل الكتابة الآتية :

الفرقة البهلوانية اليابانية
لصاحبها
السيد المحترم وليم باتولكار
آخر حفلات العرض
قبل رحيل الفرقة إلى الولايات المتحدة الأميركية
لأصحاب الأنوف المستطيلة
تحت رعاية الإله تينجو مباشرة
عرض عظيم

وصاح پاسپارتو : «الولايات المتحدة الأميركية! هذا هو ما أقصده بالضبط!»

وسار خلف الرجل حامل اللافتة ، ودخل في أعقابه المدينة اليابانية . وبعد ربع ساعة توقف أمام سرادق كبير ، تعلوه عدة مجموعات من البيارق وعلى جدرانه الخارجية رسوم ، ذات ألوان قوية زاهية ، تمثل زمرة من المهرجين .

وكان هذا هو سرادق السيد المحترم «باتولكار» . وهو «بارنوم»[1] أمريكي يدير فرقة من المشعوذين والمهرجين والحواة والبهلوانات والرياضيين كانت ، كما تقول اللافتة ، تقدم استعراضاتها الأخيرة قبل أن تغادر أراضي إمبراطورية الشمس إلى الولايات المتحدة .

ودخل پاسپارتو رواقا يؤدي إلى مدخل السرادق وطلب مقابلة السيد باتولكار . وأهلَّ عليه السيد باتولكار بشخصه .

وقال لپاسپارتو الذي ظنه لأول وهلة يابانياً : «ماذا تريد ؟»

فسأله پاسپارتو : «هل أنت في حاجة إلى خادم ؟»

١ - اسم كان يطلق في القرن التاسع عشر على نوع من الدجالين أو المشعوذين الأمريكيين وأصبح الاسم رمزاً لكل مضارب جريء أو كل عارض غريب الأطوار.

فصاح «البارنوم» قائلاً ، وهو يداعب الشعر الكثيف الرمادي اللون الذي كان نامياً تحت ذقنه : خادم! إن عندي خادمين ، مطيعين ومخلصين لم يهجراني أبداً ، ويخدماني من غير مقابل ، على شرط أن أغذيهما . . . وها هما ذان . قال ذلك وهو يشير إلى ذراعيه القويتين اللتين تمتد على طولهما عروق غليظة كأوتار الكمان الكبيرة .

– أفليس في استطاعتي إذن أن أفيدك بشيء ؟

– كلا ، لا شيء .

– ياللشيطان! ومع ذلك فإن من صالحي كثيراً أن أرحل معك .

فقال باتولكار المحترم : «عجباً لو فرضنا أنك ياباني لكنت أنا قرداً! فلماذا إذن لبست هذه الملابس ؟»

– كل امرئ يلبس ما يستطيعه من الملابس .

– هذا صحيح ، هل أنت فرنسي ؟

– نعم ، باريسي من أهل باريس .

– إذن لابد أنك تعرف كيف تلعب بتقاطيع وجهك ؟

فأجاب پاسپارتو وهو مغيظ إذ يرى كيف توحي جنسيته بمثل هذا السؤال : «وشرفي ، إننا نحن الفرنسيين ، نعرف كيف نلعب بوجوهنا وهذا صحيح ، وإنما لسنا في ذلك أحسن منكم ، معشر الأمريكيين» .

– تماماً ، حسناً ، إذا لم آخذك بصفة خادم فإنني أستطيع أن آخذك بصفة مهرج ، هل فهمت يا عزيزي ؟ في فرنسا ، يعرضون المضحكين الأجانب ، وفي خارج فرنسا يعرضون المضحكين الفرنسيين!

– آه!

– هل أنت إلى جانب ذلك قوي البنية ؟

– نعم ، وعلى الأخص عندما أقوم من مائدة الطعام .

– ويمكنك أن تغني ؟

فأجاب پاسپارتو ، وقد اشترك بالغناء فيما مضى مع بعض الفرق الجوالة في الطرقات : «نعم» .

– ولكن هل تستطيع أن تغني وأنت خافض الرأس ، ونحلة تدور

على أخمص قدمك اليسرى ، وسيف قائم تماماً على أخمص قدمك اليمنى ؟

فأجاب پاسپارتو الذي أخذ يتذكر التمرينات الأولى التي كان يقوم بها أيام صباه : «نعم وربي!»

فأجاب باتولكار الموقر : «نعم ، هذا هو كل المهم في الأداء» .

وتم التعاقد في الحال .

وأخيراً وجد پاسپارتو عملاً . فقد دخل في خدمة الجوقة اليابانية المشهورة ليؤدي كل الأعمال فيها . ولم يكن هذا بالعمل المغري ، ولكنه سوف يكون في طريقه إلى سان فرنسيسكو قبل انقضاء ثمانية أيام .

وكان العرض الذي أعلن عنه باتولكار المحترم بطريقة مدوية ، قد حدد لبدئه الساعة الثالثة . وما لبثت الآلات الهائلة لفرقة موسيقية يابانية ، ومن بينها طبول مختلفة ، أن أخذت تصدح عند الباب . ومن البدهي أن پاسپارتو لم يكن في استطاعته أن يستوعب دوراً يؤديه ، وإنما كان عليه أن يسهم بكتفيه القويتين في العرض الكبير «العنقود البشري» الذي يؤديه ذوو «الأنوف الطويلة» من أتباع الإله «تنجو» وكان هذا «المشهد العظيم» من مشاهد العرض خاتمة سلسلة الألعاب .

وقبل تمام الساعة الثالثة ، كان جمهور النظارة قد غزا السرادق المتسع . واندفع الرجال والنساء والأطفال ، أوربيون ومواطنون ، صينيون ويابانيون على المقاعد الخشبية الضيقة وفي المقصورات المواجهة للمسرح ، وكان الموسيقيون قد دخلوا السرادق ، وأخذت فرقتهم ، بكامل هيئتها ، ومعهم طبول نحاسية وطبول هندية . وطبول كبيرة وأخرى صغيرة ، وطقاطيق ومزامير ، أخذت تعزف بقوة وحمية .

وكان مثل هذا العرض مثل كل الألعاب البهلوانية . على أنه يجب الاعتراف بأن اليابانيين هم أبرع البهلوانات في العالم . فقد قام أحدهم بعرض اللعبة البديعة ، لعبة الفراش والأزهار ، وقد تزود بمروحته ، وبقطع صغيرة من الورق . ورسم لاعب آخر في الهواء ، بسرعة ، وبدخان غليونه المعطر ، سلسلة من كلمات زرقاء اللون تشكل تحية

موجهة للجمهور . وطفق ثالث يلعب ، بمهارة وخفة ، بشموع موقدة ، يطفئها على التوالي كلما مرت أمام شفتيه ثم يشعلها ثانية دون أن يتوقف لحظة واحدة عن لعبته الساحرة . ولعب رابع بنحلات دوارة ، يعمل بها تشكيلات لا يصدقها العقل . فهذه الآلات الطنانة تبدو تحت يده ، وكأنها تحيا حياة خاصة بها ، وهي تدور دوراتها التي لا تنتهي ، فهي تجري على أنابيب الغليون ، وعلى حد السيوف ، وعلى أسلاك حديدية ، ممتدة كالشعور من جانب من جوانب المسرح إلى الجانب الآخر ، ثم هي تدور حول أوان كبيرة من البللور ، وترقى سلالم من الخيزران ، وهي تتفرق في كل الأركان منتجة ألحاناً منسجمة ذات طابع عجيب ، إذ تتآلف الأصوات المختلفة الصادرة منها . وأخذ اللاعبون يلعبون بها ، وهي تدور في الهواء . وكانوا يقذفونها بمضارب خشبية وكأنها كرات ذات ريش . كانت تدور ولا تنقطع عن الدوران ، يدخلونها في جيوبهم ، ثم يخرجونها وما زالت تدور . وتظل تدور حتى اللحظة التي يرتخي فيها لولب فتنطلق في باقات مشتعلة!

ولا يتسع المجال هنا لوصف الألعاب الساحرة التي يقوم بها بهلوانات الفرقة . فكانت ألعاب السلم والقصبة والكرة والبراميل وغيرها تؤدى بدقة فائقة . على أن المشهد الرئيس للعرض كان استعراض «ذوي الأنوف الطويلة» وهم من البهلوانات المدهشين الذين لم تعرفهم أوربا بعد .

وكان ذوو الأنوف الطويلة هؤلاء يكونون نقابة خاصة بهم تحت رعاية الإله «تنجو» مباشرة .

وكان كل واحد منهم يحمل جناحين كبيرين عند كتفيه ، ويرتدون ملابس أبطال العصور الوسطى . على أن ما كان يميزهم بوجه خاص هو ذلك الأنف الطويل الذي كان يزين وجوههم ، ثم طرق استعمالهم له . ولم تكن هذه الأنوف سوى قطع من الغاب الهندي طولها خمسة أقدام أو ستة وقد تبلغ عشرة أقدام ، بعضها مستقيم والبعض الآخر منحن ، وبعضها أملس والبعض الآخر كثير البثور . فعلى هذه الزوائد المثبتة

تثبيتاً متيناً كانت تجرى كل تمرينات التوازن . فكان يرقد اثنا عشر شخصاً من أتباع الإله «تنجو» على ظهورهم ويأتي زملاؤهم ينقضون فوق أنوفهم المرفوعة كالأعمدة المانعة الصواعق ، فيدورون ويقفزون من أنف إلى آخر ويؤدون أدواراً لا يكاد يصدقها العقل .

وكان قد أعلن على الجمهور بوجه خاص ، كخاتمة للعرض ، مشهد «الهرم البشري» الذي يقوم فيه ما يقرب من خمسين من ذوي الأنوف الطويلة بتمثيل «عربة جاجرنو» . على أنه بدلاً من أن يقوم فنانو السيد «باتولكار» بتشكيل الهرم بالارتكاز على أكتافهم ، كان عليهم أن يستندوا على أنوفهم . ولما كان واحد من أولئك الذين يشكلون قاعدة العربة قد غادر الفرقة ، وكان يكفي لأداء دوره أن يكون اللاعب قوي البنية ثابت الجنان ، فقد اختير پاسپارتو ليحل محله .

ولابد من أن الشاب الفاضل كان في حالة يرثى لها ، إذ تذكر أيام صباه ، ثم رأى نفسه يرتدي هذا الزي من ملابس العصور الوسطى ، المزين بأجنحة متعددة الألوان ، وقد ركب أنفاً طوله ستة أقدام على وجهه! ولكن هذا الأنف كان مع ذلك مورد رزقه ، وقد ارتضاه هو لنفسه .

ودخل پاسپارتو المسرح ، وانضم إلى زملائه الذين عليهم أن يشكلوا قاعدة «عربة جاجرنو» . وتمدد الجميع على الأرض وأنوفهم مرفوعة إلى السماء . وجاءت مجموعة ثانية من البهلوانات واستلقوا على تلك الزوائد الطويلة ، ثم مجموعة ثالثة ، ثم رابعة ، وفوق تلك الأنوف ، التي لم تكن لتمس إلا من أطرافها ، ارتفع بناء آدمي قد شارف طنف المسرح .

وبينما ارتفعت الهتافات واشتدت ودوت الآلات الموسيقية كهزيم الرعد ، إذ بالهرم يتداعى ، واختل التوازن ، فقد تخلف أحد أنوف القاعدة وانهار البناء كأنه قصر من الورق . . .

وكان ذلك يرجع إلى پاسپارتو ، الذي ترك مكانه وعبر الحاجز الأمامي للمسرح دون أن يستعين بجناحيه ، وصعد إلى الرواق الأيمن من أعلى المسرح ، ثم سقط على قدمي أحد المتفرجين وهو يصيح :

– آه يا سيدي ، يا سيدي!
– أنت ؟
– نعم أنا .
– حسناً! مادام الأمر كذلك فهيا بنا إلى الباخرة يا ولدي .

واندفع پاسپارتو . يرافقه السيد فوج والسيدة أوودا ، في الممرات إلى خارج السرادق . وهناك وجدوا السيد «باتولكار» ، ثائراً ، يطالبهم بتعويض عن الضرر الناتج من «قطع المشهد» . وهدأ فوج ثورته بأن ألقى إليه برزمة من الأوراق المالية . وفي السادسة والنصف ، وطأ السيد فوج والسيدة أوودا بأقدامهما ظهر الباخرة ، في اللحظة التي كانت تستعد فيها للرحيل ، يتبعهم پاسپارتو ، وجناحاه على ظهره ، وعلى وجهه ذلك الأنف الذي يبلغ طوله ستة أقدام والذي لم يتمكن بعد من نزعه من على وجهه!

٢٤
إتمام رحلة المحيط الهادي

من السهل إدراك ما حدث أمام ساحل شانجهاي . فإن الإشارات التي أرسلتها السفينة «لاتانكادير» قد لمحتها باخرة يوكوهاما ، فلما رأى ربانها العلم المنكس على السفينة الصغيرة ، اتجه نحوها ، وبعد بضع لحظات ، دفع السيد فوج أجر السفينة المتفق عليه ، فوضع في جيب صاحبها «جون بنسبي» خمسمائة وخمسين جنيهاً (١٣٧٥٠ فرنكاً ذهبياً) . ثم صعد السيد المحترم ومعه السيدة أوودا وفيكس على ظهر الباخرة التي سارت في طريقها في الحال إلى ناجازاكي ويوكوهاما .

ولما وصل فيلياس فوج إلى يوكوهاما في الصباح نفسه ، في اليوم الرابع عشر من نوفمبر ، في الساعة المحددة ، ترك فيكس ينصرف إلى شأنه ، وصعد إلى ظهر الباخرة «لوكارناتيك» ، وعلم هناك النبأ الذي فرحت له السيدة أوودا فرحاً كبيراً ، وربما فرح له هو أيضاً ، ولو أنه لم يترك للفرح أثراً على محياه ، ذلك أن الفرنسي پاسپارتو قد وصل فعلاً البارحة في الباخرة إلى يوكوهاما .

ولما كان على السيد فوج أن يبحر حتماً في المساء نفسه إلى سان فرنسيسكو ، فإنه أخذ في الحال يبحث عن خادمه ، فاتصل بممثلي القنصليات الفرنسية والإنجليزية ، بلا جدوى . وبعد أن طاف عبثاً

بشوارع يوكوهاما . وكان قد تملكه اليأس من العثور على پاسپارتو ، دفعته المصادفة ، وربما دفعه الشعور الداخلي ، إلى الدخول في سرادق السيد « باتولكار » . ولم يكن ليستطيع قطعاً التعرف على خادمه في لباسه الشاذ « لباس بشير الحرب في العصور الوسطى » . على أن الخادم قد لمح سيده جالساً في أعلى المسرح . بينما كان هو في وضعه المقلوب على المسرح . ولم يستطع أن يتدارك حركة صدرت من أنفه ، ونتج عنها اختلال التوازن وما تلاه من أحداث .

هذا ما سمعه پاسپارتو من فم السيدة أوودا التي روت له كيف تمت الرحلة من هونج كونج إلى يوكوهاما في صحبة السيد فيكس على ظهر السفينة الصغيرة « لاتانكادير » .

ولم تطرف عين پاسپارتو عند سماعه اسم فيكس . فقد تراءى له أن الوقت لم يحن بعد ليقص على سيده ما حدث بينه وبين مفتش الشرطة . ولذلك فإنه في الرواية التي حكاها عن مغامراته ، اتهم نفسه واعتذر عن التخدير الذي فاجأه في محل للتدخين في يوكوهاما .

وأنصت السيد فوج في برود إلى روايته . ولم يجبه بشيء . ثم أعطى خادمه ما يكفي من المال ليشتري ، على ظهر السفينة ، ملابس لائقة به . ولم تمض في الواقع ساعة من الزمان ، حتى لم يعد على الشاب الأمين ، بعد أن قطع أنفه الطويل وقص جناحيه ، أي أثر يدل على ذلك التابع لشيعة الإله « تنجو » .

وكانت الباخرة القائمة بالرحلة من يوكوهاما إلى سان فرنسيسكو تابعة لشركة « بواخر بريد المحيط الهادي » ، وتسمى « الجنرال جرانت » . وكانت سفينة بخارية كبيرة ذات رفاصات ، حمولتها ألفان وخمسمائة طن ، مجهزة تجهيزاً حسناً ، ولها سرعة كبيرة . وكان بها « رفاص » ضخم يرتفع وينخفض على التوالي فوق سطحها ، يتحرك على أحد طرفيها ساق الكباس وعلى الطرف الثاني قطعة من آلة تنطبق مباشرة على عمود العجلات إذ تحول الحركة المستقيمة إلى حركة دائرية . وكانت الباخرة « جنرال جرانت » هذه مزودة بثلاثة صوار .

ولها مسطح شاسع من الشراعات يساعد البخار في عمله مساعدة كبيرة . وهي إذا سارت بسرعتها ، وتقدر باثني عشر ميلاً في الساعة ، فإنها لا تستغرق أكثر من أحد عشر يوماً لعبور المحيط الهادي . وكان طبيعياً إذن أن يعتقد فيلياس فوج أنه إذا وصل سان فرنسيسكو في اليوم الثاني من ديسمبر ، فإنه سوف يكون في نيويورك في اليوم الحادي عشر وفي لندن في اليوم العشرين ، فيتقدم بضع ساعات على الموعد المحتوم ، وهو اليوم الحادي والعشرون من ديسمبر .

وكان على ظهر الباخرة عدد كبير من الركاب ، منهم بعض الإنجليز ، والكثير من الأمريكيين وسيل من المهاجرين إلى أمريكا من العمال الهنود والصينيين ، وعدد من ضباط جيش الهند الذين يستغلون إجازتهم في الطواف حول العالم .

ولم يقع أي حادث بحري خلال هذه الرحلة ، ولم تتمايل الباخرة إلا قليلاً ، وهي تسيرة معتمدة على طاراتها الكبيرة ، وتدفعها شراعاتها القوية . وأثبت المحيط الهادي أنه جدير بالاسم الذي أطلق عليه . وكان السيد فوج هادئاً هو الآخر . وكان كعادته قليل الاختلاط بالناس . وشعرت زميلته الشابة أنها تزداد ارتباطاً به بروابط أخرى خلاف العرفان بالجميل . وكانت طبيعته الساكنة الكريمة بوجه عام ، قد أثرت في نفسها تأثيراً أبعد مما كانت تعتقد . وقد استسلمت ، على غير وعي منها ، إلى مشاعر لم يبد على فوج الغامض أنه قد تأثر بأي منها .

ثم إن السيدة أوودا قد أخذت تهتم اهتماماً كبيراً بمشروعات السيد الفاضل . فكانت تتلق من العقبات التي تصادف الرحلة فتعرضها للفشل . وكثيراً ما كانت تتحدث مع پاسپارتو الذي لم يفته أن يطالع ، خلال تلك الأحاديث ، ما كان يختلج به قلب السيدة أوودا . وأصبح الشاب الطيب كبير الثقة بسيده . ولم يكن لينضب معينه في مدح سيده على أمانته وسخائه وإخلاصه . ثم إنه كان يطمئن السيدة أوودا على مصير الرحلة ، ويكرر لها القول إن أصعب ما فيها قد انقضى ، وأنهم قد خرجوا من تلك البلاد الخيالية ، بلاد الصين واليابان ، وإنهم عائدون إلى البلاد المتحضرة ،

وإنه في نهاية الأمر سوف يكفي قطار من سان فرنسيسكو إلى نيويورك ثم باخرة تعبر المحيط من نيويورك إلى لندن لإنهاء هذه الرحلة الشاذة التي تبدو مستحيلة حول العالم في المواعيد المتفق عليها .

ولما مضت تسعة أيام على مغادرة فيلياس فوج ليوكوهاما ، كان قد اجتاز نصف مدار الكرة الأرضية تماماً .

ففي اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر ، كانت الباخرة «الجنرال جرانت» قد مرت فعلاً بخط الطول المائة والثمانين ، وهو الخط الذي تقع عليه ، في نصف الكرة الجنوبي ، النقط المقابلة بدقة لموقع مدينة لندن . وكان السيد فوج قد قضى ، في واقع الأمر ، اثنين وخمسين يوماً من الثمانين يوماً التي وضعت تحت تصرفه ، ولم يبق لديه سوى ثمانية وعشرين يوماً يقضيها لإتمام رحلته . ولكن يلزم التنويه بأنه إذا كان السيد المحترم قد أصبح في منتصف الطريق فقط بحساب خطوط الطول ، فإنه قد أتم في الواقع أكثر من ثلثي المسافة كلها . فكم من منعطفات قهرية اضطر في الواقع إلى السير فيها ، من لندن إلى عدن ، ومن عدن إلى بومباي ومن كلكتا إلى سنجابور ، ومن سنجابور إلى يوكوهاما! فلو أنه سار في خط دائري على خط العرض الخمسين ، وهو خط لندن ، فإن المسافة لم تكن لتتجاوز اثني عشر ألف ميل تقريباً ، بينما اضطر فيلياس فوج بسبب نزوات طرق المواصلات إلى أن يجتاز ستة وعشرين ألف ميل ، قطع منها حتى ذلك اليوم ، الثالث والعشرين من نوفمبر ، حوالي سبعة عشر ألف ميل . ولكن الطريق الآن أصبحت مستقيمة ، ولم يعد معهم فيكس حتى يقيم في طريقهم العقبات .

وحدث أيضاً في ذلك اليوم الثالث والعشرين من نوفمبر ، أن شعر باسپارتو بفرح عظيم . فنحن نذكر أن ذلك الشاب العنيد كان يصر على الاحتفاظ بساعته ، ساعة الأسرة المشهورة ، مضبوطة على وقت لندن ، معتبراً أن ساعات البلاد كلها التي يجتازها خاطئة . ففي ذلك اليوم ، كانت ساعته مطابقة الساعة «الكرونومترية» الخاصة بالسفينة ، بالرغم من أنه لم يقدم ساعته ولم يؤخرها مطلقاً .

وهكذا شعر باسپارتو بفرحة النصر ، وهذا أمر يسهل فهمه ، وكم كان بوده أن يرى ما سوف يقوله فيكس لو كان حاضراً معه في ذلك الوقت .

وأخذ باسپارتو يردد في نفسه قائلاً : «هذا الوغد الذي كان يروي ما يرويه عن خطوط الطول ، وعن الشمس والقمر! هكذا! يا ويح هؤلاء الناس! يا ويل الساعات لو صدق الناس ما يقولون! لقد كنت واثقاً من أن الشمس سوف يستقر بها الأمر في يوم من الأيام إلى أن تضبط مواعيدها طبقاً لساعتي! »

وكان باسپارتو يجهل الحقيقة الآتية : ذلك أنه إذا كان وجه ساعته مقسماً إلى أربع وعشرين ساعة مثل الساعة الإيطالية ، فلن يكون لديه ما يبعث على التمتع بفرحة النصر ، لأن عقارب ساعته حين كان الوقت في ذلك اليوم على ظهر السفينة ، التاسعة صباحاً ، كانت ولابد مشيرة إلى التاسعة مساء ، أي الساعة الحادية والعشرين ، اعتباراً من منتصف الليل ، وهذا الفرق يساوي الفرق الزمني الموجود بين لندن وخط الطول المائة والثمانين .

على أنه إذا كان فيكس قادراً على أن يشرح هذه الحقيقة الطبيعية البحتة ، فإن باسپارتو لم يكن في مقدوره ذلك ، لم يكن ليفهمها ، ولا أن يسلم بصحتها على الأقل .

على أنه إذا حدث المستحيل ، وظهر مفتش الشرطة بغتة في تلك اللحظة على ظهر السفينة ، فإنه من المحتمل أن باسپارتو ، وهو يضمر له حقداً له ما يبرره ، قد يسوي معه ، وبوسيلة أخرى ، أموراً تختلف عن هذا الأمر كل الاختلاف .

فأين كان فيكس في تلك اللحظة ؟

كان فيكس في تلك اللحظة على ظهر الباخرة «الجنرال جرانت»!

فقد حدث أن الشرطي ، عندما وصل إلى يوكوهاما ، ترك السيد فوج ، وفي نيته أن يلقاه ثانية خلال ذلك اليوم ، وتوجه في الحال إلى دار القنصل الإنجليزي حيث وجد أخيراً أمر القبض الذي كان يتبعه من بومباي ، والذي مضى على تاريخ إصداره أربعون يوماً ، ذلك الأمر الذي

أرسل إليه من هونج كونج . ورحل في السفينة « لوكارناتيك » نفسها التي كان يظن أنه سافر على ظهرها . فياالخيبة أمل الشرطي! لقد أصبح أمر القبض عديم الجدوى! فقد غادر السيد فوج الأملاك البريطانية! ولابد الآن من استصدار أمر بتسليم المجرم حتى يمكن القبض عليه!

وقال فيكس لنفسه بعد انقضاء لحظة الغضب الأولى : فليكن! إن هذا الأمر الذي بيدي لم يعد نافذاً هنا . ولكنه سوف يكون كذلك في إنجلترا . ويبدو جلياً أن هذا الوغد سوف يعود إلى وطنه معتقداً أنه قد ضلل الشرطة . هذا حسن سوف أتبعه حتى هناك . أما المال المسروق فأدعو الله أن يبقى منه شيء! ولكن الرجل قد بدد أكثر من خمسة آلاف جنيه في الطريق . في نفقات الرحلات . والمكافآت . والقضايا والغرامات . والفيلة . وفي المصروفات المختلفة . وعلى كل فإن البنك غني!

ولما اتخذ قراره . ركب الباخرة « الجنرال جرانت » . وكان على ظهرها حين وصل إليها السيد فوج والسيدة أوودا . وكم كانت دهشته حين تعرف على پاسپارتو في زي أهل العصور الوسطى . فاختبأ في الحال في غرفته . حتى يتحاشى كل استجواب يفسد خطته . وكان يعتمد على كثرة الركاب . لكيلا يراه عدوه . ومع ذلك فقد وجد نفسه في ذلك اليوم أمامه وجهاً لوجه في مقدمة السفينة .

وأطبق پاسپارتو على رقبة فيكس . ولم يوجه إليه سؤالاً واحداً . وكم كان سرور بعض الأمريكيين الذين أقبلوا يتراهنون مؤيدين پاسپارتو حين رأوه يكيل للمفتش المسكين لكمات هائلة أثبتت تفوق رياضة الملاكمة في فرنسا عنها في إنجلترا .

وما أن انتهى پاسپارتو حتى هدأ نفساً . وكأن ألما به قد زال وتحامل فيكس على نفسه ونهض . وهو في حالة سيئة . ونظر إلى غريمه وقال له ببرود :

- هل انتهيت ؟
- نعم ، مؤقتاً .
- إذن تعال وحادثني .

- أحادثك . . .
- نعم . في شأن يهم سيدك .

وتبع پاسپارتو مفتش الشرطة . وكأنه قد استكان لرباطة الجأش التي بدت على الأخير . وجلس الاثنان في مقدمة السفينة .

قال فيكس : « لقد ضربتني ضرباً مبرحاً . هذا حسن . وكنت أتوقع منك ذلك . والآن استمع إلي . لقد كنت حتى اليوم خصم السيد فوج . ولكني أصبحت الآن شريكاً له في خطته » .

فصاح پاسپارتو : « أخيراً! أتعتقد الآن إذن أنه رجل شريف ؟ »

فأجاب فيكس ببرود : « كلا . إنني أعتقد أنه نذل . صه! لا تتحرك ودعني أتكلم . مادام السيد فوج كان في الممتلكات الإنجليزية . فإنه كان من صالحي أن أحجزه انتظاراً لوصول أمر القبض عليه . وقد بذلت كل ما كان في وسعي لهذا الغرض : فقد أطلقت في أثره كهنة بومباي . وخدرتك في هونج كونج . وأبعدتك عن سيدك . وفوتُّ عليه باخرة يوكوهاما . . »

وأنصت إليه پاسپارتو وقد انطبقت يداه .

واسترسل فيكس يقول : « والآن . هل يبدو أن السيد فوج عائد إلى انجلترا ؟ فليكن . سأتبعه حتى هناك . ولكني منذ الآن سوف أبذل من الجهد والعناية في إزالة العقبات من طريقه بقدر ما كنت أبذله من قبل في إقامة تلك العقبات . فها أنت ذا ترى أن خطتي قد تغيرت . وأنها تغيرت الآن لأن مصلحتي تتطلب ذلك . وأضيف إلى هذا . أن مصلحتك هي مصلحتي . لأنك سوف لا تعرف إلا في انجلترا ما إذا كنت في خدمة مجرم أو في خدمة رجل شريف!

وأنصت پاسپارتو في انتباه شديد إلى ما قاله فيكس . واقتنع بأنه كان يتكلم كلاماً ينطوي على صفاء الطوية .

وسأله فيكس : « أنحن صديقان ؟ »

فأجاب پاسپارتو : « كلا . لسنا بصديقين . ولكننا حليفان . مادامت مصالحنا اتحدت . فإنني ، عند أول بارقة للخيانة تبدر منك سوف ألوي رقبتك » .

فقال مفتش الشرطة في هدوء : «اتفقنا» .

وانقضى أحد عشر يوماً . وفي اليوم الثالث من ديسمبر ، دخلت الباخرة «الجنرال جرانت» خليج «پورت دور» ووصلت إلى سان فرنسيسكو .

ولم يكن السيد فوج قد ربح أو خسر يوماً واحداً .

٢٥
لمحة وجيزة عن سان فرنسيسكو
في يوم اجتماع شعبي

كانت الساعة السابعة صباحاً حين نزل فيلياس فوج والسيدة أوودا وپاسپارتو إلى أرض القارة الأميركية – لو كان من المستطاع أن نطلق هذه التسمية على ذلك الرصيف العائم الذي نزلوا عليه . وكانت تلك الأرصفة التي ترتفع وتنخفض مع حركة المد والجزر تسهل عمليات شحن السفن وتفريغها . وإليها تربط السفن الشراعية من كافة الأحجام ، والسفن البخارية من جميع الجنسيات ، والزوارق البخارية ذات الطوابق المتعددة التي تجوب نهر «ساكرمنتو» وروافده . وعلى تلك الأرصفة تتكدس البضائع التي تتناولها تجارة تمتد إلى المكسيك ، وبيرو ، وشيلي ، والبرازيل ، وأوربا ، وآسيا ، وإلى كافة جزر المحيط الهادي .

واعتقد پاسپارتو ، وقد هزه الفرح إذ وصل أخيراً إلى الأرض الأميركية ، أن عليه أن يبرح السفينة في قفزة خطيرة رائعة الأداء . ولكنه حينما حط على الرصيف الذي كانت أرضيته بالية ، كاد ينقلب ، واضطرب ، فانطلقت منه صرخة شديدة ، طارت بسببها تلك الجماعات التي لا حصر لها من الطيور البحرية والبجع ، وهي ضيوف اعتادت أن تحط على هذه الأرصفة المتحركة .

وما أن نزل السيد فوج من السفينة حتى استعلم عن الوقت الذي

يقوم فيه أول قطار مسافر إلى نيويورك ، فعلم أنه يقوم في السادسة مساء . وكان أمام السيد فوج على ذلك يوم كامل يقضيه في عاصمة كاليفورنيا . فاستقدم عربة ، له وللسيدة أوودا ، وصعد پاسپارتو على مقعد العربة . وسارت العربة ، وأجرها ثلاثة دولارات للجولة الواحدة ، قاصدة فندق « إنترناشيونال » .

وأخذ پاسپارتو يرقب في فضول ، من المكان المرتفع الذي كان يجلس فيه ، تلك المدينة الأمريكية الكبيرة ، ذات الشوارع العريضة ، والمنازل المنخفضة القائمة في صفوف منتظمة ، والكنائس والمعابد المشيدة على النمط القوطي الأنجلو سكسوني ، والمخازن البحرية الشاسعة ، ومستودعات البضائع الجمركية التي تشبه القصور ، فمنها ما صنع من الخشب ومنها ما بني بالآجر . وفي الشوارع عربات عديدة ، وسيارات ركاب ، وعربات ترام ، ولا تموج الأرصفة بالأمريكيين والأوربيين فحسب ، وإنما بالصينيين والهنود أيضاً .

ودهش پاسپارتو مما رأى ، فقد كانت تلك المدينة في مخيلته لا تزال مدينة الأساطير ، التي كانت في عام ١٨٤٩ بلد اللصوص ومثيري القلاقل والفتن ومشعلي الحرائق والقتلة ، أولئك الذين كانوا يسارعون إلى غزو مناطق الذهب ، كانت مأوى لمن لفظهم المجتمع ، يلعبون فيها بتراب الذهب ، وفي إحدى يديهم مسدس ، وفي اليد الأخرى سكين . على أن هذه العصر الذهبي قد انقضى واتخذت سان فرنسيسكو مظهر المدينة التجارية ، وكان برج دار البلدية الشاهق ، وفيه من يسهر على مراقبة المدينة ، يشرف على كل تلك المجموعة من الشوارع الصغيرة والكبيرة التي تتقاطع في خطوط عمودية تقوم بينها حدائق صغيرة خضراء ، تليها مدينة صينية كانت تبدو وكأنها قد وردت من « الإمبراطورية السماوية » داخل صندوق للعب . ولم يعد الإنسان يرى قبعات اللباد ذات الحافة العريضة « سومبريرو » ، ولا القمصان الحمراء التي كان يرتديها الباحثون عن الذهب ، ولا الهنود الحمر الذي غطوا أجسامهم بالريش ، وإنما قبعات من الحرير ، وملابس سوداء يرتديها

عدد كبير من السادة المهذبين الذين كانوا يتسمون بنشاط ملتهب . وكانت بعض الشوارع ، ومن بينها شارع « مونتيجومري » ، وشارع « ريجنت » اللندني ، وشارع « الإيطاليين » الپاريسي ، وشارع « برودواي » النيويوركي ، تحده حوانيت فاخرة تعرض فيما تعرضه منتجات واردة من كافة أنحاء العالم .

ولما وصل پاسپارتو إلى فندق « إنترناشيونال » ، خيل إليه أنه مازال موجوداً في إنجلترا ، لم يبرحها بعد .

وكان الدور الأرضي للفندق يضم « بارا » فسيحاً ، هو عبارة عن مقصف مباح بالمجان لجميع الرواد ، تقدم فيه اللحوم الجافة وحساء المحار ، والبسكويت والجبن الشستر ، دون أن يفتح المستهلك نظير ذلك كله كيس نقوده . وإنما كان عليه أن يدفع ثمن شرابه ، شراب الإيل أو البورتو أو الإكزيريس ، إذا طاب له أن يتناول ما يرطب به جوفه . وبدت هذه الظاهرة لپاسپارتو خاصة من خصائص الشعب الأميركي .

كان مطعم الفندق مريحاً . وجلس السيد فوج والسيدة أوودا إلى مائدة ، وقام زنوج سود ، شديدو السواد ، بتقديم طعام وافر في أطباق صغيرة جداً .

وبعد الغداء قام فيلياس فوج تصحبه السيدة أوودا ، وغادر الفندق قاصداً مكاتب القنصل الإنجليزي للتأشير على جواز سفره . وقابل على رصيف الشارع خادمه الذي قال له إن الفطنة تقتضيه أن يشتري بضع عشرات من غدارات « أنفيلد » أو من مسدسات « كولت » قبل ركوب قطار « الپاسفيك » الحديدي ، فقد سمع پاسپارتو ، عن قوم « السيوكس » و« الپونيز » الذين كانوا يوقفون القطارات كما يفعل اللصوص الأسپان . فأجاب السيد فوج أن هذا الاحتياط لا داعي له . ولكنه صرح لخادمه في أن يتصرف كما يحلو له ثم سار في طريقه إلى مكاتب القنصل .

وما كاد فوج يسير مائتي خطوة ، حتى قابل ، بمحض المصادفة العجيبة ، فيكس . وبدا المفتش وكأنه فوجئ بهذا اللقاء . فكيف كان

ذلك ؟ لقد اجتاز الاثنان معاً المحيط الهادي ، ومع ذلك فلم يتقابلا على ظهر السفينة! وعلى كل حال فلم يكن من فيكس إلا أن عبر عن سعادته وتشرفه برؤية السيد المهذب الذي كان يدين له بالشيء الكثير ، وصرح بأنه لما كانت أعماله تدعوه إلى الذهاب إلى أوروبا ، فإنه لمن دواعي سروره أن يواصل رحلته في مثل هذه الرفقة الطيبة .

وأجاب السيد فوج بأنه هو الذي يتشرف كل الشرف بهذه المقابلة . ولما كان فيكس قد عقد العزم على ألا يدعه يغيب عن ناظريه فقد استأذنه في أن يقوم معه بزيارة تلك المدينة العجيبة ، مدينة سان فرنسيسكو ، فأذن له فوج بمرافقته .

وهاهم أولاء السيدة أوودا وفيلياس فوج وفيكس يتجولون في الشوارع . ومالبثوا أن وجدوا أنفسهم في شارع مونتيجومري حيث كان ازدحام الجمهور شديداً . كان هناك حشد لا حصر له على الأرصفة وفي وسط الطرقات وعلى قضبان الترام ، بالرغم من كثرة مرور العربات والسيارات العامة ، ثم حشود أخرى عند أبواب الحوانيت وفي نوافذ المنازل كلها . وكان هناك رجال يحملون لافتات يسيرون في وسط الجماعات . وكانت البيارق والأعلام ترفرف في الهواء . وارتفعت الصيحات من جميع الجهات :

– «النصر لكامرفيلد!»

– «النصر لمانديبوي!»

وكان هذا اجتماعاً ، فيما ارتآه فيكس على الأقل ، فأسر بفكرته إلى السيد فوج ، ومضى يقول :

«ربما كان من الأفضل يا سيدي أن نتجنب هذه الغوغاء ، فلن ينالنا منها إلا شر مستطير» .

فأجاب فيلياس فوج : «هذا صحيح ، وإن اللطمات التي تكيلها قبضة اليد ، حتى ولو كانت لأغراض سياسية ، ليست سوى لطمات!»

واعتقد فيكس أن من واجبه أن يبتسم لدى سماعه تلك الملحوظة ، ولكي يبتعد فيلياس فوج والسيدة أوودا وفيكس عن المعركة ، فإنهم

استقروا فوق سطح درج علوي يوصل إلى شرفة تطل على شارع مونتيجومري . وامتد أمامهم ، على الجانب المقابل من الشارع بين رصيف محل تاجر للفحم ومخزن أحد تجار البترول ، مكتب كبير قائم في الهواء الطلق ، وكانت وفود الجماهير المختلفة تبدو وكأنها تتجه إليه .

فماذا يا ترى كان الغرض من هذا الاجتماع ؟ ولأي مناسبة عقد ؟ كان فيلياس فوج يجهل هذا الأمر كل الجهل . فهل كانت المسألة تتعلق بتعيين موظف كبير عسكري أو مدني ، أو أحد حكام الدولة ، أو عضو في المجلس النيابي (الكونجرس) ؟ كانت هذه الفروض محتملة بالنظر إلى تلك الحركة غير العادية التي كانت تهز مشاعر المدينة .

وفي تلك اللحظة حدثت حركة شديدة بين الجماهير . فارتفعت كل الأيدي إلى الهواء . وكانت بعض الأيدي المنقبضة تظهر وهي ترتفع ثم تهوي بسرعة وسط الصيحات ، وكانت تلك وسيلة فعالة ولا شك للتصويت الانتخابي . وعمت اضطرابات بين الكتل الشعبية التي أخذت تتحرك .

اهتزت البيارق ، وأخذت تختفي برهة ثم تظهر ممزقة مهلهلة . وتحركت أمواج الشعب ودنت من السلم . وكانت الرؤوس تهتز وتتمايل على سطح الكتل البشرية وكأنها بحر خضم هبت عليه ريح عاصفة فأثارته .

قال فيكس : «واضح أن هذا اجتماع ، ولا بد أنه موضوع مثير ذلك الذي دعا إلى عقده . ولن يدهشني أن يتعلق هذا الموضوع بقضية «الألباما» ولو أن هذه القضية قد بت في أمرها .

فأجاب السيد فوج ببساطة «ربما» .

ورد فيكس : «وعلى كل حال فهناك مبارزان يواجه أحدهما الآخر ، السيد كامرفيلد والسيد مانديبوي .

واتكأت السيدة أوودا على ذراع فيلياس فوج ، وأخذت تنظر في دهشة إلى ذلك المنظر الصاخب . وما كاد فيكس يسأل أحد جيرانه عن السبب في الهياج الشعبي حتى حدثت حركة أكثر عنفاً من ذي قبل ، فقد تضاعفت الهتافات ، تصحبها الشتائم واللعنات ، وتحولت صواري البيارق

إلى أسلحة هجومية . ولم يعد المرء يرى الأيدي وإنما أصبح يرى قبضات تهوي في كل مكان . ومن فوق العربات الواقفة وسيارات الركاب المعطلة ، تبودلت ضربات كثيرة على الرؤوس وعلى الأكتاف . وكان الناس يتخذون من مختلف الأشياء قذائف . فطارت الأحذية والنعال ترسم في الهواء أقواساً طويلة كبيرة الامتداد ، ويظهر أن بعض طلقات المسدسات قد تجاوبت مع صرخات الجمهور فشاركته مشاعره الوطنية .

واقتربت الغوغاء من السلم ، ودلفت إلى الدرجات الأولى . وكان من الواضح أن أحد الحزبين قد ارتد على أعقابه ، ومع ذلك فلم يستطع المشاهدون العاديون أن يدركوا ما إذا كان الفائز هو مانديبوي أو كامرفيلد .

وقال فيكس ، الذي لم يكن يحب أن يصيب «رجله» – (أي فوج) ضربة شديدة ، أو تناله خسارة كبيرة : «أعتقد أنه من الحكمة أن ننسحب ، فإذا كانت إنجلترا هي محور كل هذه المعركة ، ثم عرف أحدهم أننا إنجليز ، فسوف نتعرض لخطر كبير!»

فأجاب فيلياس فوج : «إن مواطناً إنجليزياً . . .»

على أن السيد المهذب لم يستطع أن يكمل جملته فقد صدرت من خلفه ، من تلك الشرفة التي تتصدر الدرج ، ولولة مخيفة . ارتفعت أصوات تصيح : «هوراه! هيب ، هيب! النصر لمانديبوي» . وكان الهاتفون زمرة من الناخبين وصلوا لنجدة زملائهم ، فهاجموا جناح طائفة كامرفيلد . ووجد السيد فوج والسيدة أوودا وفيكس أنفسهم بين نارين ، وقد فاتتهم فرصة الهروب . وكان هذا السيل من الرجال المسلحين بالعصي المكسوة بالرصاص وبالهراوات ، لا سبيل إلى مقاومتهم . ودفعت الجماهير بشدة فيلياس فوج وفيكس ، اللذين كانا يحوطان السيدة أوودا للمحافظة عليها . وأراد السيد فوج ، وهو لم يزل محتفظاً بهدوئه المعتاد ، أن يدافع عن نفسه مستعملاً تلك الأسلحة الطبيعية التي زودت بها الطبيعة ذراع كل إنجليزي ، ولكنه فشل . وأقبل رجل ضخم الجثة ، له لحية صغيرة حمراء ، وبشرة ملونة ، عريض

الكتفين يبدو أنه زعيم العصبة ، فرفع قبضة يده الهائلة فوق رأس السيد فوج ، وكاد أن ينزل بالسيد المهذب أذى بليغاً ، إن لم يتلق فيكس الضربة بدلاً منه بدافع من الإخلاص . فبرز في الحال نتوء تحت قبعة المخبر الحريرية التي لم تعد سوى قلنسوة بسيطة .

ونظر السيد فوج إلى غريمه نظرة ملؤها الاحتقار الشديد وقال له : «تباً لك من أمريكي!»

فأجاب الآخر : «تباً لك من إنجليزي!»

– سوف نلتقي!

– حين تشاء ، ما اسمك ؟

– فيلياس فوج . وما اسمك أنت ؟

– الكولونيل ستامب بروكتور .

وما أن انتهى هذا الحديث حتى مر الطوفان . وانقلب فيكس ثم نهض وقد تمزقت ملابسه ، ومع ذلك فلم تحدث به أية كدمات خطيرة . وقد انشق معطف السفر الذي كان يرتديه شقين غير متساويين ، وأصبح سرواله أشبه بتلك السراويل القصيرة التي يلبسها بعض الهنود ، وفقاً للأسلوب العصري السائد ، بعد أن يزيلوا مقدما ما بها من وشي وزركشة . وأهم ما في الأمر أن السيدة أوودا لم ينلها أي أذى ، وكان فيكس هو الوحيد الذي أصابته من المعركة تلك اللكمة الشديدة .

وقال السيد فوج للمفتش بمجرد أن أصبحوا بعيدين عن الجمهور : «شكراً لك» .

فأجاب فيكس : «عفواً ، تعال معي» .

– إلى أين ؟

– إلى بائع الملابس الجاهزة .

وكانت تلك الزيارة في الواقع لازمة . فإن ملابس فيلياس فوج وفيكس كانت مهلهلة ، وكأنهما قاتلا في سبيل السيدين المبجلين كامرفيلد ومانديبوي .

وبعد ساعة من الزمان كانا يرتديان ملابس أخرى وقبعات لائقة . ثم عاد الجميع إلى فندق «ناشيونال» وهناك كان پاسپارتو ينتظر سيده

ومعه نصف دستة من مسدسات خنجرية بكل منها ست طلقات وشعلة مركزية . ولما رأى فيكس مقبلاً في صحبة السيد فوج اكفهر وجهه . على أنه لما قصت السيدة أوودا ما حدث في كلمات قليلة هدأت نفسه . فقد بان له من ذلك أن فيكس لم يعد عدوهم وإنما أصبح حليفاً لهم . وقد بر بوعده . وما أن انتهى طعام العشاء حتى استحضروا عربة كان عليها أن تحمل المسافرين وما معهم من متاع إلى المحطة . وعندما هموا بركوب العربة قال السيد فوج لفيكس :

– ألم تر ذلك الكولونيل پروكتور ثانية ؟

فأجاب فيكس : كلا .

وقال فيلياس فوج ببرود : « سوف أعود إلى أمريكا لأقابله . إنه لمن غير اللائق أن يسكت مواطن إنجليزي على مثل هذه المعاملة المهينة » .

وابتسم المفتش ولم يجب . وكان من الجلي أن السيد فوج من سلالة أولئك الإنجليز الذين ، وإن كانوا لا يقرون المبارزة في عقر ديارهم ، إلا أنهم يمارسونها خارجها عندما يدعوهم الأمر إلى الدفاع عن شرفهم .

وفي السادسة إلا الربع وصل المسافرون إلى المحطة ووجدوا القطار على أهبة الرحيل .

وفي اللحظة التي هم فيها السيد فوج بركوب القطار ، لمح موظفاً فقال له : « أخبرني يا صديقي ، ألم تقم بالأمس بعض الاضطرابات في سان فرنسيسكو ؟ »

فأجاب المستخدم : « كان ذلك اجتماعاً يا سيدي » .

– ومع ذلك فإني أعتقد أنني لاحظت ازدياداً في حركة المرور بالشوارع .

– لم يكن ذلك إلا مجرد اجتماع انتخابي عادي .

فسأل السيد فوج : « لانتخاب قائد للجيش ولاشك ؟ »

– كلا يا سيدي ، وإنما لانتخاب قاض للمصالحات .

وعلى أثر هذه الإجابة صعد فيلياس فوج إلى العربة ، وانطلق القطار في سرعة كبيرة .

٢٦

القطار السريع في خط الپاسيفيك الحديدي

يقول الأمريكان : « من المحيط إلى المحيط » ، ولابد أنهم يطلقون هذا التعبير بوجه عام على « القطار الكبير » الذي يعبر الولايات المتحدة الأمريكية عند أعرض جزء منها . ولكن « خط الپاسيفيك الحديدي » ينقسم في الواقع إلى جزأين متميزين : « الپاسيفيك المتوسط » بين سان فرنسيسكو وأوجدين ، « والپاسيفيك الاتحادي » بين أوجدين وأوماها . وهنا تنضم خمسة خطوط مختلفة تربط أوماها بنيويورك رباطاً متصلاً . وعلى ذلك ، فنيويورك وسان فرنسيسكو متصلتان حالياً بشريط حديدي غير منقطع لا يقل طوله عن ٢٧٨٦ ميلاً . وبين أوماها والمحيط الهادي يجتاز الخط الحديدي بقاعاً مازال يرتادها الهنود الحمر والحيوانات المتوحشة ، وهي مساحات شاسعة من الإقليم الذي بدأ « المورمون » يستعمرونه حوالي سنة ١٨٤٥ بعد أن طردوا من ولاية « إلينوي » .

وكانت الرحلة بين نيويورك وسان فرنسيسكو تستغرق فيما مضى ستة شهور في أكثر الأحوال ملاءمة للسفر ، ولكنها الآن تتم في سبعة أيام .

وفي سنة ١٨٦٢ ، وعلى الرغم من معارضة نواب الجنوب الذين كانوا يريدون أن يسير الخط الحديدي متجهاً أكثر نحو الجنوب ، تقرر مد الطريق الحديدي بين خطي العرض الواحد والأربعين والثاني

والأربعين . وقد عين الرئيس لنكولن ، الطيب الذكر ، بنفسه في مدينة « أوماها » في ولاية « نبراسكا » ، رأس الشبكة الحديدية الجديدة . وبدأت الأعمال في الحال ، واستمرت بتلك الهمة الأمريكية التي لا تعرف عيوب التقيد بالمكاتبات والأنظمة الإدارية . ولم تكن السرعة التي يشتغل بها العمال تطغى إطلاقاً على إتقان العمل في الطريق . كان العمل يتقدم في المروج بمعدل ميل ونصف في اليوم الواحد . وكانت قاطرة تسير على القضبان التي ركبت في اليوم السابق ، وتحضر القضبان اللازمة لليوم التالي ، ثم تسير على القضبان الجديدة بمجرد تركيبها .

ويتفرع من خط الپاسيفيك الحديدي عدة خطوط على طول طريقه في ولايات « آياوا » و« كانساس » ، و« كولورادو » ، و« الأوريجون » . وهو حين يغادر « أوماها » يحاذي الضفة اليسرى لنهر « پلات » حتى مصب فرعه الشمالي ، ثم يتبع الفرع الجنوبي ، ويجتاز أراضي « لارامي » وجبال « واهسانش » ثم يدور حول البحيرة المالحة ويصل إلى « سولت ليك » عاصمة « المورمون » ، ويتوغل في وادي « التوبلا » ، ويحاذي الصحراء الأمريكية وجبال « سيدار » ، و« همبولدت » ونهر « همبولدت » ، « وسيرانيفادا » ، وينحدر عند « ساكرمنتو » حتى الپاسيفيك من غير أن يتجاوز انحدار الطريق الحديدي هذا مائة واثني عشر قدماً في الميل الواحد ، حتى وهو يجتاز الجبال الصخرية .

كان هذا هو الشريان الطويل الذي كانت تجتازه القطارات في سبعة أيام ، والذي كان بفضله يستطيع السيد الفاضل فيلياس فوج ، أو هذا ما كان يرجوه على الأقل ، أن يستقل في نيويورك في اليوم الحادي عشر من الشهر السفينة المبحرة إلى ليفرپول .

وكانت عربة القطار التي ركبها فيلياس فوج عربة طويلة تقوم على مركبتين لكل منهما أربع عجلات لها من المرونة ما يسمح بالحركة على منحنيات ذات نصف قطر صغير . ولم يكن داخلها مقسماً إلى مقصورات ، وإنما كان بها صفان من المقاعد الموضوعة على كلا الجانبين عمودية على المحور ، وبينها ممر موصل إلى غرف الزينة ودورات المياه

وغيرها مما تتزود به كل عربة بالقطار . وكانت العربات على طول القطار متصلة إحداها بالأخرى بوساطة معابر . فكان المسافرون يستطيعون السير من أول القطار إلى آخره . وكان في خدمة المسافرين بالقطار عربات « صالون » ، وأخرى على شكل الشرفة ، وعربات للأكل وأخرى لتناول القهوة . ولم يكن ينقص القطار سوى عربات مسرحية . ولسوف تلحق به مثل هذه العربات في يوم من الأيام .

وكان يتجول على المعابر بلا انقطاع باعة كتب وجرائد يبيعون بضائعهم ، وباعة مشروبات وأغذية وسجائر ، كانوا يجدون لهم زبائن على الدوام .

وغادر المسافرون محطة « أوكلاند » في السادسة مساء . وكان الليل قد أرخى سدوله . . ليل بارد حالك الظلام ، سماؤه مكفهرة وسحبه تنذر بأن تنهمر ثلجاً . ولم يسر القطار بسرعة كبيرة . فإذا احتسبنا مرات الوقوف فإنه لم يكن يقطع أكثر من عشرين ميلاً في الساعة ، وهي سرعة من شأنها أن تسمح للقطار مع ذلك باجتياز الولايات المتحدة في المواعيد المقررة .

وقل الحديث في العربة . ثم إن الكرى ما لبث أن أخذ يستولي على المسافرين . وكان پاسپارتو جالساً على مقربة من مفتش الشرطة ، ولكنه لم يحادثه . فقد فترت العلاقة بينهما فتوراً كبيراً منذ الأحداث الأخيرة ، ولم يبق بينهما أي تعاطف أو تآلف . وإن كان فيكس لم يغير شيئاً من سلوكه ، ولكن پاسپارتو ، على العكس من ذلك ، قد التزم أقصى درجات التحفظ . وكان على استعداد لخنق صديقه القديم عند أول بادرة تنم عن عدم إخلاصه .

ولم تكد تنقضي ساعة على قيام القطار حتى تساقط الثلج : ثلج ناعم . لم يكن من شأنه ، لحسن الحظ ، أن يعطل سير القطار . ولم يكن المرء ليستطيع أن يرى من خلال النوافذ إلا صفحة بيضاء فسيحة ، كان بخار القاطرة يتصاعد في لفائف حلزونية ، تبدو رمادية اللون .

وفي الثامنة ، دخل خادم في العربة ، وأعلن للمسافرين أن وقت

الرقاد قد حان . وكانت تلك العربة عربة نوم ، ما لبثت أن تحولت في بضع دقائق إلى عنبر للنوم ، فطويت ظهور المقاعد ومدت مضاجع كانت مطوية بعناية ، واستعمل في مدها جهاز محكم الصنع . ونصبت حجرات في لحظات قليلة . وما لبث كل مسافر أن وجد تحت تصرفه فراشاً مريحاً ، وستائر سميكة تحجب عنه الأنظار . وكانت ملاءات الفراش بيضاء والوسادات ناعمة لينة . ولم يكن على المسافرين إلا أن يرقدوا فيناموا – وهذا ما فعله كل منهم ، كما لو كان راقداً في حجرة مريحة في باخرة كبيرة – كان كل هذا والقطار ينساب بأقصى سرعة ، يطوي ولاية كاليفورنيا .

وكانت الأرض في تلك البقاع من الإقليم الذي يمتد من سان فرنسيسكو حتى ساكرمنتو ، قليلة العثرات . وكان ذلك الشق من الخط الحديدي المسمى «الطريق الباسفيكي المتوسط» يتخذ من ساكرمنتو نقطة انطلاق له . ويتقدم بعدها شرقاً حتى يقابل الخط الذي يبدأ من أوماها . وكان الخط الحديدي بين سان فرنسيسكو وعاصمة كاليفورنيا يجري نحو الشمال الشرقي مباشرة ، محاذياً نهر «أمريكان» الذي يصب في خليج «سان پابلو» .

واجتاز القطار مسافة المائة والعشرين ميلاً التي تفصل هاتين المدينتين الهامتين في ست ساعات ، ومر الركاب على مدينة ساكرمنتو حوالي منتصف الليل بينما كانوا يغطون في نومهم في ساعاته الأولى . ولذلك فإنهم لم يروا شيئاً من تلك المدينة الكبيرة ، مقر السلطة التشريعية لولاية كاليفورنيا ، لم يروا أرصفتها الجميلة ، ولا شوارعها المنسقة ، ولا فنادقها الفاخرة ، ولا كنائسها ولا معابدها .

وبعد أن خرج القطار من ساكرمنتو ، ثم جاوز محاط چنكش ، وروكلن ، وأوبورون ، وكولفاكس ، دخل في مرتفعات «سييرانيفادا» . وكانت الساعة السابعة صباحاً حين اجتاز محطة «سيسكو» . وبعد ساعة عاد عنبر النوم فتحول إلى عربة ، واستطاع الركاب ، من خلال النوافذ ، أن يشاهدوا المناظر الطريفة في ذلك الإقليم الجبلي . وكان طريق القطار

يتبع تضاريس جبال «سييرا» ، فكان يلتصق تارة بسفح الجبل ، ويمر تارة معلقاً فوق الوهاد ، متجنباً في كل ذلك الزوايا الحادة ، بانحناءات شديدة ، مندفعاً داخل الممرات الضيقة التي لا يتصور الإنسان أنها تنتهي إلى منفذ ما . وكانت القاطرة وهي تسير ، والشرر يتطاير منها ، وبها مصباحها الكبير الذي كان يرسل أنواراً صفراء باهتة ، وناقوسها الفضي ، وجهازها الطارد للبقر الذي كان يمتد أمامها كالحربة ، كانت تخلط صفيرها وهدير آلاتها بهدير السيول ومساقط المياه ، وتلف دخانها حول أغصان شجر الشوح السوداء . وكانت الجسور والأنفاق نادرة أو لا وجود لها بالطريق . وكان الطريق الحديدي يلتف حول سفوح الجبال ولم يكن يتبع الطريق المستقيم الذي هو أقصر طريق يوصل بين نقطتين ، حتى لا يفتئت على الطبيعة .

وفي حوالي الساعة التاسعة دخل القطار ولاية نيفادا عن طريق وادي «كارسون» ، متجهاً دائماً نحو الشمال الشرقي . وفي الثانية عشرة غادر «رينو» التي نال فيها المسافرون مهلة قدرها عشرون دقيقة تناولوا خلالها طعام الغداء .

ومن تلك النقطة ، امتد الطريق الحديدي محاذياً نهر «هامبولدت» ، وارتفع إلى ناحية الشمال بضعة أميال ، متبعاً مجرى النهر . ثم انحرف ناحية الشرق ، ولم يترك مجرى الماء قبل أن يصل إلى تلال «هامبولدت» التي ينبع عندها النهر ، فيما يقرب من الطرف الشرقي لولاية نيفادا .

وبعد أن تناول السيد فوج والسيدة أوودا ورفاقهم طعام الغداء عادوا إلى أماكنهم في العربة . وكانوا جميعاً جالسين في كثير من الراحة ، يتطلعون إلى المناظر الطبيعية المنوعة التي كانت تمر أمام أعينهم – مروج شاسعة ، وجبال تبدو شاهقة عند الأفق ، ونهيرات تجري مياهها المغطاة بالزبد . وكان قطيع من البقر الوحشي الأمريكي يتجمع أحياناً على بعد فيبدو كسد متحرك . وهذه الجحافل التي لا حصر لها من الحيوانات المجترة تعترض سير القطار وتقوم في سبيلها عقبة كؤودا

وكثيراً ما شوهدت الآلاف من هذه الحيوانات تمر ساعات طويلة في صفوف متراصة مضغوطة ، عابرة الطريق الحديدي . فكانت القاطرة تضطر عندئذ إلى التوقف انتظاراً لإخلاء الطريق من جديد .

وهذا هو ما حدث في هذه المناسبة . ففي حوالي الثالثة مساء ، أقبل قطيع يتراوح عدده بين عشرة آلاف واثني عشر ألف رأس من الماشية فسد الطريق الحديدي . لقد قللت القاطرة من سرعتها ، وحاولت أن تعمل حربتها في جناح ذلك الطابور الهائل ، ولكنها اضطرت إلى التوقف إزاء تلك الكتلة التي لا يمكن اختراقها .

وشوهدت تلك الحيوانات المجترة – التي يسميها الأميريكان خطأ « بافالو » – أي جاموس – تسير هكذا بخطوتها المتمهلة ، وهي تخور أحياناً خواراً شديداً . وهذه الحيوانات لها قامة أطول من قامة الثيران الأوربية ، وسيقان وذيول قصيرة ، وكاهلها بارز يكون سنمة عضلية ، وقرونها متباعدة من الأساس ، ورأسها ورقبتها وأكتافها مغطاة بعرف طويل الشعر . وكان من المتعذر محاولة إيقاف هجرة هذه الحيوانات . فإنها حين تأخذ اتجاهاً معيناً ، فليس ثمة قوة تستطيع أن تحول دون سيرها أو تعدّله . إنها بمنزلة سيل من اللحوم الحية لا تستطيع السدود أن تحد من اندفاعه الجارف .

وكان المسافرون ، وقد تفرقوا على المعابر والممرات ، يشاهدون هذا المنظر العجيب . أما الشخص الذي كان يجب أن يكون أكثر الجميع تعجلاً ألا وهو فيلياس فوج ، فإنه ظل في مكانه وانتظر في صبر الفلاسفة أن تتكرم تلك الأبقار فتخلي الطريق . واستشاط پاسپارتو غيظاً من التأخير الذي كان يسببه تجمع هذه الحيوانات . وكان بوده أن يطلق عليها كل ما في مسدساته من رصاص .

وصاح : « يا لهذه البلاد! ثيران توقف القطارات وتسير في موكب كبير سيراً لا عجلة فيه ، وكأنها لا تعطل المرور إطلاقاً! ياالله! كم أود أن أعلم ما إذا كان السيد فوج قد توقع هذا العائق في خطته! وهذا الميكانيكي الذي لا يجرؤ على تحريك آلته لتخترق هذه المواشي الحاشدة! »

ولم يكن الميكانيكي قد حاول أن يزيل العقبة ، وكان ذلك لحكمة ، فإنه كان يسحق ولاشك الأبقار الأولى التي يصدمها بمقدمة القاطرة ، ولكن الآلة ، مهما كانت قوية ، فإنها ستتوقف دون ريب إن عاجلاً أو آجلاً ، وتخرج القاطرة حتماً عن قضبانها ، ثم تقع بعد ذلك في كارثة مخيفة .

وكان خير حل إذن هو الصبر والانتظار ، على أن يسترد القطار بعد ذلك ما أضاعه من وقت وذلك بأن يزيد من سرعته . واستمر سير الأبقار الوحشية ثلاث ساعات طوال ، ولم يخل الطريق إلا مع حلول الليل . وفي تلك اللحظة كانت الصفوف الأخيرة من القطيع تعبر القضبان بينما كانت الصفوف الأولى تختفي خلف الأفق الجنوبي .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة ، حينما اجتاز القطار مضايق « همبولدت » . وأصبحت الساعة التاسعة والنصف حينما دخل إقليم « اوتا » ، وهو منطقة البحيرة المالحة الكبرى « سالي » ، وبلد « المورمون » العجيب .

٢٧

پاسپارتو يحضر درساً في تاريخ «المورمون» وهو يسير بسرعة عشرين ميلاً في الساعة

في خلال ليلة الخامس إلى السادس من ديسمبر ، سار القطار نحو الجنوب الشرقي مسافة تقدر بنحو خمسين ميلاً ، ثم عاد فسار نحو الشمال الشرقي مثل هذه المسافة مقترباً من «البحيرة الكبيرة المالحة» .

وحوالي الساعة التاسعة صباحاً أقبل پاسپارتو يستنشق الهواء على معابر القطار . وكان الجو بارداً والسماء داكنة . ولكن الثلج كان قد انقطع انهماره . وبدا قرص الشمس ، وقد اتسع بفعل الضباب ، وكأنه قطعة من العملة الذهبية الهائلة ، وانهمك پاسپارتو في حساب قيمتها بالجنيهات الإسترلينية ، ولكنه ترك هذه العملة المفيدة عندما ظهر أمامه شخص غريب الشكل .

كان هذا الشخص ، الذي استقل القطار قاصداً محطة «الكو» ، رجلاً طويل القامة شديد السمرة ، له شوارب سوداء ، يرتدي جوارب سوداء وقبعة من حرير أسود ، وصدرة سوداء ، وسروالاً أسود ، ورباط رقبة أبيض ، وقفازات من جلد الكلب وكأنما هو رجل من رجال الدين . وكان يسير من أول القطار إلى آخره ، فيلصق على باب كل عربة ، ببرشام الأختام ، إعلاناً مكتوباً باليد .

واقترب پاسپارتو ، وطالع في أحد هذه الملصقات أن السيد الموقر

«وليم هيتش» المبعوث الرسولي المورموني ، ينتهز فرصة وجوده في القطار رقم ٤٨ ، فيعطي في الساعة الحادية عشرة ظهراً في العربة رقم ١١٧ محاضرة عن مذهب المورمون ، فهو لذلك يدعو كل السادة المحبين للثقافة ، أن يحضروا لسماعه وهو يكشف الأسرار الدينية «لقديسي العهد الأخير» .

فقال پاسپارتو في نفسه ، وهو الذي لا يعرف عن مذهب المورمون إلا أنه المذهب الذي يبيح تعدد الزوجات ، وهو أساس المجتمع المورموني ، فقال : «سأذهب بالتأكيد» .

وانتشر الخبر بسرعة في القطار الذي كان يحمل حوالي مائة راكب . ومن بين هذا العدد ، أقبل ثلاثون راكباً ، وقد جذبتهم فكرة المحاضرة ، واحتلوا في الساعة الحادية عشرة مقاعد العربة رقم ١١٧ . وكان پاسپارتو جالساً في الصف الأول مع أولئك المؤمنين بهذا المذهب . ولم يجد سيده ولا فيكس ما يحملهما على الاستماع إلى هذه المحاضرة .

وفي الساعة المحددة ، نهض السيد المبجل «وليم هيتش» ، وصاح بصوت مضطرب ، وكأن بعضهم قد عارضه منذ البداية :

– إنني أؤكد لكم أن «جوسميث» شهيد ، وأن أخاه «هيرام» شهيد وأن اضطهاد حكومة الاتحاد للأنبياء سوف يجعل من «بريجام يونج» هو الآخر شهيداً! فمن يستطيع أن يثبت عكس هذا الكلام ؟

ولم يجسر أحد على أن يعارض المبعوث الرسولي ، الذي كان انفعاله يتناقض مع أسارير وجهه الهادئة بطبيعتها . إنما كانت العلة في ثورته أن مذهب المورمون كان يمر إذ ذاك بمحنة شديدة . فالواقع أن حكومة الولايات المتحدة كانت قد قامت منذ زمن قليل بإخضاع هؤلاء المتعصبين المستقلين ، وبذلت في ذاك بعض الجهد . فبسطت سلطانها على ولاية «الأوتا» وأخضعتها لقوانين الاتحاد بعد أن سجنت «بريجام يونج» ، الذي اتهمته بالعصيان وبتعدد الزوجات . ومنذ ذلك الحين ضاعف مريدو النبي من جهودهم وأخذوا يقاومون بالقول ادعاءات الكونجرس ، انتظاراً لأن يقوموا بأعمال إيجابية .

ويتضح من ذلك أن السيد وليم هيتش كان يقوم بدعاية دينية حماسية في السكة الحديدية .

ثم أخذ يروي تاريخ شيعة «المورمون» منذ عهود التوراة ، ويشوق المستمعين إلى روايته برفع صوته وبالإتيان بإشارات عنيفة . روى «كيف أنه قام ، في شعب إسرائيل ، رسول مورموني من قبيلة يوسف ، فنشر أخبار الدين الجديد وتاريخه ، وأوصى بها إلى ابنه «موروم» ، وكيف أنه بعد انقضاء قرون طويلة قام «جوزيف سميث» الأصغر ، وكان مزارعاً في ولاية «فرمونث» بترجمة هذا السفر الجليل . وقد تبين في عام ١٨٢٥ أنه نبي صوفي ، هبط عليه أخيراً وحي سماوي في غابة منيرة وسلمه كتاب التواريخ «الإلهية» .

وعند هذا ، غادر العربة بعض المستمعين الذين لم يهتموا كثيراً برواية المبعوث الرسولي التي تجري حوادثها في الماضي . ولكن وليم هيتش مضى في حديثه ، فروى كيف أن سميث الصغير جمع والده وأخويه وبعض الأتباع ، وأسس دين «قديسي العهد الأخير» ، وهو دين لم يتبع في أمريكا فحسب ، بل في إنجلترا والبلاد الاسكندنافية وألمانيا ، ويضم إلى المؤمنين به الكثير من أصحاب الحرف ، وعدداً من أصحاب المهن الحرة ، وكيف أن جالية منهم تأسست في ولاية «أوهايو» وشيدت معبداً تكلف مبلغ مائتي ألف دولار ، ومدينة في «كير كلاند» ، ثم كيف أن سميث قد أصبح مولاً جريئاً ، وأعطاه أحد عارضي المومياء ورقة من أوراق البردي تتضمن قصة مكتوبة بيد «أبراهام» وغيره من مشاهير المصريين .

ولما طالت هذه القصة بعض الشيء ، خلت صفوف المستمعين أكثر من ذي قبل ، ولم يبق منهم أكثر من عشرين شخصاً .

ولكن السيد المحاضر ، لم يبال بهذا الإعراض وأخذ يروي بالتفصيل كيف أن «جوسميث» أعلن إفلاسه عام ١٨٣٧ ، وكيف أن حملة أسهمه ، الذين حل بهم الخراب ، قد ألصقوا به العار وشنوا عليه حملة صحفية ، ثم كيف ظهر هو بعد سنوات في «إنديانا» بولاية

«ميسوري» ، شريفاً مبجلاً أكثر من أي وقت مضى ، ورئيساً لطائفة ناجحة تضم ما لا يقل عن ثلاثة آلاف من الأتباع ، إلى أن اضطر إلى الفرار فوصل إلى أقصى الغرب في أمريكا ، لسبب كراهية القوم واضطهادهم له .

وكان عدد المستمعين عندئذ عشرة ، من بينهم پاسپارتو طيب القلب الذي كان ينصت إليه في انتباه شديد . وهكذا عرف «كيف أنه ، بعد اضطهادات طويلة ، ظهر سميث ثانية في «إلينوي» ، وشيد عام ١٨٣٩ ، على ضفاف المسيسپي ، مدينة «نوفولابيل» التي وصل تعداد سكانها إلى خمسة وعشرين ألف نسمة ، وأصبح عمدة المدينة وقاضي القضاة ، وقائد الحامية ، وكيف أنه عام ١٨٤٣ رشح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة ، وأخيراً كيف استدرجته عصابة من رجال مقنعين ، إلى كمين في «كارتاج» فأسروه وحبسوه ثم اغتالوه» .

وفي تلك اللحظة كان پاسپارتو جالساً وحده في العربة . فتفرس المحاضر في وجهه ، وأخذ يخلب لبه بأقواله ، ذاكراً له أنه بعد انقضاء سنتين على مقتل سميث ، جاء خليفته بريجام يونج ، النبي الملهم ، بعد أن هجر «نوفو» ، جاء ليستقر على ضفاف البحيرة المالحة ، وهناك ، في ذلك الإقليم الرائع وفي وسط تلك البقاع الخصبة ، على طريق المهاجرين الذين كانوا يجتازون ولاية «الأوتا» ذاهبين إلى كاليفورنيا ، اتسعت المستعمرة الجديدة بفضل مبادئ تعدد الزوجات الخاصة بشيعة «المورمون» .

ومضى ويليام هيتش يقول : «وهذا هو السبب في أن الكونجرس قد تحركت غيرته ضدنا! ووطئت أقدام جنود الاتحاد تربة «الأوتا»! وسجن زعيمنا النبي «بريجام يونج» على الرغم من كل قواعد العدالة . فهل سنخضع للقوة ؟ أبداً ، فإننا بعد أن طردنا من ڤرمونت ، ومن «إلينوي» ومن «أوهايو» ومن الميسوري ، ومن الأوتا ، سوف نجد مع ذلك إقليماً مستقلاً نحط فيه رحالنا ، ونتخذه مقاماً لنا .

وأردف المبعوث ، وهو يلقي على مستمعه الوحيد نظرات غاضبة : «وأنت أيها المؤمن ، هل ستقيم خيمتك في ظل رايتنا ؟»

فأجاب پاسپارتو بشجاعة : «لا!» وانفلت بدوره تاركاً المبعوث الأرعن يعظ في صحراء قفراء!

على أن القطار كان ، خلال تلك المحاضرة ، قد زاد من سرعته . وفي حوالي الثانية عشرة والنصف ظهراً ، وصل إلى البحيرة الكبرى المالحة عند طرفها الشمالي الغربي . وهناك يستطيع المرء أن يحيط في دائرة متسعة بمنظر ذلك البحر الداخلي الذي يطلق عليه اسم «البحر الميت» والذي يصب فيه نهر «جوردان» الأمريكي .إنها لبحيرة مدهشة ، تطوقها صخور جميلة طبيعية تقوم على قواعد حجرية عريضة تكسوها قشرة من الملح الأبيض ، فهي بركة ماء كانت تغطي فيما مضى مساحة أكبر ، ولكنها مع مرور الزمن ارتفعت شواطئها بالتدريج فأنقصت من مساحتها السطحية وزادت من عمقها .

والبحيرة المالحة ، وطولها سبعون ميلاً تقريباً وعرضها خمسة وثلاثون ميلاً ، تقع على ارتفاع ثلاثة آلاف وثمانمائة قدم فوق سطح البحر . وهي على العكس من بحيرة «أسفاليت» التي يبلغ عمقها ألفين ومائتي قدم تحت سطح البحر ، لها درجة ملوحة كبيرة جداً ، ومياهها تذيب ربع وزنها من المواد الصلبة . ووزنها النوعي ١١٧٠ ، باعتبار الوزن النوعي للماء المقطر ١٠٠٠ ، ولذلك فإن الأسماك لا تستطيع العيش فيها . والأسماك التي تلقيها فيها أنهار الجوردان والويبر وغيرها لا تلبث أن تموت . على أنه ليس صحيحاً أن كثافة مياهها كبيرة لدرجة أن الإنسان لا يستطيع الغطس فيها .

والريف حول البحيرة مزروع في كثير من المهارة ، فالمورمون قوم بارعون في فلاحة الأراضي . فهناك مراع ومزارع للحيوانات الأليفة ، وحقول قمح وأذرة ، ومروج خضراء غزيرة . ويرى في كل مكان سياج من شجيرات الورد البري ، وغابات من السنط «والاينورب» .

هذا وصف لما سوف يكون عليه مظهر الإقليم بعد ستة شهور ، ولكن الأراضي في تلك اللحظة كانت مختفية تحت طبقة رقيقة من الثلج تذروها الريح .

وفي الساعة الثانية نزل المسافرون في محطة «أوجدن» . ولما كان القطار لن يستأنف سيره إلا في السادسة ، فقد كان لدى السيد فوج والسيدة أوودا وزميلهما وقت كاف للذهاب إلى «مدينة القديسين» عن طريق خط فرعي صغير يخرج عن محطة «أوجدن» . وكانت تكفي ساعتان لزيارة تلك المدينة الأميريكية البحتة ، التي شيدت ، بهذه الصفة ، على نمط كل مدن الاتحاد ، تلك المدن التي خططت كرقع شطرنج فسيحة ذات خطوط مستقيمة عمودية يسودها «مظهر الحزن العميق الذي يعتري الزوايا القائمة» على حد تعبير «فيكتور هوجو» ولم يستطع بناة «مدينة القديسين» أن يتخلصوا من ذلك الميل الشديد للتناسق والتماثل الذي يتميز به الأنجلو سكسون . ففي ذلك البلد الفريد في نوعه ، والذي لم يبلغ أهله بالتأكيد شأوا بعيداً في الفنون ، يقوم كل شيء فيه «بمربعات» كالمدن أو المنازل ، ويتم كل شيء في غير خجل ، كالحماقات سواء بسواء .

ففي الساعة الثالثة كان المسافرون يتنزهون في شوارع المدينة المشيدة بين ضفاف نهر «جوردان» ، وبين التدرجات الأولى لمرتفعات «واهاتش» ولم يروا كنائس ، وإنما وجدوا ضمن معالمها الهامة منزل نبي المورمون ، ودار القضاء والترسانة ، ووجدوا بها منازل مبنية باللبن ذات شرفات وأروقة ، تحيط بها حدائق وتحدها أشجار السنط والنخيل والخروب . ويطوق المدينة جدار من طين الفخار والحصا ، بني عام ١٨٥٣ . وفي الشارع الرئيس ، حيث يوجد السوق ، تقوم بعض الفنادق التي تزينها الأعلام ومن بينها فندق «سولت ليك هاوس» – أي فندق البحيرة المالحة .

ولم يجد السيد فوج ورفاقه المدينة آهلة بالسكان ، فالشوارع تكاد تكون مهجورة – ما عدا حي «المعبد» الذي لم يصلوا إليه إلا بعد أن اجتازوا عدة أحياء محوطة بالسياج – وكانت النساء كثيرات ، بسبب ذلك التكوين الشاذ للأسرة المورمونية . ولا يجوز مع ذلك الاعتقاد بأن كل المورمون متعددو الزوجات . فكل منهم حر التصرف في حياته ، ولكن

من الملاحظ أن نساء «الأوتا» هن اللواتي يتعلقن كثيراً بالزواج ، لأنه ، تبعاً لدين البلد لا تسمح الآلهة المورمونية للنساء غير المتزوجات بالتمتع بنعيم الآخرة . وهؤلاء النساء المسكينات لايبدو عليهن الرخاء أو السعادة . وبعضهن من الموسرات ولاشك ، يرتدين سترة من الحرير الأسود مفتوحة عند الخصر ، تعلوها قباء أو شال زهيد القيمة . أما الباقيات فإنهن لا يرتدين إلا ملابس قطنية مصنوعة في الهند .

كان پاسپارتو ، وهو الشاب العاقل ، ينظر إلى أولئك النسوة المورمون في شيء من الذعر ، أولئك النسوة اللواتي يتعاون كل جماعة منهن في سبيل إسعاد رجل مورموني واحد . وكان يعتقد بمنطقه السليم ، أن الزوج هو الذي يستحق الرثاء . فقد بدا له أن من نكد الدنيا أن يضطر الإنسان إلى قيادة عدد من النساء في وقت واحد على ممر الأيام ، ومع تقلبات الأحداث والوصول بهن هكذا ، في قطيع ، إلى جنة المورمون ، على أمل الاجتماع بهن اجتماعاً أبدياً ، في صحبة سميث العظيم القدر ، الذي لابد أن يكون زينة ذلك المكان الممتع ، أي جنة المورمون .

وكان من المؤكد أن پاسپارتو لم يشعر في نفسه بأي ميل نحو هذه الحياة . وخيل إليه ، ولعله كان مبالغاً في ذلك ، أن النساء من أهالي مدينة « جريت ليك سيتي » كن ينظرن إليه نظرات مريبة بعض الشيء .

ولحسن الحظ لم تكن إقامته في مدينة القديسين لتستغرق وقتاً طويلاً ، ففي الساعة الرابعة إلا بضع دقائق ، حضر المسافرون إلى المحطة واتخذوا أماكنهم في عرباتهم .

وعلا صفير القطار ، على أنه في اللحظة التي بدأت فيها العجلات الدافعة للقاطرة ، تنزلق على القضبان وتكسب القطار بعض السرعة ، ارتفعت صرخات تنادي : « قفوا! قفوا! »

ولكنهم لا يوقفون القاطرات السائرة . وكان جلياً أن السيد الذي أطلق هذه الصيحات هو أحد المورمون ، وقد تأخر عن موعد قيام القطار . وأخذ يعدو عدواً يبهر الأنفاس . ولحسن الحظ لم يكن للمحطة أبواب ولا

حواجز ، ولذلك فإنه انطلق يجري على الطريق الحديدي ، وقفز على سلم العربة الخلفية وتهاوى وهو يلهث على أحد مقاعد العربة .

وأقبل پاسپارتو ، الذي كان يتابع باهتمام تلك الأعمال البهلوانية ، أقبل يتأمل ذلك الراكب المتأخر ، مهتماً اهتماماً كبيراً بأمره إذ علم أنه من سكان مدينة « أوتا » . وأنه لم يهرب بهذا الشكل إلا بسبب شجار عائلي .

ولما استرد المورموني أنفاسه ، بادر پاسپارتو بسؤاله في أدب كم من النساء عنده ، هو وحده – وقد قدر پاسپارتو عددهن بعشرين على الأقل ، وفقاً للطريقة التي هرب بها زوجهن من المنزل .

ولكن المورموني أجاب ، وهو يرفع ذراعيه إلى السماء « عندي واحدة فقط يا سيدي ، وفيها كل الكفاية! »

٢٨

فشل پاسپارتو في أن يحمل الناس

على أن يستمعوا لصوت العقل

وبعد أن غادر القطار «جريت سولت ليك» ومحطة «أوجدين» ، سار شمالاً نحو ساعة من الزمان حتى نهر «فيبر» ، وبذلك كان قد اجتاز حوالي تسعمائة ميل منذ أن غادر سان فرانسيسكو . وعاد ابتداء من ذلك الموضع الأخير فاتجه شرقاً عابراً مرتفعات «واهساتش» الوعرة . وقد كافح المهندسون الأمريكيون كثيراً تلك الصعوبات الشديدة التي لاقتهم في ذلك الشق من الإقليم الواقع بين تلك المرتفعات وبين الجبال الصخرية الحقيقية . ولذلك فإن المساعدة المالية التي اعتمدتها حكومة الاتحاد لهذا الشق من الطريق قد ارتفعت إلى مبلغ ثمانية وأربعين ألف دولار لكل ميل واحد بينما لم تبلغ إلا ستة عشر ألف دولار في السهول . على أن المهندسين ، كما ذكرنا من قبل ، لم يقهروا الطبيعة ، ولكنهم احتالوا عليها ، وتجنبوا المصاعب . وقد حفروا نفقاً واحداً طوله ألف وأربعمائة قدم حتى يبلغوا الحوض الكبير «جران باسان» ، وهو النفق الوحيد في كل الخط الحديدي .

وقد بلغ الطريق الحديدي أقصى ارتفاعه عند البحيرة المالحة نفسها . ثم رسم ، ابتداء من تلك النقطة قوساً مستطيلاً ينخفض نحو وادي «بيتركريك» ثم يرتفع ثانية حتى النقطة التي تنقسم فيها المياه بين المحيطين الأطلنطي والهادي .

وكانت مجاري المياه كثيرة في ذلك الإقليم الجبلي ، فكان من الضروري عبور نهيرات ماري وجرين وغيرهما فوق قناطر صغيرة . أما پاسپارتو فإنه أصبح في قلق متزايد كلما أشرف على نهاية المطاف . على أن فيكس كان هو الآخر يود لو خرج من تلك البقاع الوعرة . وكان يخشى التأخير ، ويخاف حوادث الطريق ، وكان أكثر تعجلاً من فيلياس فوج نفسه في أن تطأ قدماه الأرض الإنجليزية!

وفي العاشرة مساء توقف القطار في محطة «فورت بريدجر» ، وما لبث أن غادرها ، وعلى بعد عشرين ميلاً دخل ولاية «وايومنج» - وهي «داكوتا» القديمة - متبعاً وادي «پيتر كريك» كله ، الذي ينبع منه قسم من المياه التي تكون المجموعة المائية لولاية «كولورادو» . وفي اليوم التالي «السابع من ديسمبر ، توقف القطار لمدة ربع ساعة في محطة «جرين ريفر» . وكان الثلج قد تساقط بغزارة طول الليل ، ولكنه لما كان مختلطاً بالمطر ، وفي حالة قريبة من الذوبان فإنه لم يكن من شأنه أن يعطل سير القطار . ومع كل ، فإن ذلك الجو الرديء ما لبث أن أوجد القلق في نفس پاسپارتو ، فإن تراكم الثلوج ، التي توحل عجلات العربات ، لابد أن يعطل الرحلة .

وقال في نفسه : «يا لها من فكرة ، إذن ، تلك التي خطرت لسيدي ، أن يقوم برحلته في فصل الشتاء! ألم يكن يستطيع انتظار الفصل المعتدل فيزيد من فرص نجاحه ؟» .

ولكنه في اللحظة التي لم يكن فيها الشاب الطيب منهمكاً في غير التفكير في حالة السماء وهبوط درجة الحرارة ، كانت السيدة أووداً قد انتابتها مخاوف شديدة نتجت عن مصدر مختلف كل الاختلاف .

فقد كان بعض المسافرين قد نزلوا في الواقع من عربتهم وطفقوا يتنزهون على رصيف محطة «جرين ريفر» ، انتظاراً لقيام القطار . ولما نظرت الشابة ، من خلال زجاج النافذة ، تعرفت ، من بين هؤلاء المسافرين ، على الكولونيل «ستامب پروكتور» ، ذلك الأمريكي الذي كان قد تصرف بإزاء فيلياس فوج تصرفاً يتسم بالقحة ، خلال الاجتماع

الذي عقد في سان فرنسيسكو . وإذ خشيت السيدة أوودا أن يراها الكولونيل ، فقد ارتدت إلى الخلف . وقد أثرت هذه المسألة في المرأة الشابة تأثيراً كبيراً ، فإن قلبها كان قد تعلق بذلك الرجل الذي كان ، على الرغم من بروده الشديد ، يبذل لها كل يوم الكثير من آيات الإخلاص العميق . ولم تكن تقدر بلا ريب عمق الشعور الذي كان يحركه فيها منقذها ، ولم تطلق على هذا الشعور حتى ذلك الحين سوى اسم العرفان بالجميل ، على أنه كان يعتمل فيها ، على غير علم منها ، ماهو أكثر من ذلك . ولهذا ، فقد انقبض قلبها حين تعرفت على ذلك الشخص الفظ الطباع الذي اقتضاه السيد فوج أن يقدم حساباً عن سلوكه إزاءه ، إن عاجلاً أو آجلاً . وكان من الواضح أن المصادفة وحدها هي التي أتت بالكولونيل پروكتور في هذا القطار ، ولكنه كان موجوداً به على أية حال ، وكان من الضروري منع فيلياس فوج بأي ثمن من أن يبصر غريمه .

ولما قام القطار ، وانطلق في طريقه ، انتهزت السيدة أوودا لحظة غفا فيها السيد فوج وأخبرت فيكس وپاسپارتو بالمسألة .

فصاح فيكس : «أفي القطار ذلك المدعو پروكتور! حسناً ، اطمئني يا سيدتي ، فإنه قبل أن يسوي الحساب مع ذلك الـ . . . أعني السيد فوج ، لا بد أن يسوى الحساب معي أنا . إذ يبدو أنني الشخص الذي ناله القسط الأوفر من الإهانات الشديدة في كل هذا الأمر . »

وأضاف پاسپارتو قائلاً : «وفضلاً عن ذلك ، فسوف أتكفل أنا به ، حتى ولو كان كولونيل»

واستطردت السيدة أوودا تقول : «سيد فيكس ، إن السيد فوج لن يسمح لأحد غيره أن يأخذ بثأره . لقد قطع على نفسه عهداً ، عهد رجل شجاع ، أن يعود إلى أمريكا ليقابل ذلك الذي أهانه . فإذا لمح الآن الكولونيل بروكتور ، فسوف لا نستطيع أن نمنع اصطدامهما ، وما سوف ينتج عنه من عواقب وخيمة . فيجب إذن ألا يراه . »

فأجاب فيكس : «أصبت الحقيقة يا سيدتي ، إن تقابلهما قد

يتسبب عنه خسارة كبيرة ، فسواء انتصر السيد فوج أو انهزم فإنه سوف يتأخر ويتعطل و . . . .

وأضاف پاسپارتو : «وهذا سوف يكون في مصلحة السادة أعضاء نادي «الريفورم» . إننا سوف نكون في نيويورك بعد أربعة أيام! حسناً ، فإذا لم يغادر سيدي عربته خلال أربعة أيام ، أمكننا أن نأمل ألا تضعه المصادفة وجهاً لوجه مع ذلك الأمريكي الملعون . وإنا لنستطيع أن نمنعه من رؤيته . »

وانقطع الحديث ، فقد استيقظ السيد فوج وأخذ ينظر إلى الريف من خلال زجاج النافذة المرصع بقطع الثلج . على أن پاسپارتو التفت بعد قليل إلى مفتش الشرطة وقال له ، دون أن يسمعه سيده أو تسمعه السيدة أوودا : «هل ستقاتل حقاً من أجله ؟ »

فأجاب فيكس ببساطة ، وبنغمة تنبئ عن عزيمة لا تفتر :

– سوف أعمل كل ما أستطيعه لأعيده حياً إلى أوربا!

وشعر پاسپارتو برعدة تسري في كل جسمه . على أن إيمانه بسيده لم يضعف . والآن ، هل توجد وسيلة لحجز السيد فوج في تلك المقصورة حتى لا يقابل الكولونيل ؟ لن يكون هذا الأمر صعباً ، فإن السيد الفاضل كان بطبيعته قليل الحركة وقليل الفضول . وعلى كل حال ، فإن مفتش الشرطة قال لفيلياس فوج بعد لحظات ، وقد اعتقد أنه عثر على الوسيلة المطلوبة :

– إنها لساعات طويلة وبطيئة ، تلك التي نقضيها هكذا يا سيدي في السكك الحديدية .

فأجاب السيد المهذب : حقاً ، ولكنها تنقضي .

ومضى المفتش يقول : أكان من عادتك أن تلعب الهويست على ظهر البواخر ؟

فأجاب فيلياس فوج : نعم ، ولكن اللعب هنا غير ممكن ، فليس معي أوراق ، ولا زملاء .

– أوه . أما الأوراق فإننا سوف نجد منها ما نشتريه ، فإنهم يبيعون

كل شيء في القطارات الأميريكية . وأما الزملاء ، فإذا كانت السيدة مثلاً . . .

فأجابت السيدة الصغيرة بحرارة : «بالتأكيد يا سيدي ، إنني أعرف لعبة الهويست ، فإنها مقررة في مناهج التربية الإنجليزية . . .

وأردف فيكس قائلاً : وأنا الآخر ، أعتقد أنني أتقن هذه اللعبة . وبذلك نكون ثلاثة . . . . .

فأجاب فيلياس فوج ، وقد سره أن يعود إلى مزاولة لعبته المحبوبة ، ولو كان ذلك في السكة الحديدية : كما يحلو لكم .

وبعث پاسپارتو ليبحث عن خادم القطار ، وما لبث أن عاد پاسپارتو ومعه مجموعتان كاملتان من ورق اللعب ، وبطاقات ، وقشاط «قطع مستديرة صغيرة من العاج أو خلافه» ، ومنضدة صغيرة مكسوة بالجوخ ، ولم يعد ينقصهم شيء ، فبدأ اللعب . وكانت السيدة أووداً تعرف اللعبة معرفة كافية ، حتى إنها سمعت بعض المديح من فيلياس فوج المدقق الصارم . أما المفتش فإنه كان باختصار لاعباً من الدرجة الأولى ، وكان أهلاً لأن يصمد أمام السيد فوج . وقال پاسپارتو في نفسه ، «والآن ، أصبح في أيدينا ، ولن يتحرك .»

وفي الحادية عشرة صباحاً ، كان القطار قد وصل إلى موضع انقسام مياه المحيطين ، عند «پاس ، بريدجير» ، على ارتفاع سبعة آلاف وخمسمائة وأربعة وعشرين قدماً إنجليزياً فوق سطح البحر ، وهو موضع من أكثر الأماكن ارتفاعاً التي يبلغها جانب الطريق الحديدي في ذلك الممر الذي يشق جبال «روشتر» . وسوف يجد المسافرون أنفسهم أخيراً ، بعد أن يقطعوا مائتي ميل تقريباً ، فوق تلك السهول الطويلة التي تمتد حتى المحيط الأطلسي ، والتي جعلتها الطبيعة صالحة كل الصلاحية لأن يمتد عليها خط حديدي .

وعلى سفح الحوض الأطلسي تتولد وتنمو جداول الماء الأولى ، وهي الروافد ، الأصلية أو الثانوية لنهر «نورث پلات ريفر» . وكان الأفق كله ، ناحية الشرق ، مغطى بذلك الجدار الهائل ، نصف الدائري ،

الذي يكون الشق الشمالي من جبال «روكي» التي تعلوها قمة «لارامي» . وبين ذلك القوس وخط السكة الحديدية تمتد سهول فسيحة ترويها المياه في وفرة كبيرة وعلى يمين الخط الحديدي ، تتدرج في الارتفاع ، طابقاً فوق طابق تلك المنحدرات الأولى للكتلة الجبلية التي تستدير ناحية الجنوب حتى منابع نهير إركانساس ، وهو أحد الروافد الكبيرة لنهر الميسوري .

وفي الثانية عشرة والنصف ظهراً ، شاهد المسافرون ، في لحظة خاطفة ، حصن «هاليك» الذي يشرف على ذلك الإقليم . ولم يبق إلا بضع ساعات على تمام اجتياز جبال «روشيز» . وأمل الجميع ألا يقع حادث عند عبور القطار لتلك المنطقة الوعرة . وأخذ الجو يبرد برودة جافة . وكانت طيور كبيرة تندفع هاربة ، وقد أرعبتها القاطرة . ولم يظهر أثر لأي حيوان متوحش دباً كان أو ذئباً ، فقد كانت المنطقة صحراء شاسعة جرداء .

وبعد أن تناول السيد فوج وزملاؤه غداءهم الذي قدم لهم في العربة نفسها وكادوا يواصلون لعبة الهويست التي لا تنتهي ، إذا بصفارة القاطرة تنطلق في عنف ويقف القطار .

وأطل پاسپارتو برأسه من النافذة ، ولم ير شيئاً يبرر هذا التوقف ولم تظهر أية محطة .

وكان يحتمل أن تشعر السيدة أووداً وفيكس بالخوف ، في لحظة ، من أن يفكر مستر فوج في النزول إلى الطريق . على أن السيد الفاضل قد اكتفى بأن يقول لخادمه : «إذهب وانظر ما جرى» .

واندفع پاسپارتو خارج العربة . ووجد حوالي الأربعين مسافراً قد غادروا أمكانهم ومعهم الكولونيل ستامب پروكتور .

وكان القطار قد وقف أمام إشارة أضيئت بالنور الأحمر فمنعت المرور على الطريق . وكان الميكانيكي والسائق قد نزلا من القطار ، يتناقشان في حرارة مع حارس الطريق الذي أرسله ناظر محطة «مديسين بو» ، وهي المحطة التالية ، لملاقاة القطار . واقترب بعض

المسافرين منهم ، واشتركوا في المناقشة . وكان من بينهم الكولونيل بروكتور المذكور ، وهو يتكلم بصوته المرتفع وإيماءاته الآمرة .

ولما انضم پاسپارتو إلى الجمع ، سمع حارس الطريق يقول :

« كلا ، لا توجد أية وسيلة للمرور! فإن قنطرة « مديسين بو » قد تصدعت ولن تتحمل ثقل القطار » .

وكانت تلك القنطرة التي يتحدثون عنها ، قنطرة معلقة ، تمتد فوق مجرى مائي سريع ، على بعد ميل واحد من المكان الذي توقفت فيه القافلة وكانت القنطرة ، كما قال حارس الطريق ، مهددة بالانهيار ، فقد قطعت عدة أسلاك ، وكان من المستحيل المجازفة بالمرور عليها . ولم يكن حارس الطريق إذن مبالغاً ، في شيء ، حين أكد أنه لا يمكن العبور فوقها . ولما كان الأمريكان يتصفون بعدم المبالاة ، فمن الجنون ألا نكون حذرين مثلهم إذا بدؤوا يسلكون سلوك الحذر والحيطة .

ولما لم يجرؤ پاسپارتو على الذهاب لتحذير سيده ، فإنه وقف ينصت ، وأسنانه مطبقة ، وهو جامد كالتمثال .

وصاح الكولونيل پروكتور : « آه ، الأمر كذلك! أظن أننا لن نستطيع البقاء هنا حتى ندفن في الثلج! »

فأجاب السائق : « سيدي الكولونيل ، لقد أرسلت برقية إلى محطة أوماها اطلب فيها حضور قطار آخر إلا أنه لا يحتمل وصوله إلى « مديسين بو » قبل السادسة .

فصاح پاسپارتو « السادسة! »

وأجاب السائق : « بلا شك . ثم إن هذا الوقت يلزمنا حتى نصل إلى المحطة على أقدامنا » .

وقال أحد المسافرين : « كيف ذلك ، والمحطة لا تبعد عنا أكثر من ميل واحد » .

-نعم ؛ ميل واحد ولكنها تقع على الجانب الآخر من النهر .

وسأل الكولونيل : « ألا يمكن عبور النهر في مركب ؟ » .

- مستحيل ، فإن النهر قد ارتفعت مياهه بفعل الأمطار . وهو نهر

سريع التيار ، وسوف نضطر إلى السير في طريق ملتف طوله عشرة أميال يتجه إلى الشمال حتى نصل إلى معبر .

وأطلق الكولونيل سيلاً من السباب ، ملقياً اللوم على الشركة ، وعلى السائق . وكان پاسپارتو ، في غضبه ، يكاد يتجاوب مع الكولونيل في سبابه وأقواله ، فقد قامت في سبيلهم عقبة مادية ، لن ينفع معها في هذه المرة كل الأوراق المالية التي كانت في حوزة سيده .

وفضلاً عن ذلك ، فإن السخط كان قدعم كل المسافرين الذين وجدوا أنفسهم ، فوق ما كان ينتظرهم من تأخير ، مضطرين إلى قطع ما يقرب من خمسة عشر ميلاً عبر السهل المغطى بالثلوج . ولذلك عم الهرج والمرج وارتفعت من بينهم النداءات المعبرة عن الدهشة ، وعلا الصخب والضجيج ، وكان من شأن هذا كله أن يسترعي حتماً انتباه فيلياس فوج ولكنه كان مستغرقاً في لعبته كل الاستغراق .

ومع ذلك فقد ارتأى لپاسپارتو أن لا مفر من إخبار سيده بالأمر ، فاتجه نحو العربة ، خاشع الطرف ، وإذا بميكانيكي القطار ، وهو يانكي ، « أي أميركي » حقيقي ، ويدعى فورستر ، يرفع صوته قائلاً :

- سادتي ، ربما كانت هناك وسيلة للمرور .

فسأل أحد المسافرين : على القنطرة ؟

- نعم ، على القنطرة .

وسأل الكولونيل ، في قطارنا ؟

نعم ، في قطارنا .

وتوقف پاسپارتو ، وأخذ يفكر فيما قاله الميكانيكي .

وأردف السائق : « ولكن القنطرة تهدد بالانهيار! » .

فأجاب فورستر : « لا يهم ذلك ، فإني أعتقد أننا إذا أطلقنا القطار بأقصى سرعته ، فقد نستطيع المرور .

فقال پاسپارتو : يا للشيطان!

ولكن الاقتراح كان قد استهوى في الحال عدداً من المسافرين . وقد أعجب به ، على وجه الخصوص ، الكولونيل پروكتور . فقد أدرك

ذهنه الوقاد أن الأمر ممكن ، حتى إنه ذكر أن بعض المهندسين قد فكروا في اجتياز النهيرات ، دون معابر ، في قطارات متينة تنطلق بأقصى سرعة لها الخ . . . وفي النهاية ، انضمّ كل من يهمهم الأمر ، مؤيدين رأى الميكانيكي .

وقال واحد منهم : أمامنا خمسون فرصة من مائة فرصة للمرور ناجين .

وقال آخر : بل ستون .

– بل ثمانون « بل تسعون فرصة في المائة » .

وذهل پاسپارتو ، ولو أنه كان مستعداً لأن يقوم بأية محاولة لاجتياز ممر « ميديسن كريك » ، ولكن المحاولة بدت له « أميركية » للغاية .

وفكر قائلاً لنفسه : « ومن جهة أخرى ، فهناك شيء يمكن فعله ، أبسط من ذلك بكثير ، ولم يفكر فيه هؤلاء القوم! » وخاطب أحد المسافرين قائلاً : « سيدي ، إن الطريقة التي يقترحها الميكانيكي تبدو لي فيها بعض الخطورة ، ولكن . . . »

فقال المسافر ، وقد أدار له ظهره : « ثمانون فرصة! »

فأجاب پاسپارتو ، مخاطباً سيداً آخر : « أعلم ذلك جيداً ، وإنما لو فكرنا في الأمر قليلاً . . . »

فأجاب الأميركي ، الموجه إليه هذا الكلام ، رافعاً كتفيه : « لا داعي للتفكير! مادام أن الميكانيكي يؤكد أننا سوف نمر . . . »

فاستطرد پاسپارتو قائلاً : « لا شك في ذلك ، وسوف نمر ولكن من الحكمة أن . . . »

فصاح الكولونيل بروكتور وقد استفزته تلك الكلمة التي سمعها : « ماذا يقول! أية حكمة! يقولون لك إن القطار سوف يمر بسرعة كبيرة! ألا تفهم ؟ بسرعة كبيرة! »

فردد پاسپارتو الذي لم يدعه أحد يتمم كلامه « أعلم ذلك . . إنني فاهم . . . إن الأمر ليبدو طبيعياً أكثر . . . إن لم يكن أكثر حكمة ، مادامت كلمة « حكمة » تضايقكم . . . إذا . . .

فصاح الجميع من كل صوب « من ؟ ماذا ؟ ما شأن ذلك الرجل ، وما شأن أموره الطبيعية ؟ . . »

ولم يعد الشاب يعلم كيف يحمل أحداً على أن يسمعه .

وسأله الكولونيل پروكتور : « هل أنت خائف ؟ »

فصاح پاسپارتو : « خائف! أنا! حسنا ، فليكن! سوف أثبت لهؤلاء القوم أن الفرنسي يستطيع أن يكون أميريكياً مثلهم! »

وصاح السائق : « هيا اصعدوا إلى العربة! إلى العربة! »

وأردف پاسپارتو : « نعم! إلى العربة! إلى العربة! وفي الحال . ومع ذلك فلن يمنعني أحد من أن أقول إن الأمر سوف يكون طبيعياً أكثر لو أننا ، نحن المسافرين ، عبرنا القنطرة سائرين على أقدامنا أولاً ، ثم يمر القطار بعدنا » .

على أن أحداً لم يسمع هذا القول الصائب ، ولم يشأ أحد أن يعترف بصحته . وعاد المسافرون إلى أماكنهم في العربات . وعاد پاسپارتو إلى مكانه ، ولم يقل شيئاً مما حدث . وكان اللاعبون مستغرقين في لعبة الهويست . ودوي صفير القاطرة قوياً . وقلب الميكانيكي اتجاه حركة البخار ، فعاد بقطاره إلى الوراء مسافة ميل تقريباً ، متقهقراً كمن يتحفز للقفز .

وبعد أن انطلقت صفارة ثانية ، بدأ القطار يسير إلى الأمام ، وأخذ يزيد في سرعته ، وما لبثت السرعة أن أصبحت مخيفة ، ولم يعد يسمع سوى ضجة هادرة تصدر عن القاطرة . وكان الكباس يدق عشرين دقة في الثانية ، وكانت محاور العجلات تدخن في علب الشحم . وكأن المرء يشعر ، أن القطار كله ، وهو يسير بسرعة مائة ميل في الساعة ، لم يعد له وزن على قضبانه ، فكأن السرعة قد امتصت الوزن .

ومر القطار . مر مرور البرق . ولم ير أحد شيئاً من القنطرة . وكأن القطار قد قفز من ضفة إلى أخرى ، ولم ينجح الميكانيكي في أن يوقف آلته المنطلقة إلا بعد أن تجاوز المحطة بخمسة أميال . على أنه ما كاد القطار يعبر النهر ، حتى انهارت القنطرة انهياراً تاماً ، وسقطت في أعماق مياه « مديسين بو » السريعة في دوي شديد .

٢٩

بعض الحوادث المختلفة التي لاتقع إلا في السكك الحديدية للاتحاد الأمريكي

وفي المساء نفسه ، واصل القطار سيره دون عوائق أخرى ، فجاوز قلعة « سودرز » ، وعبر ممر « شيين » ووصل إلى ممر « إيفانز » . وفي هذا المكان يصل الطريق الحديدي إلى أقصى ارتفاع له وهو ثمانية آلاف وإحدى وتسعون قدماً فوق سطح المحيط . ولم يعد أمام المسافرين إلا أن يهبط القطار بهم فيصلوا إلى المحيط الأطلسي ، سائرين فوق تلك السهول الشاسعة التي بسطتها الطبيعة . وفي هذا الموضع ، كان يتفرع من الخط الحديدي الكبير ، فرع خاص يصل إلى مدينة « دنفر » ، المدينة الرئيسة في ولاية كولورادو ، وذلك الإقليم غني بمناجم الذهب والفضة ، قد استقر به أكثر من خمسين ألفاً من السكان .

في تلك اللحظة ، كان القطار قد قطع ألفاً وثلاثمائة واثنين وثمانين ميلاً في ثلاثة أيام وثلاث ليال منذ أن برح سان فرنسيسكو . وكان من المقدر أن تكفيه أربع ليال وأربعة أيام ، للوصول إلى نيويورك . وكان فيلياس فوج إذن في حدود المواعيد المرسومة . وأثناء الليل ، ترك القطار إلى يساره معسكر « والباه » وكانت مياه نهر « لودج پوك » الجارف تجري موازية للطريق ، متبعة الحد المستقيم المشترك لولايتي « يومينج » و« كولورادو » . وفي الساعة الحادية عشرة ، دخل القطار

ولاية « نبراسكا » ، ومر بالقرب من « سيد جوبك » ، واتصل « بجويسبرج » القائمة على الفرع الجنوبي لنهر « پلات » .

وفي هذا المكان ، تم افتتاح خط الاتحاد الپاسيفيكي ، في الثالث والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٨٦٧ ، وكان كبير مهندسي هذا المشروع هو الجنرال ج . م . دودج . ففي ذلك الزمان والمكان توقفت القاطرتان القويتان اللتان قطرتا العربات التسع التي أقلت المدعوين ، وكان من بينهم نائب الرئيس السيد توماس . س . دورانت . فارتفعت الهتافات . وقام « السيوكس » و« الپونيز » بتمثيل معركة هندية صغيرة ، وأطلقت الألعاب النارية . وأخيراً ، أخرجت مطبعة متنقلة ، العدد الأول من جريدة « ريلواي بيونير » ووزعتها . وهكذا تم الاحتفال بافتتاح هذا الخط الحديدي العظيم ، أداة الرقي والمدنية ، الذي امتد عبر الصحراء ، ليربط مدناً وبلاداً لم يكن لهاوجود من قبل . وإنما انطلقت صفارة القاطرة ، بدوي أقوى من قيثارة « أمفيون »(*) لتخرج من جوف الأرض الأمريكية ، تلك المدن والبلاد .

وفي الثامنة صباحاً ، خلف القطار وراءه حصن « ماك فيرسون » . ويفصل هذا الموضع عن أوماها ثلاثمائة وسبعة وخمسون ميلاً . وكان الخط الحديدي يتبع التعرجات الطائشة للفرع الجنوبي لنهر « پلات ريفر » سائراً على ضفته اليسرى . وفي التاسعة ، وصل القطار إلى مدينة « نورث پلات » ، تلك المدينة الهامة القائمة بين ذراعي المجرى المائي الكبير اللذين يلتفان حولها ويتلاقيان ليكونا شرياناً مائياً واحداً ، وهو أحد الروافد الكبيرة ، تختلط مياهه بمياه نهر الميسورى الذي يقع أعالي « أوماها » .

وتم اجتياز خط الطول الواحد بعد المائة .

وكان السيد فوج وزملاؤه قد عادوا يواصلون لعبتهم . ولم يتذمر أحد منهم من طول السفر – حتى اللاعب الاحتياطي . وبدأ فيكس يربح بعض الجنيهات ، على أنه ما لبث أن خسرها . ومع ذلك فلم يبد عليه أنه كان أقل ولعاً باللعبة من السيد فوج . وفي تلك الفترة من

* – أمفيون: من آلهة الإغريق – ابن جوبيتر – شاعر وموسيقى.

الصباح ، كان الحظ قد واتى هذا السيد المبجل بشكل غير عادي ، فكانت أفضل الأوراق تصل إلى يديه . وفي لحظة ما ، وكان قد رتب الأوراق للعبة جريئة ، واستعد لرمي ورقة «پيك» - إذا بصوت يقول من خلف الأريكة : «أما أنا ، فإني أفضل الكارو» «دیناري» (أي ذات علامات مربعة) .

ورفع السيد فوج والسيدة أوودا وفيكس رؤوسهم - كان المتحدث هو الكولونيل پروكتور ، وكان قريباً منهم .

وعرف ستامب پروكتور وفيلياس فوج كل منهما الآخر في الحال .

فصاح الكولونيل : «آه! ها هو ذا أنت ، يا سيدي الإنجليزي ، أنت الذي تريد أن ترمي ورقة «پيك»!

فأجاب فيلياس فوج ببرود ، وقد رمى ورقة (عشرة پيك) : - لقد رميتها فعلاً .

وأردف الكولونيل بصوت مغيظ : حسناً ، كنت أفضل أن تلعب (كارو) .

وأتى بحركة ليمسك الورقة التي رميت قائلاً «أنت لا تفهم شيئاً في هذه اللعبة» .

فنهض فيلياس فوج قائلاً : «قد أكون أكثر مهارة في لعبة أخرى» .

فأجاب الرجل الفظ قائلاً : «الأمر إنما يتوقف عليك ، إذا شئت أن تجرب مهارتك ، يا جون بول» .

وشحب وجه السيدة أوودا . واندفع كل ما فيها من دماء إلى القلب . وأمسكت بذراع فيلياس فوج ، الذي دفعها برفق . وكان پاسپارتو مستعداً للارتماء على الأمريكي الذي أخذ ينظر إلى غريمه نظرات مهينة كل الإهانة . على أن فيكس نهض ، وذهب إلى الكولونيل پروكتور قائلاً له «لقد نسيت يا سيدي أن الحساب إنما هو بيني وبينك ، فإنك لم تهني فحسب ، بل قد ضربتني أيضاً» .

فقال السيد فوج : «معذرة يا سيد فيكس ، فإن هذا الأمر يعنيني

وحدي . فإن الكولونيل ، وقد ادعى أنني أخطأت حين لعبت ورقة (پيك) ، قد أهانني إهانة جديدة ، وسوف يقدم لي حساباً عنها» .

فأجاب الأمريكي : «في أي وقت تشاء ، وحيثما تشاء ، وبالسلاح الذي تريده»

وحاولت السيدة أوودا ، دون جدوى ، أن تثني السيد فوج عن عزمه . وحاول المفتش عبثاً أن يدخل طرفاً في النزاع . وأراد پاسپارتو أن يلقي بالكولونيل من نافذة القطار ، إلا أن سيده أوقفه بإشارة منه . وغادر فيلياس فوج العربة ، وتبعه الأمريكي فوق المعبر .

وقال السيد فوج لغريمه : «سيدي إنني أتعجل العودة إلى أوربا ، وأي تأخير سوف يضر بمصالحي ضرراً بليغاً» .

فأجاب الكولونيل پروكتور : «حسناً! وما شأني بذلك ؟»

فاستطرد فوج قائلاً في أدب : «سيدي ، لقد عقدت العزم ، بعد مقابلتنا في سان فرنسيسكو ، على أن أعود إلى أميركا لملاقاتك ، وذلك بمجرد أن أكون قد أنهيت أعمالي التي تدعوني إلى العودة إلى القارة القديمة» .

- حقاً!

- هل تتكرم إذن بأن تحدد لي موعداً بعد ستة شهور ؟

- ولماذا لايكون ذلك بعد ست سنين ؟

فأجاب السيد فوج : «أقول ستة شهور ، وسأكون حاضراً في موعدي بالضبط» .

فصاح ستامب پروكتور : «هذه أعذار قبيحة . فليتم هذا الأمر حالاً ، وإلا فلا» .

فأجاب السيد فوج : «فليكن . هل أنت ذاهب إلى نيويورك ؟»

- لا .

- إلى شيكاجو ؟

- لا

- إلى أوماها ؟

– لا يهمك ذلك! هل تعرف «پلام كريك» ؟

فأجاب السيد فوج : كلا .

– إنها المحطة التالية ، وسيصلها القطار بعد ساعة . وسيبقى بها عشر دقائق . ففي خلال عشر دقائق يمكننا أن نتبادل بعض طلقات المسدسات .

فأجاب السيد فوج : «فليكن . سوف أنزل في «پلام كريك» .

وأردف الأميركي بوقاحة لا مثيل لها : «وأعتقد أنك سوف تبقى بها! »

فأجاب السيد فوج : «من يعلم يا سيدي» . ثم عاد إلى عربته ، هادئاً هدوءه المعتاد .

وفي العربة ، أخذ السيد فوج يطمئن السيدة أوودا ، قائلاً لها إن الإنسان لا يخشى أبداً القوم المدعين . ثم رجا فيكس أن يكون له شاهداً في المبارزة التي سوف تحدث . ولم يستطع فيكس أن يرفض . وواصل فيلياس فوج في هدوء لعبته التي انقطعت ، فرمى ورقة «پيك» وورقة سوداء ، في هدوء تام .

وفي الحادية عشرة ، ارتفع صفير القاطرة معلناً اقترابها من محطة «پلام كريك» . ونهض السيد فوج ، وذهب إلى سلم العربة ، يصحبه پاسپارتو حاملاً زوجاً من المسدسات . وبقيت السيدة أوودا في العربة ، شاحبة الوجه كالأموات .

وفي تلك اللحظة ، فتح باب العربة الأخرى ، وظهر الكولونيل پروكتور أيضاً على السلم ، يتبعه شاهده ، وهو أمريكي أصيل (يانكي) على شاكلته . على أنه في اللحظة التي تأهب فيها الخصمان للنزول إلى الطريق ، أسرع السائق صائحاً :

– لا تنزلوا أيها السادة

فسأله الكولونيل : ولماذا ؟

– إننا متأخرون عشرين دقيقة ، ولن يقف القطار .

– ولكن لابد أن أبارز هذا السيد .

فأجاب المستخدم ، إنني آسف لذلك . ولكننا سنرحل حالاً . وها هو الجرس يدق!

ودق الجرس فعلاً ، وواصل القطار سيره .

وقال السائق عندئذ : إنني جد آسف يا سادة ، وكان في مقدوري أن أخدمكم في أية مناسبة أخرى . ولكن ، على أية حال ، إذا لم يسمح لكم الوقت بالمبارزة هنا ، فما الذي يمنعكم من المبارزة والقطار يسير ؟

فقال الكولونيل بلهجة ساخرة : قد لا يوافق هذا السيد!

فأجاب فيلياس فوج : إنه يوافقني كل الموافقة .

وفكر پاسپارتو قائلاً : «هيا ، هيا ، نحن بالتأكيد في أميركا! وهذا سائق القطار ، رجل مهذب من خيرة الناس! »

قال هذا وتبع سيده .

وسار الخصمان وشاهِداهما ، يتقدمهم السائق[1] ، مارين من عربة إلى أخرى ، حتى بلغوا مؤخر القطار . ولم يكن بالعربة الأخيرة إلا ما يقرب من عشرة ركاب . فسألهم السائق أن يتكرموا بإخلاء الطريق ، لبضع لحظات أمام اثنين من السادة يريدان تصفية مسألة بينهما تتعلق بالشرف . ولكن يا للعجب! لقد أبدى المسافرون سرورهم وسعادتهم في أن يجيبوا السيدين إلى غرضهم ، وانسحبوا إلى خارج العربة .

وكانت العربة ، وطولها يقرب من خمسين قدماً ، ملائمة كل الملاءمة للغرض المقصود . ويستطيع فيها الخصمان أن يتقدم كل واحد منهما من الآخر ، بين المقاعد ، ليصوب بندقيته كما يشاء . ولم يكن هناك شيء أسهل تنظيماً وإدارة من هذه المبارزة . ودخل السيد فوج والكولونيل پروكتور في العربة ، وكل منهما مزود بمسدسين فيهما ست طلقات . وبقي الشهود خارج العربة التي أغلقوها على الخصمين . وكان على الخصمين ، عند سماعهما أول صفير تطلقه القاطرة ، أن يبدآ إطلاق النار . وبعد دقيقتين ، يدخل الشهود ، ثم يخرجون من العربة من يجدوه فيها من السيدين حياً يرزق .

---

١ – السائق هنا يقوم بوظيفة «الكمساري» أو المفتش، وهو خلاف الميكانيكي الذي يدير القطار.

ولم يكن ثمة أمر في الواقع أيسر من ذلك ، بل كان الأمر من السهولة حتى أن فيكس وپاسپارتو شعرا بقلبيهما يكادان ينخلعان خوفاً وهلعاً .

وكان الجميع ينتظرون انطلاق الصفير المتفق عليه ، إذ رنت في الجو فجأة صرخات وحشية ، ودوت معها طلقات ، ولكنها لم تكن صادرة إطلاقاً من العربة المحجوزة للمتبارزين ، وإنما على العكس من ذلك ، توالت طلقات موجهة إلى القطار كله من بدايته حتى نهايته . وخرج الكولونيل پروكتور والسيد فوج حالاً من العربة ، والمسدسات في أيديهما ، واندفعا إلى الأمام حيث كانت الطلقات تدوي والصيحات تعلو في ضجيج أشد . وأدركا أن القطار قد هاجمته عصابة من « السيوكس » .

ولم يكن هؤلاء الهنود الجرينون يقومون بأولى مغامراتهم الهجومية ، فقد سبق لهم أكثر من مرة أن أوقفوا القطارات واعتادوا ألا ينتظروا ، وكعادتهم لم ينتظروا وقوف القطار ، بل أوقفوه ، بل أخذوا يثبون على سلالم العربات في جموع يبلغ عددها مائة شخص ، وتسلقوا العربات كما يفعل البهلوانات الذين يقفزون فوق ظهور الخيل الراكضة .

وكان هؤلاء السيوكس مزودين بالبنادق . ومن هذه البنادق خرجت الطلقات التي كان يرد عليها المسافرون ، وكلهم يكادون يكونون مسلحين ، بطلقات من مسدساتهم . وفي أول الأمر ، اندفع الهنود نحو القاطرة ، وانهالوا على الميكانيكي والوقاد يضربونهما بالهراوات حتى كادوا يقضون عليهما . وأراد أحد زعماء السيوكس أن يوقف القطار ، ولما لم يكن يعرف طريقة تشغيل ذراع ضابط البخار ، فإنه فتح صمام البخار حتى النهاية بدلاً من غلقه ، فاندفعت القاطرة تجري بسرعة مخيفة .

وفي الوقت نفسه ، كان السيوكس قد غزوا العربات . وكانوا يركضون كالقرود الهائجة على سطوح العربات ، فكسروا الأبواب ، واشتبكوا مع المسافرين ، بالأيدي والأجسام .

وفي عربة البضائع ، انتزعوا الطرود وألقوا بها إلى الطريق ، بعد أن سلبوا ما وجدوه بها . ولم تنقطع الصيحات ولا الطلقات .

ودافع المسافرون عن أنفسهم خلال ذلك كله بما أوتوا من شجاعة . وأقاموا ببعض العربات حواجز ومتاريس ، فأصبحت وكأنها حصون حقيقية متنقلة . تجري بسرعة مائة ميل في الساعة .

وأبدت السيدة أوودا ، منذ بداية الهجوم ، شجاعة فائقة . وكانت تمسك بالمسدس ، وتدافع عن نفسها دفاع الأبطال ، فتطلق الرصاص من خلال زجاج النوافذ المكسور كلما تقدم منها أحد هؤلاء المتوحشين . وسقط حوالي العشرين من السيوكس قتلى على الطريق ، ومرت عجلات العربات على الذين سقطوا بين القضبان من فوق سلم العربات ، فسحقتهم كما تسحق الديدان . وارتمى على المقاعد الكثير من الركاب الذين أصيبوا بالرصاص أو بالهراوات إصابات بالغة .

واقتضى الأمر حينئذ إنهاء المسألة . وكانت هذه المعركة قد استمرت عشر دقائق ، وكانت ستنتهي حتماً في صالح السيوكس إذا لم يتوقف القطار . ولم تكن محطة كيرني لتبعد ، في واقع الأمر ، أكثر من ميلين . وكانت توجد بها قوة أميركية . إلا أنه إذا جاوز القطار مركز هذه القوة فإن السيوكس كانوا يستطيعون الاستيلاء عليه بين محطة « حصن كيرني » والمحطة التالية لها .

وكان السائق يقاتل إلى جوار السيد فوج ، حين أصابت الأول رصاصة أسقطته . فصاح قائلاً : « إننا سوف نهزم إذا لم يتوقف القطار قبل أن تنقضي خمس دقائق! »

فقال فيلياس فوج ، الذي أراد أن يندفع خارج العربة : « إنه سوف يتوقف » .

فصاح به پاسپارتو : « ابق يا سيدي ، هذا من شأني » .

ولم يجد فيلياس فوج من الوقت ما يسمح له بأن يوقف ذلك الشاب الشجاع الذي فتح بابا دون أن يراه أحد من الهنود ، واستطاع أن ينسل تحت العربة . وهكذا ، بينما كانت المعركة مستمرة ، حامية الوطيس ، وبينما كانت الرصاصات تتلاقى فوق رأسه ، كان هو قد استعاد نشاطه ورشاقته ومرونته ، مرونة البهلوان ، وزحف تحت العربات

متعلقاً بالسلاسل ، مستعيناً بذراع الفرامل ، ودعامات هياكل العربات ، زاحفاً من عربة إلى أخرى بمهارة عجيبة ، ووصل بهذه الطريقة إلى مقدم القطار فلم يره أحد ، ولم يكن أحد ليستطيع أن يراه .

وهناك ، تعلق بإحدى يديه بين عربة البضائع وعربة الفحم ، وفك بيده الأخرى سلاسل الأمان . على أنه لم يكن ليستطيع إطلاقاً أن يفك القضيب الذي يربط العربة بالقاطرة ، بسبب الشد القوي القائم بينهما ، إن لم يسعفه القدر ، فقد اهتز القطار هزة عنيفة ، كسر بفعلها القضيب ، فانفصل القطار عن القاطرة ، وتخلف شيئاً فشيئاً ، بينما انطلقت القاطرة تواصل سيرها في سرعة جديدة متزايدة . واستمر القطار المتخلف سائراً بضع دقائق ، تدفعه القوة الطاردة . ولكن الفرامل شدت من داخل العربات ، ووقف القطار أخيراً على مسافة تقل عن مائة خطوة من محطة « كيرني » .

وهناك أقبل جنود الحصن مسرعين ، وقد جذبتهم أصوات الطلقات النارية . ولم ينتظر السيوكس حضورهم . وقبل أن يقف القطار نهائياً ، كانت العصبة كلها قد اختفت عن الأنظار .

على أنه حينما قام المسافرون بالمناداة على أسماء رفاقهم ، وهم متجمعون على رصيف المحطة ، اكتشفوا أن بعضاً منهم لم يجب النداء ، وكان من بين الغائبين ذلك الفرنسي الشجاع الذي أنقذهم بإخلاصه وتفانيه .

٣٠
فيلياس فوج يؤدي واجبه
ولا شيء غير الواجب

كان ثلاثة من الركاب قد اختفوا ، وكان من بينهم پاسپارتو . فهل قتلوا في المعركة ؟ أو هل سقطوا أسرى في يدي السيوكس ؟ لم يكن في الإمكان معرفة حقيقة ما حدث لهم .

وكان الجرحى كثيرين ، ولكن اتضح بعد ذلك أن أحداً منهم لم يصب إصابة قاتلة . وكان من بين الذين جرحوا جراحاً خطيرة الكولونيل پروكتور الذي قاتل ببسالة حتى أسقطته رصاصة أصابته . وقد حمل إلى المحطة مع غيره من الركاب الذين اقتضت حالتهم عناية عاجلة .

وخرجت السيدة أووداً من المعركة سالمة من كل أذى . أما فيلياس فوج ، الذي بذل غاية الجهد في المعركة فإنه لم يصب بشيء ، ولا بخدش واحد . وجرح فيكس في ذراعه ، جرحاً ليست له أهمية تذكر . أما پاسپارتو ، فقد كان غائباً . وانهمرت الدموع من مآقي السيدة الشابة .

وفي هذه الأثناء كان الركاب قد غادروا القطار . وكانت عجلات العربات ملطخة بالدماء ، وقد تدلت من أجزائها قطع مشوهة من اللحم . وكانت تبدو ، على السهل الأبيض ، حتى مدى البصر ، خطوط طويلة حمراء ، وكان الهنود عندئذ يفرون مبتعدين نحو الجنوب ، من ناحية نهر « ريپا بليكان » .

وظل السيد فوج واقفاً لا يتحرك ، وقد شبك ذراعيه . كان عليه أن يتخذ قراراً خطيراً . وكانت السيدة أوودا على مقربة منه ، ترنو إليه . ولا تنبس ببنت شفة . . . وأدرك ما تعنيه نظرتها هذه . إن خادمه قد وقع أسيراً ، أفلم يكن من واجبه أن يجازف بكل شيء لينتزعه من أيدي الهنود ؟

وقال بكل بساطة للسيدة أوودا : « لابد أن أعثر عليه ، ميتاً كان أو حياً » .

فصاحت السيدة الشابة : – « آه يا سيدي . . . يا سيد فوج! » وأمسكت بيدي رفيقها وبللتهما بالدموع .

وأردف السيد فوج قائلاً : « وسأجده حياً ، إذا لم أضع دقيقة واحدة من وقتي! »

وكان فيلياس فوج ، باتخاذه هذا القرار ، يضحي بالنفس والنفيس ، بل إنه قد حكم على نفسه بالخراب . فإن تأخير يوم واحد من شأنه أن يفوّت عليه اللحاق بباخرة نيويورك ، فيفقد بذلك رهانه إلى الأبد دون ريب . ولكنه لم يتردد إزاء فكرته قائلاً : « هذا هو ما يمليه عليَّ واجبي » .

وكان الكابتن ، قائد حصن « كيرني » موجوداً هناك . وكان رجاله – البالغ عددهم نحو المائة – قد رتبوا أنفسهم في وضع دفاعي ، استعداداً لملاقاة السيوكس إذا قاموا بهجمة مباشرة على المحطة .

وقال السيد فوج للكابتن : « سيدي ، لقد اختفى ثلاثة من الركاب » .

فسأله الكابتن : « هل قتلوا ؟ »

فأجاب فيلياس فوج : « سواء لدينا أقتلوا أم أسروا ، فإن أمرهم غامض غموضاً لابد من استجلائه . هل عزمت على مطاردة السيوكس ؟ »

فقال الكابتن : « سيدي ، إن هذا الأمر لجد خطير . فهؤلاء الهنود يستطيعون الفرار إلى ما وراء حدود « الأركنساس! » أما أنا فلا أستطيع الابتعاد عن الحصن الذي أنا مسؤول عنه » .

فعاد فيلياس فوج يقول : « سيدي ، المسألة تتعلق بحياة ثلاثة رجال » .

– لا شك في ذلك . . . ولكن هل أستطيع المغامرة بحياة خمسين رجلاً في سبيل إنقاذ ثلاثة ؟

– لا أعرف إذا كنت تستطيع ذلك يا سيدي ، وإنما يجب عليك أن تفعله .

فأجاب الكابتن : سيدي ، ليس من حق أي إنسان هنا أن يعرفني واجبي .

فقال فيلياس فوج ببرود : فليكن ، سأذهب وحدي!

فصاح فيكس ، الذي كان قد اقترب منهما : أنت يا سيدي! أتذهب وحدك لتلحق بالهنود ؟

– أتريدون إذن أن أترك هذا التعس يهلك ، وهو الذي يدين له بالحياة كل من بقي هنا حياً! سوف أذهب .

فصاح الكابتن ، وقد تأثر على الرغم منه : « حسناً . كلا ، لن تذهب وحدك! كلا! إنك رجل شهم! » وأردف قائلاً وقد التفت إلى جنوده : « فليتقدم ثلاثون رجلاً ، من ذوي البأس الشديد ، والعزيمة الماضية » .

وتقدمت الجماعة كلها كتلة واحدة ، ولم يكن على الكابتن إلا أن يختار من يريد من بين هؤلاء البواسل . وتم اختيار ثلاثين جندياً ، وأقيم على رأسهم جاويش قديم .

فقال السيد فوج : « شكراً لك يا كابتن » .

وسأل فيكس السيد فوج قائلاً : « هل تسمح لي بمرافقتك ؟ »

فأجاب فيلياس فوج : « إفعل ما يحلو لك يا سيدي . على أنه إذا شئت أن تؤدي لي خدمة ، فعليك أن تبقى بجوار السيدة أوودا حتى إذا ما أصابني شر . . »

وعلا وجه مفتش الشرطة شحوب مفاجئ . فأنى له أن يفترق عن الرجل الذي لاحقه خطوة خطوة في عناد شديد! وكيف يدعه يخاطر هكذا

بنفسه في تلك الصحراء! وتأمل فيكس السيد الفاضل في اهتمام . وعلى الرغم مما كان يشعر به ، وعلى الرغم من هواجسه ، ومن الثورة التي كانت تعتمل في نفسه ، فإنه نكس بصره أمام تلك النظرة الهادئة الصريحة .

وقال : « سأبقى » .

وانقضت بضع لحظات . ثم صافح السيد فوج السيدة الشابة ، وسلمها حقيبة سفره الثمينة ، وانطلق مع الضابط وفرقته الصغيرة .

ولكنه قبل أن يرحل قال للجنود : « أيها الأصدقاء ، لكم ألف جنيه إذا أنقذنا الأسرى » .

وكانت الساعة وقتئذ قد جاوزت الثانية عشرة ظهراً ببضع دقائق .

واعتكفت السيدة أوودا في غرفة من غرف المحطة . وبقيت هناك وحدها تنتظر ، وهي تفكر في فيلياس فوج ، وفي كرمه العظيم المتواضع ، وشجاعته الهادئة . لقد ضحى مستر فوج بثروته ، وها هو الآن يغامر بحياته ، كل ذلك في غير تردد ، في سبيل الواجب ، وفي صمت تام . كان فيلياس فوج بطلاً في نظرها .

أما المفتش فيكس فإنه لم يكن يفكر هذا التفكير ، ولم يكن ليستطيع أن يهدئ انفعاله . فأخذ يتجول في اضطراب على رصيف المحطة . على أنه ما لبث ، أن ملك زمام نفسه ، وعاد إلى هدوئه السابق . وما أن رحل فوج ، حتى أدرك الحماقة التي أتاها بتركه يرحل . فيا عجباً . كيف سمح لنفسه أن ينفصل عن ذلك الرجل بعد أن طارده حول العالم . وتغلبت عليه طبيعته ، فأخذ يتهم نفسه ، ويحاسبها حساباً شديداً ، مقراً بخطئه ، وكأنه مدير شرطة العاصمة يؤنب شرطياً ضبط وهو يتصرف في بلاهة . وأخذ يناجي نفسه قائلاً : « لقد كنت أخرق ، فربما كان خادمه قد أخبره بأمري . ولذلك فقد رحل ولن يعود ، فأين أجده بعد ذلك ؟ ولكن كيف سمحت لنفسي أن أقع تحت تأثير سحره ، أنا ، فيكس ، الذي أحتفظ في جيبي بأمر القبض عليه . إنني لغبي بالتأكيد » .

وهكذا أخذ مفتش الشرطة يقلب في عقله الأمور ، بينما أخذت

الساعات تمر في بطء شديد ، على غير هواه . ولم يدر ما يفعله . وكانت تراوده أحياناً الرغبة في أن يفضي بالأمر كله للسيدة أوودا ، على أنه كان يعلم ما سوف تقوله المرأة الشابة رداً عليه . ماذا يفعل ؟ وسولت له نفسه أن ينطلق عبر السهول البيضاء الشاسعة متعقباً فوج! ولم يبد له متعذراً أن يعثر عليه ، فإن مواقع أقدام الجنود كانت وما زالت مطبوعة على الثلوج! . . . ومع ذلك فقد غطتها طبقة جديدة من الثلج المتساقط أخفتها عن الأنظار .

وعندئذ تملك اليأس فيكس . وشعر برغبة لا تقاوم في أن يتخلى عن المهمة كلها . وقد حانت له في تلك اللحظة بالذات ، فرصة مغادرة محطة كيرني ومواصلة تلك الرحلة المليئة بالأحداث المخيبة للآمال .

ففي حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ، وبينما كان الثلج يتساقط في حبات كبيرة ، سمع صوت صفارات آتية من ناحية الشرق . وأقبل شبح كبير يسبقه ضوء أصفر باهت ، وأخذ يتقدم ببطء ، ويزداد ضخامة بسبب الضباب الذي كان يحيط به ويكسبه مظهراً خيالياً .

ولم يكن أحد يتوقع مجيء أي قطار من ناحية الشرق . ولم تكن النجدات التي طلبت بالبرق تستطيع أن تصل بهذه السرعة . أما القطار المسافر من أوماها إلى سان فرنسيسكو فإنه لم يكن متوقعاً مروره إلا في اليوم التالي . على أن الأمر ما لبث أن استبان .

فإن القاطرة التي كانت مقبلة في بطء ، وهي تطلق صفارات قوية ، كانت هي القاطرة نفسها التي كانت ، بعد أن انفصلت من القطار ، قد استمرت في سيرها بسرعة مخيفة ، وفيها الوقاد والميكانيكي ممددين بلا حراك . وظلت تجري على القضبان عدة أميال . ولما خمدت نيرانها ، لنقص الوقود ، وتراخي البخار ، وكان قد مضى عليها ساعة من الزمان قلت سرعتها بالتدريج حتى توقفت الآلة أخيراً على بعد عشرين ميلاً من محطة « كيرني » .

ولم يكن الميكانيكي ولا الوقاد قد لقيا حتفهما ، فإنهما قد أفاقا ، بعد أن ظلا بعض الوقت في غيبوبة .

توقفت الآلة إذن . وحين وجد الميكانيكي نفسه في الصحراء ، والقاطرة وحدها ، وليس وراءهما أية عربة من عرباتها ، أدرك ما حدث . ولم يستطع أن يدرك كيف انفصلت القاطرة عن القطار ، على أنه لم يشك في أن القطار وقد تخلف وراءه ، كان في كرب شديد .

ولم يتردد الميكانيكي في أن يقوم بما كان عليه أن يفعله . فقد كان من الخير له أن يواصل طريقه في اتجاه أوماها . وكان من الخطورة أن يعود إلى القطار الذي ربما كان الهنود يعملون فيه النهب والسلب حتى ذلك الحين . . . على أنه لم يبال بذلك! فنهض وألقى بضع مجارف من الفحم والخشب في جوف أفران القاطرة فتأججت النيران ، وارتفع الضغط من جديد ، وفي حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ، عادت القاطرة تسير إلى الوراء في اتجاه محطة « كيرني » . وكانت هي القاطرة نفسها التي أقبلت وهي تطلق صفارتها وسط الضباب .

وارتاح الركاب كل الارتياح حينما رأوا القاطرة تتصل بأول القطار . فإنهم سوف يتمكنون من مواصلة سفرهم الذي انقطع بهذا الحادث المكدر .

ولما وصلت القاطرة ، غادرت السيدة أوودا غرفتها في المحطة ، وقالت للسائق : « هل أنت راحل ؟ »

– في الحال ، يا سيدتي .

– ولكن أولئك الأسرى . . رفاقنا التعساء .

فأجاب السائق : لا أستطيع أن أعطل عمل المرفق ، فلقد تأخرنا حتى الآن وقتاً يبلغ ثلاث ساعات .

– ومتى يصل القطار الآخر الآتي من سان فرنسيسكو ؟

– في مساء الغد يا سيدتي .

– مساء الغد! ولكن هذا موعد متأخر أكثر من اللازم لابد من انتظار . . .

فأجاب السائق : هذا مستحيل . إذا كنت تريدين الرحيل فاصعدي إلى العربة .

فأجابت المرأة الشابة : لن أرحل .

وسمع فيكس هذا الحوار . كان قد صمم منذ لحظات على أن يغادر كيرني حين لم توجد أية وسيلة للسفر . والآن ، وقد أصبح القطار على أهبة الانطلاق ، وكان بوسع فيكس أن يعود إلى مكانه في العربة ، شعر بقوة لا تقاوم تثبته بالأرض وشعر برصيف المحطة يلهب قدميه ، ومع ذلك فلم يستطع أن ينتزع قدميه من الرصيف واضطرمت الحرب الداخلية في أعماق نفسه وأخذ يختنق غضباً من فشله . وأراد أن يقاوم حتى النهاية .

وفي تلك الأثناء ، كان الركاب ، وبعض المجروحين ، ومن بينهم الكولونيل پروكتور ، الذي كانت حالته خطيرة ، قد استقروا في أماكنهم في العربات وارتفع أزيز قزان القاطرة ، وقد حميت نيرانه ، وأخذ البخار ينفذ من الصمامات . وأطلق الميكانيكي صفارته ، وبدأ القطار سيره ، وما لبث أن اختفى عن الأنظار ، وقد امتزج دخانه الأبيض بدوامات الثلج .

ومرت بضع ساعات . وكان الجو رديئاً ، والبرد زمهريراً . وجلس فيكس على أريكة في المحطة ، ساكناً لا يتحرك ، يظن من يراه أنه نائم . وكانت السيدة أوودا ، على الرغم من شدة الريح ، تغادر من لحظة إلى أخرى الغرفة التي وضعت تحت تصرفها . وأقبلت حتى نهاية الرصيف ، تحاول أن تنظر من خلال عاصفة الثلج ، وتخترق بنظرها ذلك الضباب الذي كان يحد الأفق حولها ، وتتسمع إلى أي صوت يمكن أن تلتقطه أذناها .

ولم يكن في الجو شيء من هذا . وعادت إلى غرفتها مرتعدة الفرائص من شدة البرد لتخرج ثانية بعد لحظات ، وهكذا دون جدوى .

وأقبل المساء . ولم تعد الكتيبة الصغيرة . فأين كانت في تلك اللحظة ؟ وهل أدركت الهنود ؟ وهل نشب قتال بينهم ، أم ظل أولئك الجنود ، وقد ضلوا طريقهم وسط الضباب ، يجوبون تلك البقاع تائهين ؟ وكان قائد حصن « كيرني » في أشد حالات القلق ، ولو أنه لم يشأ أن يبدو عليه ما ينم عن قلقه .

وجاء الليل ، وكان الثلج يتساقط بكمية أقل من ذي قبل ، ولكن وطأة البرد كانت قد اشتدت ، ولم تكن أكثر العيون حدة لتنظر إلى ذلك الفضاء الشاسع الحالك الظلام دون أن تستشعر الرعب والوجل . وكان السكون الشامل يخيم على السهل ، لا يعكره طيران طائر ولا حتى مرور حيوان بري .

وفي غضون تلك الليلة ، كانت السيدة أوودا ، وقد استبدت بها الهواجس المشؤومة وثقلت روحها ضيقاً وكرباً ، تتجول بلا هدف على أطراف المروج – وسبح بها الخيال بعيداً ، وأراها الكثير من الأهوال . ولم يكن من المستطاع شرح الآلام التي كانت تقاسيها خلال تلك الساعات الطويلة .

وما برح فيكس قابعاً في سكون في المكان نفسه . ولم ينم هو الآخر . واقترب منه رجل ، في لحظة من اللحظات ، وقال له كلاماً ، ولكن الشرطي صرفه بعد أن رد على كلامه بإشارة نافية .

وانقضى الليل على هذا المنوال . وانبلج الفجر ، وارتفع قرص الشمس خامداً بعض الشيء ، فوق أفق يكسوه الضباب . ومع ذلك فإن الرؤية كانت ممكنة حتى مسافة ميلين . وكان فيلياس فوج قد اتجه مع الكتيبة نحو الجنوب ، نحو صحراء مقفرة . وكانت الساعة عندئذ السابعة صباحاً .

وكان القائد مشغول البال لا يدري أي قرار يتخذ . فهل كان من الواجب أن يرسل كتيبة ثانية لنجدة الأولى ؟ هل كان عليه أن يضحي برجال آخرين ، مع ضعف ما لديهم من الفرص ، لإنقاذ الرجال الذين ضحى بهم في بادئ الأمر ؟ على أن حيرته لم تطل كثيراً ، فإنه أشار إلى أحد معاونيه من الضباط ، وأمره بإرسال كتيبة استكشافية نحو الجنوب وفي تلك اللحظة دوت في الفضاء طلقات نارية . فهل كانت هذه إشارة ؟ واندفع الجنود خارجين من الحصن ، ولمحوا ، على بعد نصف ميل ، جماعة صغيرة من الجنود عائدة في نظام حسن .

وكان السيد فوج يسير في المقدمة ، وعلى مقربة منه پاسپارتو والمسافران الآخران اللذان انتشلا من أيدي السيوكس .

لقد نشبت معركة على بعد عشرة أميال جنوبي « كيرني » وقبل وصول الكتيبة ببضع ثوان ، كان پاسپارتو ورفيقاه يقاتلون حراسهم . وكان الفرنسي قد صرع ثلاثة منهم بضربات من قبضة يده حين جاء سيده ومن معه من الجنود وأسرعوا إلى نجدتهم . والتقى الجميع ، المنقذون والأسرى ، مرحبين بعضهم بالبعض الآخر وهم يصيحون صيحات الفرح ، ووزع فيلياس فوج على الجنود مبلغ المكافأة التي كان قد وعدهم بها ، بينما كان پاسپارتو يردد لنفسه قائلاً ، وله بعض الحق في ذلك : يجب الاعتراف ، بالتأكيد ، أنني أكلف سيدي ثمناً باهظاً! »

وطفق فيكس ينظر إلى السيد فوج ، وهو صامت لا ينبس ببنت شفة . ومن العسير تحليل ما كان يعتمل في نفسه حينئذ من التأثيرات . أما السيدة أوودا ، فإنها تناولت يد السيد المبجل وضغطت عليها بين يديها ولم تستطع أن تنطق كلمة واحدة .

وأما پاسپارتو ، فإنه لم يكد يصل ، حتى أخذ يبحث عن القطار في المحطة . وكان يعتقد أنه سوف يجده هناك على أهبة الرحيل إلى أوماها . وكان يأمل تدارك ما فات من الوقت .

وصاح قائلاً : « القطار ، أين القطار ؟ »

فأجاب فيكس : « لقد رحل » .

وسأل فيلياس فوج . « ومتى يصل القطار التالي ؟ »

– هذا المساء .

فأجاب السيد الهادئ ببساطة : « آه » .

٣١
المفتش فيكس يهتم اهتماماً جدياً
بمصالح فيلياس فوج

وجد فيلياس فوج نفسه متأخراً بمقدار عشرين ساعة . وكان پاسپارتو قانطاً ، فإنه تسبب دون قصد في هذا التأخير ، وقد أنزل بسيده الخراب بكل تأكيد .

وفي تلك اللحظة ، اقترب المفتش من السيد فوج ، وسأله قائلاً :

– « هل أنت متعجل حقاً يا سيدي ؟ »

فأجاب فيلياس فوج : « نعم ، حقاً » .

وأردف فيكس :

– أكرر سؤالي ملحاً ، هل مصلحتك في أن تكون في نيويورك في اليوم الحادي عشر ، قبيل الساعة التاسعة مساء ، ساعة رحيل الباخرة القائمة إلى ليفربول ؟

– نعم ، مصلحة كبيرة .

– وإذا لم تكن رحلتك قد توقفت بسبب تلك الغارة التي شنها الهنود ، فإنك كنت ستصل إلى نيويورك في اليوم الحادي عشر منذ الصباح .

– نعم ، قبل موعد إبخار الباخرة باثنتي عشرة ساعة .

– حسناً . إن لديك تأخيراً قدره عشرون ساعة . والفرق بين عشرين واثنتي عشرة ساعة هو ثماني ساعات . فلابد من توفير ثماني ساعات . هل تريد أن تحاول ذلك ؟

فسأله مستر فوج : سيراً على الأقدام ؟

فأجاب فيكس . كلا ، بل في زاحفة ، زاحفة شراعية . لقد عرض علي رجل هذه الوسيلة للانتقال .

وكان الرجل المقصود هو ذلك الذي خاطب مفتش الشرطة أثناء الليل ، وكان فيكس قد رفض عرضه .

ولم يرد فيلياس فوج على فيكس ، ولكن هذا أشار إلى الرجل المذكور ، وكان يتجول أمام المحطة ، فاتجه السيد المحترم إليه . وانقضت لحظة ، دخل بعدها فيلياس فوج ومعه ذلك الأمريكي ، المدعو مادج ، في كوخ مقام في أسفل حصن « كيرني » .

وهنا ، فحص مستر فوج مركبة غريبة الشكل ، مكونة من قاعدة « شاسي » مقامة على كمرتين طويلتين ، مرفوعتين قليلاً من الأمام ، يستطيع أن يجلس عليها خمسة أو ستة أشخاص . وفي الثلث الأمامي منها أقيم صار مرتفع كثيراً ، نشر عليه قلع كبير ، ويمتد من هذا الصاري ، الذي تشده أسلاك معدنية ، دعامة حديدية يرتكز عليها شراع أمامي كبير ، وفي المؤخرة دفة على هيئة المقذاف ، تستعمل في توجيه المركبة .

يتضح من هذا الوصف أن هذه المركبة عبارة عن زاحفة مجهزة كسفينة صغيرة . ففي فصل الشتاء ، وعلى السهول المغطاة بالثلوج ، حين تتوقف القطارات بسبب الثلوج ، تقوم هذه المركبات برحلات سريعة للغاية ، من محطة إلى أخرى . وهي مجهزة بشراعات هائلة وعجيبة ، تفوق ما يمكن أن تحويه زوارق السباق المعرضة للانقلاب . وهي إذ تدفعها الرياح من خلفها ، تنزلق على سطح المروج بسرعة تعادل ، إن لم تفق ، أسرع القطارات .

وفي بضع لحظات ، عقدت صفقة بين السيد فوج وصاحب ذلك القارب البري . وكانت الريح مواتية ، تهب من الغرب في نسائم قوية . وكان الثلج قد جمد . وضمن « مادج » للسيد فوج أن يوصله إلى محطة « أوماها » في بضع ساعات . وفي « أوماها » تكثر القطارات .

وتتعدد الخطوط الحديدية التي توصل إلى شيكاجو ونيويورك . ولم يكن متعذراً تدارك ما ضاع من الوقت .

ولم يكن هناك إذن أي داع للتردد في القيام بتلك المحاولة .

ولم يشأ السيد فوج أن يعرض السيدة أوودا لمتاعب رحلة في الهواء الطلق ، وفي ذلك البرد القارس ، الذي لا يحتمل مع السرعة الكبيرة التي تجري بها المركبة ، ولذلك فإنه اقترح عليها أن تبقى في محطة « كيرني » في رعاية پاسپارتو ، على أن يأخذ هذا الشاب الأمين على عاتقه أن يعود بها إلى أوربا من طريق أفضل وفي ظروف أنسب . ولكن السيدة أوودا رفضت أن تنفصل عن السيد فوج وفرح پاسپارتو لقرارها هذا . فإنه لم يرد في الواقع ، وبأي ثمن كان ، أن يترك سيده ، مادام فيكس مرافقاً له .

ومن الصعوبة بمكان أن نتعرف على ما كان يتردد بخاطر مفتش الشرطة في تلك اللحظة . فهل زعزعت عودة فيلياس فوج تلك العقيدة التي كان قد آمن بها ، أو أنه اعتبر فيلياس فوج وغداً شديد الدهاء ، اعتقد حين أتم رحلته حول العالم ، أنه سوف يكون في إنجلترا في أمان تام ؟ ربما كان رأي فيكس في فيلياس فوج قد تحسن بعض الشيء . ومع ذلك فلم يضعف تصميمه على أن يؤدي واجبه ، بل أصبح أكثر لهفة من رفاقه على التعجيل بكل ما في طاقته بالعودة إلى إنجلترا . وفي الساعة الثامنة ، كانت الزاحفة على أهبة الاستعداد للرحيل . وكان المسافرون ، وقد يروق لنا أن نسميهم « ركاباً » ، قد اتخذوا أماكنهم فيها ، وتدثروا بأغطية السفر التي شدوها على أجسامهم . وارتفع الشراعان الكبيران ، وجرت المركبة ، تحت ضغط الريح ، فوق الثلج المتجمد ، بسرعة أربعين ميلاً في الساعة .

وكانت المسافة التي تفصل حصن كيرني عن « أوماها » ، تبلغ ، على خط مستقيم (أو على خط طيران النحل ، كما يقول الأمريكان) ، مائتي ميل على أكثر تقدير . فإذا استمرت الريح على شدتها ، كان يمكن قطع هذه المسافة في خمس ساعات ، فتصل الزاحفة إلى أوماها ، إذا لم يقع أي حادث ، في الساعة الواحدة بعد الظهر .

وكم كانت الرحلة قاسية! فقد كان المسافرون ، وقد التصق كل منهم بالآخر التصاقاً شديداً ، لا يستطيعون التحدث . لقد قطع فيهم البرد ، الذي زادته السرعة حدة ، كل قدرة على الكلام . وكانت الزاحفة تنزلق على سطح السهل ، بتلك الخفة التي ينزلق بها قارب على سطح المياه ، ولكن لم تكن هناك أمواج .

وكانت الزاحفة ، حين تصلها الريح ، مكتسحة سطح الأرض ، تبدو وكأنها قد اقتلعت من الأرض بسبب شراعاتها التي كانت منبسطة كأجنحة كبيرة منشورة . وكان مادج ، عند « الدفة » يوجه المركبة في اتجاه واحد مستقيم يحافظ عليه ، فكان قابضاً على المجذاف ، يحركه معدلا التعرجات التي كانت المركبة في اندفاعها تضطر إلى عملها . وكانت الشراعات كلها مشدودة ، الأمامية منها والعلوية . وكانت كل منها تتلقى الريح ، وتضيف قوتها الدافعة إلى القوى الدافعة للشراعات الأخرى ، ولم يكن من المستطاع تقدير سرعة المركبة تقديراً حسياً ، ولكنها لم تكن بالتأكيد تقل عن أربعين ميلاً في الساعة .

وقال مادج : « سوف نصل في الميعاد ، إذا لم يحدث أي تلف! »

وكان في مصلحة مادج أن يصل في الموعد المتفق عليه ، فإن السيد فوج ، وهو الحريص على تنفيذ سياسته ، كان قد وعده بجائزة كبيرة .

وكانت المروج التي اجتازتها الزاحفة في خط مستقيم ، مستوية استواء سطح البحر ، وكأنها مستنقع تجمدت مياهه . وكان الخط الحديدي الذي يربط ذلك الشق من الإقليم يمتد من الجنوب الغربي ، فيمر بجراند ايلاند ، وكولمباس ، وهي مدينة هامة في نبراسكا ، ثم شويلر ، وڤرمونت ، ثم أوماها . وكان يتبع ، طوال سيره ، الشاطئ الأيمن لنهر « پلات » . أما الزاحفة ، فإنها اختصرت ذلك الطريق إذ اتبعت وتر القوس الذي يرسمه الخط الحديدي . لم يكن مادج يخشى أن يوقفه نهر « پلات » عند ذلك الكوع الذي كان يرسمه ذلك النهر أمام « فريمونت » مادامت مياهه متجمدة . وعلى ذلك فإن الطريق كان خالياً تماماً من العوائق ، ولم يكن هناك ما يخشاه فيلياس فوج سوى أمرين ، تلف يحدث في أجزاء المركبة ، أو تغير أو هبوط في الريح .

على أن الريح لم تهبط . بل هي على العكس من ذلك ما برحت تهب بشدة تقوس تحت وطأتها الصاري المثبت بالأسلاك المعدنية تثبيتاً متيناً . وكانت تلك الأسلاك المعدنية الشبيهة بأوتار آلة موسيقية ، تصدح ، وكأن قوساً يمر عليها فيجعلها تتذبذب . وكانت الزاحفة منطلقة وسط أنغام متآلفة ذات قوة غريبة .

وقال السيد فوج : «تلك الأوتار تصدر صوت الوتر الخامس والثامن وكانت هذه هي الكلمات الوحيدة التي نطق بها طوال الرحلة . وكانت السيدة أوودا ، وهي متدثرة بالفرو وأغطية السفر ، في أمان ، بقدر الإمكان ، من إصابات البرد . أما پاسپارتو ، بوجهه الأحمر كقرص الشمس حين تغرب وراء الضباب ، فقد كان يستنشق ذلك الهواء اللاذع . وعاد الأمل يداعب نفسه ، التي كانت تختزن قدراً كبيراً من ثقة لا تتزعزع في الأقدار ، إنهم سوف يصلون إلى نيويورك في المساء بدلاً من أن يصلوها في الصباح ، ولكن كانت أمامهم بعض الفرص للوصول قبل رحيل الباخرة المتجهة إلى ليفربول .

ولقد أحس فوق ذلك بالرغبة في أن يصافح حليفه فيكس . ولم ينس بعد أن المفتش هو الذي توصل إلى الزاحفة الشراعية ، التي كانت بناء على ذلك الوسيلة الوحيدة لإيصالهم إلى «أوماها» في الوقت المناسب . مع ذلك فقد خالجه شعور غامض جعله يتعلق بأذيال الصمت في تحفظه المعتاد . وعلى كل حال ، فقد كان ثمة أمر يجدر بپاسپارتو ألا ينساه إطلاقاً ، ذلك الأمر هو تلك التضحية التي أقدم عليها السيد فوج ، دون أدنى تردد ، لينتزعه من براثن السيوكس لقد خاطر السيد فوج في هذا الأمر بثروته وحياته . كلا! إن خادمه لن ينسى أبداً هذا الأمر!

وبينما كان كل من المسافرين غارقاً في تأملاته المتنوعة كل التنوع ، كانت الزاحفة منطلقة فوق ذلك البساط الشاسع من الجليد . ولم يكونوا يشعرون بمرور النهيرات أو فروع نهر «ليتيل بلو» أي الأزرق الصغير . وكانت الحقول ومجاري المياه تختفي تحت ستار أبيض

متسق . وكان السهل قفرا كله . ولما كان هذا السهل محصوراً بين خط «يونيون پاسيفيك» والخط الفرعي الذي يربط «كيرني» بسان جوزيف ، فإنه كان يشكل شيئاً يشبه جزيرة كبيرة غير مسكونة . ولم تكن هناك قرية أو محطة أو حصن . وكان يرون الفينة بعد الفينة ، شجرة عابسة ، تمر في سرعة البرق ، وهيكلها الأبيض يتلوى تحت وطأة الريح العاتية . وفي بعض الأحيان كانت جماعات من الطيور المتوحشة تطير مذعورة في الجو دفعة واحدة . وفي أحيان أخرى ، كانت بعض ذئاب المروج تجري ، في جماعات عديدة ، هزيلة جائعة ، تدفعها الحاجة القاسية الملحة إلى الغذاء ، تسابق الزاحفة . وكان پاسپارتو يترقبها ، والمسدس في يده ، متأهباً لإطلاق النار على أقرب ذئب منها .

ولو حدث في ذلك الوقت حادث من شأنه أن يوقف الزاحفة ، لكان المسافرون عرضة لأشد المخاطر ، فالوحوش الكاسرة لا تتردد في مهاجمتهم . على أن الزاحفة قد ثبتت في سيرها ، ولم تلبث أن تقدمت كثيراً ، وتركت وراءها كل تلك الجماعات الصارخة العاوية .

وفي الثانية عشرة ظهراً ، استنتج مادج ، من بعض علامات رآها ، أنهم يمرون فوق مجرى المياه المتجمعة لنهر «پلات» ولم يفصح بشيء من ذلك . ولكنه قد وثق من أنهم سوف يصلون إلى محطة «أوماها» بعد مسيرة عشرين ميلاً .

ولم تنقض ، في الواقع ، ساعة من الزمن ، حتى ترك ذلك المرشد الكفء دفته . وأسرع إلى حبال الشراعات وجمعها كلها ، بينما كانت الزاحفة منطلقة في قوة لا تقاوم مجتازة نصف الميل الأخير ، بغير شراعاتها . وأخيراً توقفت ، وأشار مادج إلى مجموعة من السطوح البيضاء التي تكسوها الثلوج قائلاً : «لقد وصلنا» .

لقد وصلوا ؟ نعم وصلوا بالفعل ، إلى تلك المحطة التي تقوم منها قطارات متعددة تربطها يومياً بشرق الولايات المتحدة .

وكان پاسپارتو وفيكس قد قفزا إلى الأرض وطفقا يحركان أعضاءهما المتخدرة . وساعدا السيد فوج والسيدة الشابة على النزول

من الزاحفة . وأدى فيلياس فوج حسابه إلى مادج بسخاء ، وصافح باسپارتو يد الأخير كما لو كان يصافح صديقاً حميماً ، وأسرع الجميع متجهين نحو محطة أوماها .

وفي تلك المدينة الهامة من مدن « نبراسكا » ، تتوقف سكة حديد الباسيفيك الأصلية التي تربط حوض المسيسيبي بالمحيط الكبير .

وللذهاب من أوماها إلى شيكاجو ، يجري الطريق الحديدي الذي يحمل اسم « طريق شيكاجو روك آيلاند » نحو الشرق مباشرة ماراً بخمسين محطة .

وكان هناك قطار مباشر قد تأهب للرحيل . ولم يكن لدى فيلياس فوج ورفاقه من الوقت إلا ما يكفي للإسراع في الصعود إلى إحدى العربات . ولم يروا شيئاً في أوماها ، ولكن پاسپارتو أقر في نفسه أنه لم يكن في ذلك الأمر ما يدعو إلى الأسف . فلم يكن في المدينة ما يهمهم معرفته .

وانطلق ذلك القطار بسرعة فائقة . فمر في ولاية « ايوا » على جروف « كارنسيل » ، وعلى مدينة آيوا . وخلال الليل ، اجتاز نهر المسيسيپي عند « داڤينپورت » ، ودخل إلينوي عن طريق « روك آيلاند » . وفي اليوم التالي ، العاشر من الشهر ، في الساعة الرابعة مساء ، وصل إلى شيكاجو ، التي كانت في ذلك الوقت قد تخلصت من خرائبها ، وأصبحت قائمة في عظمة وجلال ، أكثر من أي وقت مضى ، على ضفاف بحيرتها الرائعة « ميتشجان » .

وتفصل شيكاجو عن نيويورك تسعمائة ميل . ولم تكن شيكاجو تنقصها القطارات . وانتقل السيد فوج في الحال من قطار إلى آخر . وانطلقت القاطرة القوية للخط الحديدي « پتسبرج فورت واين شيكاجو » ، بكل سرعة ، وكأنها أدركت أن السيد الفاضل لم يكن لديه وقت يضيعه . واجتازت بسرعة البرق ولاية « اينديانا » ثم « أهايو » ، و« پنسلفانيا » و« نيوچيرسي » مارة بمدن ذات أسماء قديمة ، كان لبعضها شوارع ، ومركبات ترام ، ولم يكن بالبعض الآخر

منازل ، وأخيراً ظهر خليج « هدسون » . وفي اليوم الحادي عشر من ديسمبر ، في الساعة الحادية عشرة والربع مساء ، وقف القطار في المحطة ، على الضفة اليمنى من « الكونراد » ، وبتعبير آخر : الضفة الخاصة بالشركة الملكية لسفن البريد البخارية ، « لإنجلترا وشمال أميركا » .

كانت الباخرة « الصين » المسافرة إلى ليفرپول قد أقلعت منذ خمس وأربعين دقيقة!

٣٢

فيلياس فوج يعلنها حرباً شعواء

على الحظ السيّىء

كان يبدو أن الباخرة «الصين» قد حملت معها برحيلها آخر أمل تبقى في نفس فيلياس فوج .

ولم تكن في الواقع ثمة باخرة أخرى من البواخر التي تعمل بين أميركا وأوروبا ، كعابرات المحيط الفرنسية ، أو سفن خط «هوايت ستار لاين» ، أو سفن شركة «إيمان» أو سفن خط «هامبورج» ، تستطيع أن تخدم مشاريع هذا السيد كما كانت تستطيعه الباخرة «الصين» .

أما الباخرة «لوبرير» ، وهي من بواخر شركة «ترنزا تلانتيك» الفرنسية الرائعة ، التي تعادل في سرعتها وتفوق فيما تملكه من وسائل الراحة كل بواخر الخطوط الأخرى دون استثناء ، فلم تكن راحلة إلا بعد يومين ، أي في الرابع والعشرين من ديسمبر . ثم إنها كانت كمثيلاتها من بواخر شركة هامبورج ، لا تذهب مباشرة إلى ليفربول أو إلى لندن وإنما إلى ميناء الهافر ، وكان من شأن هذه الرحلة الإضافية من الهافر إلى ساوثمبتون أن تؤخر فيلياس فوج عن موعده فتقضي بذلك على آخر محاولاته .

وأما بواخر شركة «إيمان» التي كانت إحداها «سيتي أوف باريس» راحلة في اليوم التالي ، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى التفكير فيها . فإن هذه البواخر كانت معدة على الأخص لنقل المهاجرين . وهي

بواخر ضعيفة الآلات ، تسير بالشراعات وبقوة البخار ، فهي بطيئة السرعة . وكانت تقطع المسافة من نيويورك إلى إنجلترا في زمن أطول من الزمن الذي تبقى لمستر فوج حتى يربح رهانه . وقد أدرك المستر فوج هذه الحقيقة كل الإدراك حين فحص دليل «برادشو» الذي كان يشرح له ، يوماً بيوم ، كل حركات الملاحة عبر المحيطات .

وكان پاسپارتو مذهولاً . فإن فوات اللحاق بالباخرة لتأخرهم خمساً وأربعين دقيقة عن موعد قيامها كان كفيلاً بالقضاء عليه . وكان هذا الأمر نتيجة خطئه هو ، فإنه بدلاً من أن يكون عوناً لسيده ، لم يكف عن إقامة العقبات في طريقه! ولما استعاد في ذاكرته كل أحداث الرحلة وحسب المبالغ التي صرفت في أغراض خاسرة كل الخسارة ، ومن أجله هو وحده ، ثم فكر في أن قيمة ذلك الرهان الكبير الخاسر ، إذا ما أضيف إليها تلك النفقات الهائلة التي أنفقت في الرحلة التي لم تعد لها أية فائدة ، فسوف تجر على السيد فوج الخراب التام ، كان كلما فكر في ذلك ، صب على نفسه اللعنات الفاحشة .

ولكن السيد فوج لم يوجه إليه أي لوم أو عتاب . وعندما كان يغادر رصيف البواخر عابرة المحيط ، لم يقل له سوى هذه الكلمات : «سننظر في هذا الأمر غداً ، تعال معي» .

وعبر السيد فوج والسيدة أوودا وفيكس وپاسپارتو خليج هدسن في قارب «چيرسي سيتي» . ثم استقلوا عربة أوصلتهم إلى فندق «سانت نيكولاس» في برودواي . وهناك أعدت لهم غرف وضعت تحت تصرفهم . ومرت الليلة قصيرة في نظر فيلياس فوج ، الذي نام نوماً عميقاً ، وإنما بدت طويلة للغاية في نظر السيدة أوودا ورفيقيها اللذين لم يتح لهما القلق والاضطراب أي راحة .

وكان اليوم التالي الثاني عشر من شهر ديسمبر . وكان الباقي لهم من الوقت ، ابتداء من الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم ، الثاني عشر ، حتى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين من مساء اليوم الحادي والعشرين ، تسعة أيام وثلاث عشرة ساعة وخمس وأربعون

دقيقة . فلو كان فيلياس فوج قد رحل البارحة على ظهر الباخرة «الصين» وهي واحدة من أحسن سفن خط الملاحة «كونار» ، فإنه كان يصل إلى «ليفربول» ثم إلى لندن في المواعيد المحددة!

وغادر مستر فوج وحده الفندق ، بعد أن أوصى خادمه بانتظاره وبإخطار السيدة أووداً أن تكون على أهبة الاستعداد في أية لحظة .

وذهب السيد فوج إلى شواطئ بحيرة هدسون ، وبحث بدقة عن سفينة على أهبة الرحيل ، من بين السفن المربوطة إلى الرصيف أو الراسية في النهر . وكانت ثمة سفن قد رفعت علم الرحيل واستعدت للإبحار عندما يرتفع المد في الصباح ، ذلك أنه لا يمر يوم في ميناء نيويورك العجيب ، الفسيح الأرجاء دون أن تقلع مئات السفن متجهة إلى جميع بقاع العالم . على أن أغلبها كان سفناً شراعية لا تفيد فيلياس فوج . وكان يبدو أن هذا السيد سيفشل بالتأكيد في محاولته الأخيرة ، وإذا به قد أبصر سفينة راسية على بعد يبلغ ثمانمائة متر على الأكثر من مواقع المدفعية الساحلية ، كانت سفينة تجارية ذات رفاص ، دقيقة التركيب ، تخرج من مداخنها سحباً كثيفة من الدخان ، تدل على أنها كانت على وشك الإبحار .

واستقدم فيلياس فوج قارباً ركبه . وبعد قليل من التجذيف وصل إلى سلم السفينة ، وتدعى «هنرييتا» ، وهي باخرة ، هيكلها من حديد ، ولكن أجزاءها العلوية من خشب .

وكان الربان رجلاً في حوالي الخمسين من عمره ، يبدو كبحار قديم ، كثير التذمر ، صعب المعاملة ، له عينان منتفختان ، ووجه نحاسي اللون ، وشعر أحمر ، ورقبة غليظة ، ولم يكن في هيئته ما ينم عن أنه ينتسب إلى المجتمع الراقي .

وسأله السيد فوج : «سيدي الربان ؟»

– أنا هو .

– أنا فيلياس فوج ، من لندن .

– وأنا أندرو سبيدي من كارديف .

– هل أنت راحل ؟

– بعد ساعة ؟

– ما هي وجهتك ؟

– بوردو .

– وما نوع شحنتك ؟

– ليس عندي أية شحنة . إنني راحل وليس معي أية بضاعة أو أثقال .

– هل معك ركاب ؟

– ليس معي ركاب ، إنني لا أنقل ركاباً بالمرة ، فالركاب متعبون ومزعجون .

– وهل تسير سفينتك سيراً جيداً ؟

– إنها تسير بسرعة تتراوح بين إحدى عشرة واثنتي عشرة عقدة في الساعة . إن الهنرييتا سفينة معروفة .

– هل تسمح بنقلي إلى ليفربول ، أنا وثلاثة أشخاص ؟

– إلى ليفربول ؟ ولم لا أحملك إلى الصين ؟

– أقول إلى ليفربول .

– كلا!

– كيف ذلك ؟

– إنني مسافر إلى بوردو ، وسوف أسافر إذن إلى بوردو .

– مهما كان المبلغ الذي أدفعه ؟

– مهما كان المبلغ .

قال الربان ذلك بلهجة لا تسمح بأي تعقيب .

وأردف فيلياس فوج قائلاً : ولكن أصحاب الهنرييتا . . .

فأجاب الربان : أصحاب السفينة هم أنا ، فالسفينة ملكي .

– إنني أستأجرها منك .

– كلا .

– أشتريها منك .

– كلا .

ولم تطرف لفيلياس فوج عين ، مع أن الموقف كان دقيقاً .

ولم يكن الأمر في نيويورك مشابهاً لما كان في هونج كونج . ولم يكن الأمر مع ربان الهنرييتا كما كان مع صاحب « التانكادير » . فقد كانت أموال مستر فوج ، حتى في ذلك الحين ، تذلل كل العقبات التي اعترضت طريقه . أما في هذه المرة فقد فشل المال .

ومع ذلك فقد كان من الضروري إيجاد وسيلة لعبور المحيط الأطلسي في سفينة ، اللهم إلا إذا أمكن عبوره في « بالون » . وكان في هذا مخاطرة شديدة ، فضلاً عن أنه أمر لا يمكن تحقيقه .

وبدا لفيلياس فوج أن لديه فكرة إذ قال للربان :

– حسناً ، هل تسمح بنقلي إلى بوردو ؟

– كلا ، حتى لو دفعت مائتي دولار!

– إنني أعطيك ألفي دولار (عشرة آلاف فرنك ذهب)

– عن الشخص الواحد ؟

– نعم عن الشخص الواحد .

– وأنتم أربعة ؟

– نعم أربعة .

وطفق الكابتن سپيدي يحك جبهته بشدة ، كمن يبغي أن يسلخ بشرته إن ثمانية آلاف دولار يربحها دون أن يعدل طريق رحلته ، لمبلغ يستحق منه أن يخفف من حدة معاملته لكل راكب يريد أن يستقل سفينة . ثم إن ركابا يدفع كل منهم ألفي دولار ليسوا ركاباً بالمعنى الصحيح ، بل هم بضاعة ثمنية!

وقال الكابتن سپيدى ببساطة : « إنني راحل في الساعة التاسعة ، فإذا حضرت أنت ومن معك . . . ؟ »

وأجاب مستر فوج في مثل بساطته : « سنكون على ظهر السفينة في الساعة التاسعة! »

وكانت الساعة عندئذ الثامنة والنصف . فنزل مستر فوج من السفينة ، وركب عربته ، وتوجه إلى فندق « سانت نيكولاس » ثم عاد

في رفقة السيدة أوودا وپاسپارتو ، وكان معه أيضاً فيكس الذي أخذ يلازمه كظله . فقد عرض عليه أن يأخذه معه في السفينة دون أجر . وأتم السيد المحترم كل هذه الأعمال بالهدوء نفسه الذي لم يتخل عنه في أي ظرف من الظروف .

وفي اللحظة التي تحركت فيها الهنرييتا ، كان الركاب الأربعة على ظهرها . ولما عرف پاسپارتو الثمن الذي تكلفته تلك الرحلة ، أطلق آهة من آهاته الطويلة التي كانت تتردد مارة بكل درجات السلم الموسيقي الهابط!

أما المفتش فيكس فإنه قال لنفسه مما لا شك فيه أن بنك انجلترا لن يخرج سالماً من هذه القضية . فإن أكثر من سبعة آلاف جنيه سوف تنقص من الحقيبة الملأى بالأوراق المالية ، عند وصولها إلى لندن ، هذا إذا فرضنا أن السيد فوج لن يلقي بحفنة أخرى من النقود في عرض البحر .

٣٣

فيلياس فوج يبرهن على أنه كفء لمواجهة جميع الظروف

وانقضت ساعة ، كانت السفينة هنرييتا قد تجاوزت العائمة المضيئة التي تحدد مدخل خليج هدسون ، وتدور حول رأس « ساندي هوك » ثم تخرج إلى عرض البحر . وخلال النهار كانت قد حاذت « لونج آيلاند » ، في ذلك الجزء من البحر الممتد أمام فنار « فير آيلاند » ، وانطلقت مسرعة نحو الشرق .

وفي ظهر اليوم التالي ، الثالث عشر من ديسمبر ، صعد رجل على القنطرة لتحديد موقع السفينة ، كان من المنتظر أن يكون هذا الرجل هو الكابتن سبيدي! ولكن لا ، كان الواقع خلاف ذلك ، فقد كان هذا الرجل هو مستر فيلياس فوج .

أما الكابتن سبيدي فإنه كان باختصار سجيناً في غرفته التي أغلقت عليه بالمفتاح ، وكان يولول ويطلق صرخات تنم عن أشد حالات الغضب .

أما ما حدث فهو على جانب كبير من البساطة . فإن فيلياس فوج كان يريد الذهاب إلى ليفربول ، ولم يقبل الربان أن يوصله إليها . وعلى ذلك فقد قبل فيلياس فوج أن يستقل السفينة إلى بوردو . وانقضت ثلاثون ساعة منذ أن صعد إلى ظهر السفينة ، أغدق فيها الأوراق المالية على أفراد طاقمها ، حتى أصبح هذا الطاقم ، المكون من

بحارة ووقادين ليسوا ذوي استقامة ، كما كانت علاقتهم سيئة بالربان . أصبح الطاقم كله رهن إشارته وهذا هو السبب في أن فيلياس فوج قد حل محل الكابتن سبيدي في قيادة السفينة ، وفي أن الأخير قد سجن في غرفته ، وفي أن السفينة « هنرييتا » كانت متجهة إلى ليفربول . على أنه كان من الواضح لمن يشاهد السيد فوج وهو يقود السفينة ، أنه كان ملاحاً قديراً .

وسنعلم فيما بعد كيف انتهت هذه المغامرة . ومع ذلك فإن السيدة أوودا كانت مضطربة البال ، ولم تقل شيئاً يفصح عن قلقها . وذهل فيكس لأول وهلة . أما پاسپارتو فإنه وجد الأمر شائقاً للغاية .

وعلى ذلك فإنه إذا لم تسؤ حالة البحر (وما أكثر استعمالنا لكلمة إذا) ولم تشتد الريح في ناحية الشرق ، وإذا لم يحدث للسفينة أي تلف أو للآلة أي عطب ، فإن الهنرييتا ستتمكن خلال التسعة أيام التي تبدأ من اليوم الثاني عشر من ديسمبر حتى الحادي والعشرين منه ، أن تجتاز الثلاثة آلاف ميل التي تفصل نيويورك عن ليفربول . إلا أن مسألة الباخرة « هنرييتا » مضافة إلى مسألة البنك سوف تؤدي بالسيد فوج ، عند وصولهم إلى إنجلترا ، إلى نتائج أسوأ بقليل مما كان يتوقع .

وسارت السفينة خلال الأيام الأولى من الرحلة في ظروف ملائمة كل الملاءمة . ولم يكن البحر رديئاً . وبدت الريح كأنها تهب باطراد من ناحية الشمال الشرقي ، ونشرت الشراعات ، وسارت الهنرييتا تدفعها الريح ، وكأنها عابرة محيطات حقيقية .

وكان پاسپارتو متهللاً ، فإن مغامرة سيده الأخيرة التي لم تظهر نتيجتها بعد ، قد أثارت حماسته ولم ير طاقم السفينة حتى ذلك اليوم فتى أكثر منه بهجة وخفة . فقد كان يحيي البحارة ويلاطفهم ويدهشهم بما كان يأتيه من حركات بهلوانية . وكان يطلق عليهم بسخاء أحسن الأسماء ويقدم لهم ألذ المشروبات . وكان يتصور أنهم يشتغلون كما يشتغل السادة الأفاضل ، وأن الوقادين يعملون أعمال الأبطال الصناديد . وكانت بشاشته تنتقل إلى غيره في سهولة ويسر فتعم

الجميع ، ونسي الماضي ، ونسي المضايقات والمخاطر . ولم يعد يفكر إلا في تلك الغاية التي أصبحت قريبة المنال وكان أحياناً يغلي لهفة ونفاد صبر ، كأنما ألهبته أفران الهنرييتا . وكثيراً ما كان هذا الفتى النشيط يدور حول فيكس ويحدق فيه تحديقاً يحمل الكثير من المعاني . ولكنه لم يكن يكلمه ، إذ لم يبق شيء من الود بين الصديقين القديمين .

ويجب الاعتراف ، فضلاً عن ذلك ، بأن فيكس لم يعد يفهم من الأمر شيئاً على الإطلاق! فالاستيلاء على الهنرييتا ورشوة أفراد طاقمها ، ثم فوج ، هذا الذي يقودها كأحسن ما يكون ، بحار ماهر ، كل هذه الأمور مجتمعة أذهلته ، ولم يعد يعرف كيف يفسرها! وعلى كل حال فإن إنساناً بدأ مغامراته بسرقة خمسة وخمسين ألف جنيه ليستطيع أن ينتهي إلى سرقة سفينة . ووصل فيكس بطبيعة الحال إلى الاعتقاد بأن الهنرييتا ، تحت قيادة فوج لم تكن سائرة نحو ليفربول ، وإنما إلى بقعة ما من بقاع العالم ، يستقر فيها فوج في أمن وسلام ، بعد أن أصبح قرصاناً! في الحقيقة ، يجب أن نسلم بأن هذه النظرة محتملة ومقبولة . وبدأ الشرطي يشعر شعوراً جدياً بالندم لتورطه في هذه المأمورية . أما الكابتن سپيدي فإنه استمر يهدد في كابينته . وكان پاسپارتو ، إذ كلف بإحضار الغذاء إليه ، لا يستطيع أن يقوم بذلك إلا بعد أن يحتاط لنفسه كل الحيطة بالرغم من ثقته في قوته البدنية . أما السيد فوج ، فإنه لم يكن يبدو عليه أنه يشعر بوجود ربان على ظهر السفينة .

وفي اليوم الثالث عشر مرت الباخرة بالقرب من جوف جزيرة « تيرنيف » أي الأرض الجديدة – وهذه النواحي جوها رديء للغاية ؛ ففي الشتاء على الأخص يكثر فيها الضباب ، وتشتد الرياح بدرجة مخيفة . ومنذ اليوم السابق ، هبط « البارومتر » هبوطاً مفاجئاً ينبئ بحدوث تغير قريب في الأحوال الجوية . وفعلاً تغيرت درجة الحرارة أثناء الليل ، واشتد البرد فأصبح قارصاً . وفي الوقت نفسه هبت الريح من الجنوب الشرقي . واضطر السيد فوج ، أمام كل هذه العوائق ، إلى طي الشراعات وزيادة ضغط البخار . ومع ذلك فقد تباطأت السفينة

بالنسبة إلى سوء حالة البحر الذي أخذت أمواجه المستطيلة تتكسر على مقدمتها ، وأخذت السفينة تتمايل تمايلاً شديداً من المقدمة إلى المؤخرة ، مما قلل كثيراً من سرعتها . واشتدت الريح ثم انقلبت إلى عاصفة ، وأصبح من المتوقع ألا تستطيع الهنرييتا الثبات في وجه الأمواج فإذا كان لابد لها من الفرار فإلى المصير المجهول بكل ما فيه من احتمالات سيئة .

واكفهر وجه السماء فاكفهر معه وجه پاسپارتو ، وغشيه رعب قاتل لازمه يومين كاملين . أما فيلياس فوج فإنه كان ملاحاً جريئاً أهلاً لمغالبة البحر ، وواصل طريقه دون أن يقلل من ضغط البخار . وكانت الهنرييتا ، إما تصعد فوق الأمواج ، وإما تخترقها . وكانت رفاصاتها تبرز أحياناً فوق سطح الماء ضاربة الهواء بأذرعتها التي تدور بشدة . ويحدث ذلك حين ترتفع موجة عالية كالطود فترفع مؤخرة السفينة عن سطح الماء ، ومع كل ذلك فقد كانت السفينة تسير قدماً وإلى الأمام .

على أن الريح لم تشتد بالدرجة التي كان يخشاها الجميع . فلم تصل إلى درجة تلك الأعاصير التي تهب بسرعة تسعين ميلاً في الساعة . ولكنها احتفظت بأقصى شدة بلغتها . ولسوء الحظ كانت تهب بإصرار من ناحية الجنوب الشرقي ، فلم تمكن السفينة من فرد شراعاتها مع أنه كان من صالح السفينة أن تستعمل شراعاتها لمعاونة البخار كما سنرى فيما بعد .

وكان اليوم السادس عشر من ديسمبر ، هو ، اليومَ الخامس والسبعين منذ مغادرة لندن . وبالإجمال فإن الهنرييتا لم تسجل حتى الآن أي تأخير مقلق . فقد قطعت نصف الطريق تقريباً ، واجتازت أسوأ الممرات المائية . وقد يكون النجاح مضموناً لو كان الفصل صيفاً أما في الشتاء ، فإن الإنسان يجد نفسه تحت رحمة الجو الرديء . ولم يقل پاسپارتو شيئاً . فقد كان يشعر بالأمل في أعماق نفسه ، فإذا لم تكن ثمة فائدة من الريح ، فإنه يمكن على الأقل الاعتماد على البخار . على أن الميكانيكي قد صعد في ذلك اليوم إلى سطح السفينة ، وقابل السيد

فوج وتبادل معه في حرارة حديثاً هاماً . وانتاب پاسپارتو نوع من القلق الغامض ، وكان على استعداد لأن يضحي بإحدى أذنيه لو استطاع أن يسمع بالأخرى ما قاله الرجلان . ومع ذلك فقد استطاع أن يلتقط بضع كلمات ، كان من بينها الكلمات التالية التي نطق بها سيده :

هل أنت واثق مما تقول ؟

فأجاب الميكانيكي : « نعم واثق . ولا تنسَ أننا منذ أبحرنا ونحن نوقد كل الأفران . وإذا كان عندنا ما يكفي من الفحم للسير بالسفينة بقوة بخار متوسطة من نيويورك إلى بوردو ؛ إلا أنه ليس لدينا ما يكفي للسير بأقصى قوة بخارية من نيويورك إلى ليفربول!

فأجاب السيد فوج : « سأفكر في الأمر » .

وفهم پاسپارتو . وانتابه قلق شديد . إن الفحم سوف ينفد! وقال لنفسه ، « آه ، لو استطاع سيدي أن يجد حلاً لهذه المشكلة لكان بالتأكيد رجلاً عظيماً ؟ »

وإذ قابل في طريقه فيكس ، لم يتمالك نفسه أن يفضي إليه بحقيقة الموقف .

فقال له الشرطي ، وهو يصر على أسنانه : أتعتقد إذن أننا ذاهبون إلى ليفربول ؟

– بالتأكيد!

فأجاب المفتش : « يا للأبله » وانصرف وهو يرفع كتفيه . وكان پاسپارتو على وشك أن يرد في قسوة على ذلك النعت الذي وصفه به الشرطي والذي لم يدرك مغزاه الحقيقي . ولكنه قال لنفسه إن فيكس سيّىء الحظ ، ولابد أن يكون محزوناً لخيبة أمله ، مصاباً في عزة نفسه ، بعد أن اقتفى أثراً خاطئاً دار به حول العالم . وأقر پاسپارتو بخطئه .

ولكن ما هو القرار الذي سيتخذه فيلياس فوج ؟

كان من الصعب الحدس به . ومع ذلك فقد كان يبدو أن السيد المحترم قد اتخذ قراراً ما . ففي المساء نفسه استدعى الميكانيكي وقال له :

– أوقد النيران كلها ، وسر في طريقك قدماً حتى آخر ذرة من الوقود .

وبعد بضع دقائق ، أخذت مدخنة الهنريتا تقذف سحباً كثيفة من الدخان .

وواصلت الباخرة سيرها بأقصى سرعة تستطيعها . ولكن ما أن انقضى يومان حتى أعلن الميكانيكي أن الفحم سوف ينفد خلال اليوم .

فأجاب مستر فوج : « لا تقللوا النيران ، بل على العكس ، زيدوا الضغط على الصمامات » .

وحوالي ظهر ذلك اليوم ، صعد فيلياس فوج إلى مركز القيادة ، وأجرى تقديراته لتحديد موقع السفينة ، ثم استدعى پاسپارتو وأمره بالذهاب لإحضار الكابتن « سپيدي » وتلقى پاسپارتو الأمر وكأنه كلف بالذهاب لإطلاق سراح نمر كاسر ، ونزل في القمرة قائلاً : « من المؤكد أنه سوف يرغي ويزبد » .

والواقع أنه لم تنقض بضع دقائق ، حتى انطلقت قذيفة فوق سطح القمرات ، تحوطها الصرخات واللعنات ، وكانت تلك القذيفة هي الكابتن سپيدي نفسه ، بقده وقديده . وكان واضحاً أن تلك القذيفة سوف تنفجر تماماً في الحال .

وكان أول ما نطق به الكابتن سپيدي ، أن قال في صوت مختنق من شدة الغضب : « أين نحن ؟ » . وحقاً ، لو كان لدى هذا الرجل استعداد للاصابة بالشلل لأصيب به حتماً – ثم ثنى قائلاً ووجهه محتقن :

« أين نحن ؟ »

فأجاب السيد فوج بهدوء لا يعكره شيء . « نحن على مسافة سبعمائه وسبعين ميلاً من ليفربول (٣٠٠ فرسخ) » .

فصاح أندرو سپيدي : يالك من قرصان! .

– إنني استدعيتك يا سيدي . . .

– أنت من لصوص البحار!

فاستطرد فيلياس فوج قائلاً : « . . . سيدي ، استدعيتك لأرجوك أن تبيعني سفينتك »

- كلا ، وحق الشياطين كلها ، كلا! .
- ذلك لأنني مضطر إلى حرقها .
- أتحرق سفينتي ؟
- نعم ، على الأقل الأجزاء العليا منها ، لأن الوقود قد نفد .

فصاح الربان سپيدي ، والألفاظ تخرج من فمه بصعوبة : تحرق سفينتي! إنها تساوي خمسين ألف دولار (٢٥٠,٠٠٠ فرنك ذهب) .

فأجاب فيلياس فوج وهو يقدم للربان ربطة من الأوراق المالية .

- إليك ستين ألف دولار (٣٠٠,٠٠٠ فرنك ذهب) .

وكانت هذه الحركة بمثابة المعجزة في نفس أندرو سپيدي ، فإن الأميريكي لابد من أنه قد تأثر حين شاهد ستين ألفاً من الدولارات . ونسي الربان ثورته وسجنه ، وكل شكواه من ركابه . كان عمر سفينته عشرين سنة . وبذلك كانت الصفقة رابحة والفرصة ذهبية! ولم تعد القذيفة صالحة للانفجار ، فقد انتزع مستر فوج فتيلتها . وقال الربان بلهجة أرق كثيراً من ذي قبل : «هل يبقى لي بعد ذلك الهيكل الحديدي ؟»

- نعم يا سيدي ، يبقى لك الهيكل الحديدي والآلة . هل اتفقنا ؟
- نعم اتفقنا .

وأمسك أندرو سپيدي بربطة الأوراق المالية وعدها ثم أودعها جيبه .

وفي تلك الأثناء غاض الدم من وجه پاسپارتو . أما فيكس فإنه كاد يصاب بالشلل . فها هو ذا فوج ، وقد أنفق حتى الآن ما يقرب من العشرين ألف جنيه ، ومع ذلك فقد تخلى لبائعه عن هيكل السفينة الحديدي والآلة ، أي ما يقرب من الثمن الإجمالي للسفينة! حقاً ، لابد أن المال المسروق من البنك كان يبلغ خمسة وخمسين ألف جنيه! »

ولما وضع أندرو سپيدي النقود في جيبه ، قال له السيد فوج :

«سيدي ، لا تعجب من كل هذا التصرف . اعلم أنني سوف أخسر عشرين ألف جنيه إذا لم أصل إلى لندن في الحادي والعشرين من شهر ديسمبر في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين مساء . ولما

فاتني اللحاق بالباخرة القائمة من نيويورك ، ووجدتك ترفض توصيلي إلى ليفرپول . . . »

فصاح أندرو سپيدي : «وقد أحسنت صنعاً ، بحق شياطين الجحيم ، ما دمت قد ربحت من وراء ذلك أربعين ألف دولار على الأقل » .

ثم أضاف بلهجة تميل أكثر إلى الرزانة : هل تعلم أيها القبطان . . ؟

- فوج .
- حسناً ، هل تعلم يا قبطان فوج أن عروقك تجري فيها دماء أميركية ؟

قال هذا معتقداً أنه قد امتدح مخاطبه ، ثم عزم على الانصراف ، إلا أن فيلياس فوج قال له : «والآن هذه السفينة أصبحت ملكي ؟ »

- بالتأكيد ، من القاع حتى قمة الصواري والشراعات ، فقط كل ما هو مصنوع من الخشب ، كما اتفقنا ؟
- حسناً ، انزعوا كل التركيبات الداخلية وألقوا بها في الأفران لتغذيتها .

ومن الممكن تصور كميات الخشب الجاف التي كان يلزم استهلاكها للاستمرار في توليد ضغط البخار الكافي . ففي ذلك اليوم هدمت الغرف العليا والخلفية والقمرات المتوسطة .

وفي اليوم التالي التاسع عشر من ديسمبر ، أحرقت الصواري وملحقاتها ؛ بعد أن هدمت وقطعت بالبلطة إلى أجزاء صغيرة . وأدى أفراد الطاقم هذا العمل بحماس شديد لا يمكن وصفه . وقام پاسپارتو بقطع ونشر وتقليم الخشب ، مؤدياً في عمله ما يقوم به عشرة رجال . لقد استولى على الجميع جنون الهدم!

وفي اليوم التالي ، العشرين من ديسمبر التهمت النيران الحواجز الخشبية وصواري الأعلام ، والأجزاء الخشبية المرتفعة عن سطح الماء ، ومعظم أجزاء سطح السفينة . ولم تعد «الهنرييتا» أكثر من عائمة تسير على سطح الماء . على أنه شوهد في ذلك اليوم ساحل إيرلنده ومغارة «فاستفيت» ومع ذلك فإن السفينة لم تكن ، في الساعة العاشرة

مساء إلا أمام « كوينزتاون » ولم يبق أمام فيلياس فوج إلا أربع وعشرون ساعة للوصول إلى لندن! ومع ذلك فقد كان هذا الوقت هو ما يلزم للهنرييتا لتصل إلى ميناء ليفربول ، حتى لو سارت بأقصى سرعة لها ، فضلاً عن أن البخار كان على وشك أن ينفد من السفينة .

ولما كان الأمر قد انتهى بالقبطان سپيدي إلى أن يهتم اهتماماً جدياً بمشروعات السيد فوج ، فإنه قال له : « إنني أرثي لك حقاً! إن الظروف كلها ضدك! فإننا مازلنا أمام « كوينزتاون » .

فقال السيد فوج : « آه! إنها إذن كوينزتاون ، تلك المدينة التي نبصر أنوارها ؟

– نعم .

– هل نستطيع دخول الميناء ؟

– لا نستطيع ذلك قبل انقضاء ثلاث ساعات ، حين يكون المد في أقصى ارتفاعه .

فأجاب فيلياس فوج في هدوء دون أن يبدو على محياه أنه يستلهم وحيه ويغالب مرة أخرى حظه العاثر : « فلننتظر! »

« وكوينزتاون » هي في الواقع ميناء على الساحل الإيرلندي ، تمر عليها السفن عابرات المحيط القادمة من الولايات المتحدة ، فتلقي بها أكياس البريد . ثم تحمل الخطابات التي بداخل هذه الأكياس قطر سريعة ، تنتظر دائماً على أهبة الاستعداد لنقلها إلى « دبلن » ، ثم تحملها من « دبلن » إلى « ليفربول » بواخر سريعة جداً ، فتسبق بهذه الوسيلة أسرع سفن شركات الملاحة المختلفة بمقدار اثنتي عشرة ساعة . هذا الوقت الذي كان يوفره البريد الأميريكي ، أراد فيلياس فوج أن يوفره هو الآخر ؛ فبدلاً من أن يصل إلى ليفربول على ظهر الهنرييتا في مساء اليوم التالي ، فإنه سوف يصلها في الساعة الثانية ظهراً . وعلى ذلك فسيتوافر لديه الوقت الكافي للوصول إلى لندن قبل الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين مساء .

وفي حوالي الساعة الواحدة صباحاً ، كانت الهنرييتا تدخل في ميناء « كوينزتاون » والمد مرتفع . وبعد أن صافح فيلياس فوج الكابتن « سپيدي » وشد على يده القوية ، تركه على هيكل السفينة التي أصبحت جرداء ، ولكنها مع ذلك تساوي نصف قيمتها التي بيعت بها .

ونزل الركاب في الحال من السفينة . وخطر ببال فيكس في هذه اللحظة فكرة خبيثة ، فكرة القبض على السيد فوج ، ولكنه لم ينفذها! فلماذا لم يفعل ذلك ؟ وأي صراع كان يعتمل في نفسه ؟ هل عاد حقيقة إلى انجلترا على نفقة السيد فوج ؟ وهل أدرك أخيراً أنه قد أخطأ في حق هذا السيد ؟ ومع ذلك فقد لازمه كظله ولم يتخل عنه . فركب قطار « كوينزتاون » في الساعة الواحدة والنصف صباحاً مع السيدة أوودا وپاسپارتو الذي لم يجد وقتاً ليلتقط أنفاسه المتلاحقة . ووصل إلى « دبلن » مع طلوع النهار . واستقل في الحال إحدى السفن البخارية المصنوعة من الصلب على هيئة الصواريخ والمزودة بالآلات ، وهي سفن تنطلق هازئة بالأمواج العاتية مخترقة إياها .

وفي الساعة الثانية عشرة إلا الثلث من اليوم الحادي والعشرين من ديسمبر ، نزل فيلياس فوج أخيراً على رصيف ميناء ليفربول ، ولم يكن من لندن إلا على مسافة تستغرق ست ساعات .

إلا أنه في تلك اللحظة اقترب منه فيكس ، وألقى يده على كتفه ، وأطلعه على أمر القبض عليه قائلاً :

– أأنت المدعو فيلياس فوج ؟

– نعم يا سيدي .

– باسم الملكة ألقي القبض عليك!

٢٤

پاسپارتو تسنح له الفرصة

فيلقي نكتة قاسية ولكنها فريدة في بابها

سجن فيلياس فوج ، في مقر جمرك ليفرپول . وكان عليه أن يقضي الليل في سجنه هذا انتظاراً لترحيله إلى لندن .

وفي اللحظة التي ألقي القبض فيها على فوج ، أراد پاسپارتو أن ينقض على المفتش . ولكن بعضاً من رجال الشرطة منعوه . أما السيدة أوودا فإنها حين ذعرت من العمل العنيف الذي جرى أمامها ، ولم تكن تعرف شيئاً عن الموضوع ، فإنها لم تفهم شيئاً مما جرى . وشرح لها پاسپارتو الموقف . فقال إن السيد فوج ، ذلك السيد الأمين الشجاع ، الذي تدين له بحياتها ، قد قبض عليه بدعوى أنه لص . واحتجت السيدة الشابة على هذا الادعاء ، وقد جرحت كرامتها ، وسالت الدموع من عينيها حين أدركت أنها لن تستطيع أن تفعل أي شيء أو تقوم بأية محاولة لتخليص منقذها .

أما فيكس فإنه كان قد قبض على السيد فوج لأن واجبه أملى عليه ذلك . سواء أكان الأخير مذنباً حقاً أم غير مذنب ، وسوف تبت العدالة في هذا الشأن .

على أن فكرة واتت پاسپارتو ، تلك الفكرة الرهيبة التي تقول إنه كان بالتأكيد السبب في هذه المصيبة كلها ، فحقاً لماذا أخفى عن فوج

سر المغامرة التي قام بها فيكس ؟ ولماذا عاهد نفسه على ألا يبوح بالأمر لسيده حين كشف فيكس عن شخصيته ، شخصية مفتش الشرطة ، وعن المأمورية التي كلف بها ؟ فلو كان سيده قد أخطر بالأمر ، لقدم لفيكس الدلائل على براءته ، ولكشف له عن خطئه . وعلى كل حال فإنه لم يكن ليجر في أعقابه وعلى نفقته ذلك الشرطي التعس ، الذي كان أول شيء اهتم بفعله في اللحظة التي وطئت فيها قدماه أرض المملكة المتحدة ، أن يلقي القبض عليه .

ولما تذكر الشاب المسكين أخطاءه وعدم تبصره ، ندم ندماً شديداً وأخذ يبكي حتى أصبح في حالة يرثى لها ، وود لو هشم رأسه! وظل مع السيدة أوودا ، بالرغم من برودة الجو ، في أروقة الجمرك . وكانا يريدان رؤية السيد فوج مرة ثانية .

أما السيد فوج فقد حل به الخراب التام في اللحظة نفسها التي كاد فيها يدرك مأربه . فإن القبض عليه قد قضى على مشروعه قضاء مبرماً . إذ إنه وصل إلى ليفرپول في الساعة الثانية عشرة إلا ثلثاً من ظهر اليوم الحادي والعشرين من ديسمبر ، وكان عليه أن يقدم نفسه إلى نادي « الريفورم » في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين ، أي بقي له من الوقت تسع ساعات وخمس عشرة دقيقة . ولم يكن يلزمه سوى ست ساعات للوصول إلى لندن .

وفي تلك اللحظة ، كان الداخل إلى مقر الجمرك يجد السيد فوج جالساً لا يتحرك على مقعد خشبي ، لايبدو عليه أي غضب أو اضطراب . ولا نستطيع القول إنه قد استسلم للأمر الواقع ، ولكن الصدمة الأخيرة لم تحرك شعوره ، حتى ولا في الظاهر . فهل تولدت فيه قوة لا تقاوم ؟ كان هذا شيئاً لا يعلمه أحد . ولكن فيلياس فوج كان جالساً هناك ينتظر في هدوء . . . فماذا كان ينتظر ؟ هل كان لديه بعض الأمل ؟ ثم ألا يزال يعتقد في إمكان النجاح بعد أن أغلق عليه باب السجن ؟

ومهما كان الأمر ، فإن السيد فوج كان قد وضع ساعته بعناية على

النضد ، وأخذ ينظر إلى عقاربها وهي تدور . ولم تخرج كلمة واحدة من بين شفتيه ، غير أن نظرات عينيه كانت ثابتة بشكل غريب!

وعلى كل حال ، فقد كان الموقف رهيباً ، يتلخص ، في منطق من لا يستطيع مطالعة ضمير ذلك السيد ، في الآتي :

كان فيلياس فوج ، إذا اعتبرناه رجلاً شريفاً ، قد أفلس . أما فيلياس فوج ، إذا كان غير شريف ، فإنه قد وقع في يد العدالة . فهل فكر في الهرب ؟ وهل حاول أن يكتشف منفذاً بمقر الجمرك يستطيع منه أن يتسلل إلى الخارج ؟ إن المرء ليميل إلى تصديق هذا الفرض ؟ فقد نهض فوج في لحظة من اللحظات ، ودار بالغرفة . ولكنه وجد بابها محكم الإغلاق والنافذة تسدها قضبان حديدية . وعلى هذا فقد عاد إلى مجلسه وأخرج من حافظة أوراقه خطة رحلته ، وأضاف إلى السطر المدون عليه «السبت الحادي والعشرون من ديسمبر : ليفرپول ، الكلمات الآتية : «اليوم الثمانون : الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعون صباحاً» .

ودقت ساعة الجمرك الواحدة ، ولاحظ مستر فوج أن ساعته تتقدم دقيقتين على ساعة الجمرك . ثم دقت الساعة الثانية . فلو استطاع فوج أن يركب في تلك اللحظة القطار السريع ، فإنه سوف يصل إلى لندن ثم إلى نادي «الريفورم» قبل الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين مساء . وتغضن جبين فوج قليلاً عند هذه الفكرة .

وفي الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والثلاثين ، سمعت ضوضاء في الخارج ، وأصوات أبواب تفتح ، وارتفع صوت پاسپارتو وصوت فيكس ، ولمعت عين فيلياس فوج برهة قصيرة . ثم فتح باب غرفة الجمرك ورأى فوج السيدة أوودا وپاسپارتو وفيكس يقبلون عليه مسرعين .

وكان فيكس يلهث وشعره أشعث ، ولم يكن بقادر على الكلام . على أنه تمتم قائلاً : «سيدي . . . سيدي . . . معذرة . . . كان هناك تشابه يؤسف له . لقد قبض على اللص الحقيقي منذ ثلاثة أيام . . . فأنت الآن حر» .

وعاد فيلياس فوج حراً! واتجه نحو الشرطي وحدق في وجهه . ثم أتى بالحركة السريعة الوحيدة التي لم يأت بغيرها في حياته : فقد أرجع ذراعيه إلى الخلف ، ثم دفع بهما إلى الأمام في دقة التمثال الآلي ، وضرب بقبضتيه المفتش التعس .

وصاح پاسپارتو : «يا لها من ضربة صائبة!» . ثم أردف قائلاً ، وهو يلقي دعابة قاسية جديرة برجل فرنسي «يا إلهي! هذا ما يمكن أن نسميه : ضربة بديعة من يد إنجليزية!»

وسقط فيكس ولم ينبس ببنت شفة ، ولم ينل سوى ما استحقه . على أنه في اللحظة نفسها غادر السيد فوج والسيدة أوودا وپاسپارتو الجمرك ، وألقوا بأنفسهم في عربة أوصلتهم في بضع دقائق إلى محطة ليفرپول .

وسأل فيلياس فوج عما إذا كان ثمة قطار سريع على أهبة الرحيل إلى لندن . وكانت الساعة وقتئذ الثانية والدقيقة الأربعين . . . وكان القطار السريع قد رحل منذ خمس وثلاثين دقيقة .

واستأجر فيلياس فوج حينئذ قطاراً خاصاً .

وكانت هناك عدة قاطرات ذات سرعة كبيرة ، ولكن نظراً إلى ما تتطلبه إدارة المرفق ، فإن القطار الخاص لم يكن يستطيع مغادرة المحطة قبل الساعة الثالثة .

وفي الساعة الثالثة انطلقت القاطرة في طريقها إلى لندن ، تقل فيلياس فوج الذي وعد الميكانيكي بجائزة معينة إن هو أسرع . وكان في صحبته الفتاة وخادمه الأمين . وكان لابد من اجتياز المسافة التي تفصل ليفرپول عن لندن في خمس ساعات ونصف ، وهذا أمر كان ممكناً لو كان الخط الحديدي خالياً طوال المسافة بين البلدين . على أنه حدث بعض التعطيل القهري . وحينما وصل السيد فوج إلى محطة لندن ، كانت جميع ساعات المدينة تشير إلى التاسعة إلا عشر دقائق .

وهكذا وصل فيلياس فوج متأخراً بمقدار خمس دقائق ، بعد أن أتم تلك الرحلة حول العالم .

وخسر بذلك الرهان .

٣٥

پاسپارتو ينفذ أوامر سيده في الحال

فلا يضطر إلى أن يكرر أمراً وجهه إليه

وفي اليوم التالي ، كان سكان « سافيل رو » يدهشون لو أكد لهم أحد الناس أن السيد فوج قد عاد إلى مسكنه . فقد كانت أبواب ونوافذ المنزل مغلقة . ولم يحدث أي تغيير في مظهره الخارجي . فإن السيد فوج ، إذ غادر المحطة ، أمر پاسپارتو بشراء بعض الأغذية ، ثم انصرف إلى منزله .

لقد تلقى هذا السيد الصدمة التي أصابته بهدوئه المعتاد . إنه قد أفلس! أفلس نتيجة لخطأ مفتش الشرطة الأخرق! فهو بعد أن اجتاز بخطا ثابتة كل تلك المسافة الطويلة ، وأزال من طريقه الكثير من العقبات ، وازدرى الكثير من الأخطار ، ثم وجد مع ذلك كله وقتاً يسمح له بفعل الخير وهو في طريقه ، أخفق بعد ذلك كله أمام اعتداء لم يكن في وسعه أن يتوقعه ، وكان في مواجهته أعزل من كل سلاح : كان كل هذا رهيباً! ولم يبق معه من المبلغ الكبير الذي كان يحمله في بدء رحلته إلا رصيد تافه . أما ثروته فلم تعد تتكون إلا من العشرين ألف جنيه المودعة في مصرف « إخوان بارينج » . وهذا المبلغ كان مديناً به لزملائه في نادي « الريفورم » . فهو لن يثري إذا ربح الرهان ، بعد أن أنفق الكثير من المال في هذه الرحلة . ومن المحتمل أنه لم يكن يسعى وراء الغنى ، فهو من أولئك الرجال الذين يراهنون باسم

الشرف . وإنما كان الرهان ، إذا ما خسره ، ينزل به الخراب التام . ثم إن السيد فوج كان قد قر قراره فيما سوف يعمله .

وحجزت غرفة في منزل « ساڤيل رو » للسيدة أوودا . وكانت السيدة الشابة بائسة . وقد أدركت من بعض كلمات قالها السيد فوج ، إنه كان ينفذ مشروعاً يائساً .

وكلنا نعلم في الواقع ذلك السلوك الشاذ المتطرف المؤلم الذي يسلكه أولئك الإنجليز الذين يتملكهم جنون الفكرة الثابتة . ولذلك أخذ پاسپارتو يراقب سيده دون أن يظهر عليه ذلك . وكان أول ما فعله ذلك الفتى الأمين أن صعد إلى غرفته ، وأطفأ مصباح الغاز الذي ظل مشتعلاً ثمانين يوماً . وكان قد عثر في صندوق الخطابات على إخطار من شركة الغاز ، فرأى أن الوقت قد حان ليوقف تلك الزيادة في النفقات التي كان هو مسؤولاً عنها .

وانقضى الليل . وكان السيد فوج راقداً ، ولكن هل نام ؟ أما السيدة أوودا فإنها لم تستطع أن تحظى بلحظة واحدة من الراحة . وسهر پاسپارتو هو الآخر ككلب أمين يحرس باب سيده .

وفي اليوم التالي استدعاه السيد فوج وأوصاه ، في كلمات موجزة أن يهتم بإفطار السيدة أوودا . أما هو فإنه سوف يكتفي بفنجان من الشاي وقطعة من الخبز المقدد . وسوف يعتذر للسيدة أوودا عن عدم مشاركته إياها في تناول طعام الإفطار والغداء ، فقد كان مشغولاً طول الوقت بترتيب حاجاته ، فلن ينزل إليها ، وسوف يطلب إليها أن تأذن له في أن يتحدث معها بضع لحظات حين يأتي المساء .

ولما أحيط پاسپارتو علماً بخطة اليوم ، لم يعد له سوى أن يرتب أموره وفقاً لها . وأخذ ينظر إلى وجه سيده الذي لا يعبر عن شيء . ولم يستطع أن يحمل نفسه على مغادرة الغرفة ، فقد كان مضطرب الفؤاد ، معذب الضمير من الندم ، لأنه أصبح يتهم نفسه الآن أكثر من ذي قبل بالتسبب في هذا الخراب الشامل الذي لم يعد له أي علاج . نعم ، فلو أنه كان قد أخطر السيد فوج بالأمر ، وكشف له عن مشروعات

الشرطي فيكس ، لما جر السيد فوج الشرطي في أذياله حتى ليفربول ، وعندئذ . . .

ولم يعد في وسع پاسپارتو أن يستمر في السكوت ، فصاح قائلاً :

« سيدي ، السيد فوج ، عليَّ اللعنة ، كان كل ذلك نتيجة غلطتي . . . »

فأجاب فيلياس فوج بلهجة هادئة كل الهدوء :

– « اذهب ، إنني لا أتهم أحداً » .

وغادر پاسپارتو الغرفة وذهب إلى السيدة الصغيرة وأعلنها بما أخبره به سيده .

وأضاف قائلاً : « سيدتي ، إنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً بنفسي! فليس لي أي نفوذ على سيدي . أما أنت فربما . . . »

فأجابت السيدة الشابة التي ظلت ساهمة تفكر « فلننتظر » .

وهكذا كان يبدو منزل « ساڤيل رو » خلال ذلك اليوم ، يوم الأحد ، وكأنه مهجور . ولم يذهب السيد فوج إلى ناديه ، أول مرة منذ أن سكن ذلك المنزل . ودقت الساعة الحادية عشرة والنصف في برج البرلمان .

ولماذا يذهب هذا السيد إلى نادي « الريفورم » ؟ إن زملاءه لم يعودوا ينتظرونه هناك ، وهو إذ لم يظهر في قاعة الاستقبال للنادي مساء البارحة ، في ذلك اليوم المنحوس ، يوم السبت الحادي والعشرين من ديسمبر ، في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين ، فقد خسر رهانه!

ولم يكن من الضروري أيضاً أن يذهب إلى المصرف الذي يتعامل معه ليسحب منه مبلغ العشرين ألف جنيه الذي يخصه . فإن خصومه كان بيدهم شيك موقع عليه منه . وكان يكفيهم أن يحرروا كلمة إلى مصرف « إخوان بارينج » ، فينتقل مبلغ العشرين ألف جنيه إلى حسابهم .

فلم يكن فوج إذن مضطراً إلى الخروج ، فلزم منزله ، بل بقي في غرفته ينظم شؤونه . ولم ينقطع پاسپارتو عن ارتقاء السلم ثم النزول

منه . ولم يكن هذا الشاب المسكين ليدرك سير الوقت . كان يأتي ليسترق السمع عند باب سيده ، ولم يكن يعتقد أنه يرتكب بعمله هذا أي إثم! وكان ينظر من ثقب الباب ويتصور أن هذا من حقه! كان يخشى وقوع كارثة ما في أية لحظة . وكان يفكر أحياناً في فيكس ، إلا أن شعوره من ناحية مفتش الشرطة قد تبدل ، فهو لم يعد يحقد عليه . إن فيكس قد أخطأ كما أخطأ كل الناس في معرفة حقيقة فيلياس فوج . وهو حين طارده ثم قبض عليه لم يكن إلا مؤدياً واجبه . . . بينما هو ، پاسپارتو . . . وألمته الفكرة ، واعتبر نفسه أكثر الناس تعاسة . ولما رأى نفسه آخر الأمر وحيداً ، شقياً في وحدته ، ذهب وطرق باب السيدة أوودا . ثم دخل غرفتها وجلس في ركن من أركان الغرفة لا يتكلم ، وأخذ ينظر إلى الشابة التي مازالت ساهمة تفكر . وفي حوالي الساعة السابعة والنصف مساء بعث السيد فوج إلى السيدة أوودا يسألها إن كانت تستطيع مقابلته . وبعد بضع لحظات كان الاثنان مجتمعين وحدهما في الغرفة .

وتناول فيلياس فوج مقعداً وجلس بالقرب من المدفأة مواجهاً السيدة أوودا . ولم يكن محياه ليعبر عن أي شعور . لقد كان فوج بعد عودته هو نفسه فوج عند رحيله ، في هدوئه وغموضه .

وبقي خمس دقائق لا يتكلم . ثم رفع عينيه نحو السيدة أوودا وقال :

« سيدتي ، هل تغفرين لي إحضاري إياك إلى انجلترا ؟ »

فأجابت السيدة أوودا وهي تهدئ دقات قلبها : « أنا ، يا سيد فوج! »

فاستطرد السيد فوج : « اسمحي لي أن أكمل حديثي . حينما فكرت في إبعادك عن تلك الأقطار التي أصبحت خطرة عليك ، كنت غنياً ، وكان في عزمي أن أترك جزءاً من ثروتي تحت تصرفك ، فتغدو حياتك سعيدة حرة ، أما الآن فقد أفلست » .

فأجابت الشابة قائلة : « أعلم ذلك يا سيد فوج ، وأنا أسألك

بدوري ، هل تغفر لي أن تبعتك و . . . . ومن يدري ، ربما أكون قد ساهمت ، بتعطيلي إياك ، فيما حل بك من خراب ؟ »

– سيدتي ، لم يكن في مقدورك البقاء في الهند ، ولم يكن في الإمكان تأمين سلامتك إلا إذا ابتعدت عنها بعداً كافياً لا يتمكن معه أولئك المتعصبون من أن يوقعوك مرة أخرى في أيديهم .

فعادت السيدة أوودا تقول : « وهكذا يا سيد فوج ، إنك لم تقنع بانتزاعي من مخالب موت فظيع ، بل اعتقدت أيضاً أنك ملزم بتأمين مركزي خارج بلادي ؟ »

فأجاب فوج قائلاً : « نعم يا سيدتي ، ولكن الأحداث انقلبت ضدي ومع ذلك فإني أطلب منك السماح بأن أعمل لصالحك بما بقي لي من مال قليل » .

فسألته السيدة أوودا : « ولكن أنت يا سيد فوج ؟ ما هو مصيرك ؟ »

فأجاب السيد المحترم ببرود « لست في حاجة إلى أي شيء » .

– ولكن كيف تواجه يا سيدي المصير الذي ينتظرك ؟

فأجاب السيد فوج : « كما ينبغي أن أفعل . . . »

فأردفت السيدة أوودا : « وعلى كل حال فإن البؤس لن يعرف طريقه إلى رجل مثلك ، فإن أصدقاءك ، . . . »

– ليس لي أصدقاء يا سيدتي .

– وأقاربك . . .

– ليس لي أقارب .

– إني أرثي لك إذن يا سيد فوج ، فالعزلة أمر محزن ، يا عجباً! أليس هناك قلب تودعه آلامك ؟ ومع ذلك يقولون إنه يمكن احتمال الشقاء إذا تقاسمه اثنان!

– يقولون ذلك يا سيدتي .

وعندئذ قالت السيدة أوودا التي نهضت ومدت يدها إلى السيد المهذب :

– يا سيد فوج ، هل بك حاجة إلى قريبة وصديقة في الوقت نفسه ؟ هل تقبلني زوجة لك ؟

ونهض السيد فوج إذ سمع هذا الكلام ، وظهر في عينيه بريق غير عادي ، وانتابت شفتيه رعشة خفيفة . وتأملته السيدة أوودا . ورنا إليها السيد فوج ، وأدهشته علامات الإخلاص والاستقامة والثبات والرقة التي كانت تتجلى واضحة كل الوضوح في تلك النظرة الفاتنة ، نظرة المرأة النبيلة التي تقدم على كل أمر لتنقذ ذلك الذي تدين له بكل شيء ، أدهشه كل ذلك بادئ الأمر ، ثم نفذ إلى أعماق نفسه . فأغمض عينيه لحظة ، وكأنه يتحاشى نفاذ تلك النظرة إلى فؤاده إلى عمق أبعد مما وصلت إليه ، ولما فتح عينيه قال ببساطة : « أنا أحبك! نعم إنني حقاً أحبك ، وأقسم على ذلك بأقدس ما في الدنيا! أحبك ، وأضع نفسي تحت تصرفك! »

فصاحت السيدة أوودا وهي تضع يدها على قلبها : « آه . »

واستدعى السيد فوج پاسپارتو ، الذي وصل في الحال ، وكان السيد فوج مازال ممسكاً بيد السيدة أوودا . وفهم پاسپارتو ، وأشرق وجهه كالشمس الساطعة في كل سماء البلاد الاستوائية .

وسأله السيد فوج عما إذا كان الوقت متأخراً للذهاب لمقابلة القس المحترم « صمويل ويلسون » خوري حي « ماري لوبون » .

وانفرجت أسارير پاسپارتو عن أعذب ابتسامة ، وقال : « ليس هناك إطلاقاً وقت متأخر » .

وتساءل السيد فوج وهو يرنو إلى السيدة الشابة :

– أيكون ذلك غداً الاثنين ؟

فأجابت السيدة أوودا ، « فليكن ، إلى الغد الاثنين » .

وخرج پاسپارتو يعدو .

٣٦

ارتفاع أسهم فيلياس فوج

من جديد في السوق

آن الأوان لأن نذكر ما حدث لأفكار الناس في المملكة من انقلاب حين ذاع نبأ القبض على اللص الحقيقي للبنك ، وهو شخص يدعى « جيمس ستراند » . وقد تم القبض عليه في السابع عشر من ديسمبر في « إيدينبرج » .

فقبل ذلك بثلاثة أيام ، كان فيلياس فوج مجرماً تطارده الشرطة مطاردة عنيفة . أما الآن فقد أصبح رجلاً شريفاً يقوم في دقة آلية بإتمام رحلة عجيبة حول العالم .

وكم كان لهذا النبأ من أثر عميق وصدى كبير في الصحف! فقد حرك من جديد ، وكأنه السحر ، كل أولئك الذين كانوا قد نسوا تلك القضية . وعادت المراهنات والمشارطات فأصبحت صحيحة . وقامت الالتزامات من جديد . بل عادت المراهنات أنشط من ذي قبل . وارتفعت أسهم فيلياس فوج من جديد في السوق .

وقضى رفاق السيد فوج الخمسة في نادي « الريفورم » هذه الأيام الثلاثة في شيء من القلق . فقد عاد ذلك السيد فيلياس فوج الذي كانوا قد نسوه ليبدو لناظريهم من جديد . فأين كان في ذلك الوقت ، أي في اليوم السابع عشر من ديسمبر ، اليوم الذي قبض فيه على

جيمس ستراند ؟ وقد انقضى سبعة وسبعون يوماً منذ اليوم الذي رحل فيه فيلياس فوج ، ولم يصل أي خبر عنه! فهل فشل في رحلته ؟ أم أنه قد تخلى عن المحاولة ، أو مازال سائراً في طريقه طبقاً للخطة المرسومة ؟ وهل سيظهر في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين من مساء السبت الحادي والعشرين من ديسمبر على عتبة القاعة الكبرى لنادي « الريفورم » ، بما عهد فيه من دقة آلية ؟

ويجدر بنا أن نتخلى عن وصف القلق الذي عاش فيه ذلك المجتمع الإنجليزي خلال تلك الأيام الثلاثة . فقد أرسلت برقيات إلى أميريكا وإلى آسيا تتقصى أخبار فيلياس فوج! وبعثوا من يراقب منزل « سافيل رو » في الصباح وفي المساء كل ذلك دون جدوى . ولم تعد إدارة الشرطة نفسها تعرف مصير المخبر فيكس الذي ألقى بنفسه ، لحظه العاثر ، في أثر خاطئ . كل ذلك لم يمنع انعقاد المراهنات من جديد على نطاق أوسع . وأصبح فيلياس فوج كجواد السباق الذي يعدو في المنحنى الأخير . ولم يعد القوم يراهنون عليه في مقابل مائة ، بل في مقابل عشرين ثم عشرة ثم خمسة ، بل راهن عليه اللورد « البيرمال » العجوز المشلول رهان المثل بالمثل ، وعلى ذلك ففي مساء السبت ، اجتمع جمهور كبير من السماسرة استقروا على حدود نادي « الريفورم » وتعطل المرور . وكان الناس يتناقشون ويتنازعون ، وينادون على أسعار « فيلياس فوج » ، كما ينادون على أسعار الأوراق المالية الإنجليزية . ووجد رجال الشرطة مشقة في كبح جماح الجمهور . وكلما اقتربت الساعة التي يجب أن يصل فيها فيلياس فوج ، ازداد الاضطراب والانفعال لدرجة كبيرة لا مثيل لها .

وفي ذلك المساء اجتمع رفاق السيد فوج منذ الساعة السابعة في القاعة الكبرى للنادي . وكان الجميع ينتظرون في لهفة المصرفيين جون سوليفان ، وجوتييه رالف ، ومدير بنك انجلترا ، ورجل الأعمال الكبير توماس فلانجان .

وفي اللحظة التي أشارت فيها ساعة القاعة الكبرى إلى الثامنة

والدقيقة الخامسة والعشرين ، نهض اندرو ستيوارت وقال : « سادتي ، بعد عشرين دقيقة ، تنقضي المهلة المتفق عليها بيننا وبين السيد فيلياس فوج » .

وسأل توماس فلانجون : « في أي ساعة وصل القطار الأخير القادم من ليفربول ؟ »

فأجاب جوتييه رالف : « في الساعة السابعة والدقيقة الثالثة والعشرين ولن يصل القطار الذي يليه إلا في منتصف الليل » .

فاستطرد اندرو ستيوارت قائلاً : « حسناً أيها السادة ، إذا كان فيلياس فوج قد وصل في قطار السابعة والدقيقة الثالثة والعشرين ، فإنه لابد أن يكون قد وصل هنا قبل الآن ، فيمكننا إذن أن نعتبر أننا قد كسبنا الرهان » .

فأجاب صمويل فالنتين : « فلننتظر ، ولا نصدر حكماً نهائياً فأنتم تعلمون أن زميلنا رجل غريب الأطوار إلى أبعد الحدود . ودقته في كل الأمور شيء معروف لنا جميعاً . وهو لا يتأخر كثيراً ، ولا يبكر كثيراً في الوصول في موعده وسيظهر هنا في اللحظة الأخيرة وسوف لا أدهش إذا حدث ذلك » .

وقال أندرو ستيوارت الذي كان في حالة عصبية كالمعتاد : « أما أنا ، فإنني لن أصدق عيني لو رأيته! »

وقال توماس فلانجان : « إن مشروع فيلياس فوج لم يكن في الواقع معقولاً . ومهما كانت دقته ، فإنه لم يكن في استطاعته أن يمنع حدوث التأخيرات التي لا يمكن تفاديها . وكان يكفي تأخر قدره يومان أو ثلاثة أيام ليعرض رحلته للفشل » .

وأضاف جون سوليفان قائلاً : « وتلاحظون فضلاً عن ذلك أننا لم نتلق أي خبر عن زميلنا ، في حين أن الأسلاك البرقية ممتدة على طول خط سيره » .

وقال اندرو ستيوارت : « إنه فقد رهانه أيها السادة ، لقد فقده حقاً! أنتم تعلمون أن « الصين » ، وهي السفينة الوحيدة التي كان في

إمكانه أن يستقلها في نيويورك ليصل إلى ليفربول في الوقت المناسب ، قد وصلت بالأمس . وإليكم قائمة الركاب التي نشرتها جريدة الشيبنج جازيت ، ولا يوجد فيها اسم فيلياس فوج . فزميلنا الآن ، على أحسن الفروض ، في أميركا! وإنني لأقدر التأخير الذي سوف يتحمله بمقدار عشرين يوماً على الأقل عن الموعد المتفق عليه . ولابد أن يخسر لورد البيرمال العجوز هو الآخر ، مبلغ الخمسة آلاف الجنيه التي راهن بها » .

وأجاب « جوتييه رالف » : إن الأمر واضح ، ولن يبقى لنا في الغد سوى أن نقدم شيك مستر فوج إلى مصرف إخوان بارينج » .

وفي هذه اللحظة ، أشارت ساعة قاعة الاستقبال إلى الثامنة والدقيقة الأربعين فقال اندرو ستيوارت « بقي أمامنا خمس دقائق » .

وتبادل الزملاء الخمسة النظرات . ونستطيع القول إن قلوبهم قد أسرعت دقاتها قليلاً ، فقد كان الرهان كبيراً ، حتى بالنسبة إلى لاعبين مهرة! ولكنهم لم يشاؤوا أن يبدو عليهم أي تأثر ، فقد جلسوا ، كما اقترح عليهم « صمويل فالنتين » ، إلى إحدى موائد اللعب .

وقال أندرو ستيوارت وهو يجلس : « إنني لن أتنازل عن رهاني على مبلغ أربعة آلاف جنيه ، حتى ولو عرض عليَّ الآن في سبيل ذلك ، ثلاثة آلاف وتسعمائة وتسعة وتسعون جنيهاً » .

وأشار عقرب الساعة في تلك اللحظة إلى الثامنة والدقيقة الثانية والأربعين . وأمسك اللاعبون بأوراق اللعب . على أن عيونهم كانت في كل لحظة تتجه إلى الساعة . ونستطيع أن نؤكد أن الدقائق لم تبدُلهم أبداً من قبل في مثل طولها الحالي على الرغم من ثقتهم بأنهم رابحون!

وقال « توماس فلانجان » ، وهو يقسم أوراق اللعب التي قدمها له « جوتييه رالف » : « الساعة الثامنة والدقيقة الثالثة والأربعون »

ومرت لحظة سكون ، عمت قاعة النادي الفسيحة ، ولكنه كانت تسمع في الخارج جلبة الجمهور التي كانت تعلوها في بعض الأحايين صيحات حادة . وكان رقاص الساعة يدق الثواني بنظام حسابي دقيق . وكان كل لاعب يستطيع أن يحسب الثواني التي كانت تدق في أذنيه .

وقال جون سوليفان بصوت يتبين المرء فيه انفعالاً غير إرادي : « الساعة الثامنة والدقيقة الرابعة والأربعون! » . ولم تبق إلا دقيقة واحدة فيربح الرهان . ولم يعد أندرو ستيوارت وزملاؤه يلعبون ، فقد تركوا الورق! وعكفوا على الثواني يعدونها ؟

ودقت الثانية الأربعون ، لاشيء . وعند الثانية الخمسين ، لم يحدث أيضاً شيء وعند الثانية الخامسة والخمسين ، ارتفع في الخارج صوت كهزيم الرعد : تصفيق وهتافات ، بل وبعض اللعنات ، انتشرت في هدير متواصل ونهض اللاعبون .

وفي الثانية السابعة والخمسين ، انفتح باب القاعة ، ولم يكد رقاص الساعة يدق الثانية الستين حتى ظهر فيلياس فوج يتبعه جمهور يغلي حماسة . ودفع فوج الباب وصاح قائلاً بصوته الهادئ : هاأنذا أيها السادة! » .

٣٧
فيلياس فوج لم ينل شيئاً
من رحلته حول العالم اللهم إلا السعادة

نعم! كان هذا هو فيلياس فوج بلحمه ودمه . ونذكر أنه في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة مساء ، أي بعد وصول المسافرين إلى لندن بخمس وعشرين دقيقة تقريباً ، كان پاسپارتو قد كلفه سيده بإخطار القس المحترم صمويل ويلسن لعقد زواج كان سيتم في اليوم التالي .

وعلى ذلك فقد انصرف پاسپارتو مسروراً ، وسار مسرعاً نحو المنزل الذي يقطنه القس ، ولم يكن الأخير قد عاد إلى مسكنه بعد . وانتظر پاسپارتو بطبيعة الحال ، بل إنه انتظر عشرين دقيقة على الأقل .

وبالاختصار ، كانت الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثين حين خرج من منزل القس ، ولكنه كان في حالة عجيبة! مشوش الشعر ، بغير قبعة ، وطفق يجري ويجري ، جرياً لا نذكر أن شاهد مثله إنسان من قبل ، وكان يقلب في طريقه المارة ، مندفعاً على الأرصفة وكأنه إعصار .

وفي ثلاث دقائق كان قد عاد إلى منزل « ساڤيل رو » واندفع وهو يلهث إلى غرفة مستر فوج ، ولم يكن في مقدوره أن يتكلم .

وسأله مستر فوج : « ما الأمر ؟ »

فتمتم پاسپارتو : سيدي . . . الزواج . . . مستحيل . . . »

- مستحيل ؟
- الزواج مستحيل غداً .
- ولماذا ؟
- لأن الغد . . . يوم الأحد .
- غدا الاثنين .
- كلا . . . اليوم . . . يوم السبت .
- السبت ؟ مستحيل .

فصاح پاسپارتو : بلى ، بلى ، إنه السبت . لقد أخطأت في حسابك يوماً واحداً . لقد وصلنا مبكرين عن موعدنا بأربع وعشرين ساعة . . . ولم يعد أمامنا سوى عشر دقائق .

وأمسك پاسپارتو بسيده من ياقته وأخذ يجره بقوة لا تقاوم .

وهكذا غادر فيلياس فوج الغرفة كالمخطوف ، دون أن يجد وقتاً للتفكير . ثم غادر المنزل وقفز في عربة ، ووعد الحوذي بمائة جنيه إن هو أسرع . وبعد أن دهست العربة كلبين ، واحتكت بخمس عربات ، وصل فوج إلى نادي « الريفورم » . وكانت الساعة تشير إلى الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين حينما ظهر في القاعة الكبرى .

وعلى ذلك فقد أتم فيلياس فوج تلك الرحلة حول العالم في ثمانين يوماً! وربح فيلياس فوج رهانه على مبلغ عشرين ألف جنيه .

وآن لنا أن نتساءل كيف أخطأ رجل مدقق مثل فوج في حسابه يوماً كاملاً ؟ وكيف اعتقد أنه كان في يوم السبت الحادي والعشرين من ديسمبر حين وصل إلى لندن ، بينما كان تاريخ وصوله إليها هو في الواقع يوم الجمعة العشرون من ديسمبر ، أي بعد تسعة وسبعين يوماً منذ رحيله من لندن .

وإليكم السبب في هذا الخطأ وهو سبب في غاية البساطة : فإن فيلياس فوج كان قد ادخر يوماً من حساب خطة سيره ، من غير أن يعلم ذلك ، لأنه دار حول العالم سائراً في اتجاه الشرق . وكان سيفقد على العكس من ذلك يوماً إذا سار في الاتجاه العكسي ، أي في اتجاه الغرب .

والواقع ، أن فيلياس فوج ، وقد سار نحو الشرق ، كان يواجه الشمس ، ونتيجة لذلك ، فإن الأيام كانت تتناقص بالنسبة إليه بمعدل أربع دقائق كلما اجتاز درجة طولية في اتجاه الشرق . ولما كانت هناك ثلاثمائة وستون درجة على محيط الكرة الأرضية ، وهذه الدرجات ، إذا ضرب عددها في أربع دقائق ، فإنه ينتج عنها أربع وعشرون ساعة ، وهي ذلك اليوم الذي ادخره فوج . وبمعنى آخر ، فإنه بينما كان فيلياس فوج يسير نحو الشرق ، وشاهد الشمس تمر ثمانين مرة فوقه في سمت السماء ، فإن زملاءه الذين بقوا في لندن لم يروها تمر فوقهم إلا تسعاً وسبعين مرة . ولذلك فإن هؤلاء الزملاء كانوا ينتظرونه في قاعة نادي الريفورم ، في ذلك اليوم نفسه ، وكان يوم السبت ، وليس الأحد كما كان يعتقد مستر فوج .

وذلك ما كان يمكن أن تسجله ساعة پاسپارتو ، التي كانت تشير دائماً إلى الوقت الذي تحسبه ساعة لندن ، لو كانت تلك الساعة تعد الأيام كما تعد الساعات والدقائق .

وعلى ذلك فقد ربح فيلياس فوج مبلغ العشرين ألف جنيه . ولكنه لما كان قد أنفق في طريقه حوالي تسعة عشر ألف جنيه ، فإن ما ربحه كان مبلغاً تافهاً . ومع ذلك فإن السيد الغريب الأطوار كان ، كما قيل عنه ، لا يسعى وراء الربح المادي بل ينشد النضال . وحتى مبلغ الألف جنيه الذي بقي له ، فإنه أعطاه لپاسپارتو الأمين ولفيكس التعس ، الذي لم يكن في وسع فوج أن يحقد عليه . ولكنه مع ذلك احتجز من أجر خادمه قيمة استهلاك ألف وتسعمائة ساعة من الغاز نتيجة لخطئه .

وفي المساء نفسه قال السيد فوج برزانته وهدوئه المعهودين مخاطباً السيدة أوودا : « أمازلت توافقين على ذلك الزواج يا سيدتي ؟ »

فأجابت السيدة أوودا : « سيد فوج ، أنا التي يجب أن أوجه لك هذا السؤال . لقد كنت مفلساً ، ثم أصبحت الآن غنياً . . . »

- أرجوك المعذرة يا سيدتي ، إن ثروتي هذه تخصك ، ذلك لأن فكرة الزواج إذا لم تكن قد طرأت على بالك ، فإن خادمي لم يكن قد

ذهب لمقابلة القس صمويل ويلسن ، ولم أكن قد أدركت خطئي و . . . .

فقالت الشابة : « عزيزي السيد فوج . . . »

وأجاب فيلياس فوج : عزيزتي أوودا . . .

وتم بذلك عقد القران بعد ثمان وأربعين ساعة . وكان پاسپارتو شاهد السيدة الشابة ، متلألئاً متألقاً بهي الطلعة .

ألم ينقذها ؟ ألا يدين له الجميع بهذا الشرف ؟

إلا أنه في صباح اليوم التالي ، طرق پاسپارتو بقوة على باب سيده . وفتح الباب وبدا السيد الرزين .

– ما الأمر يا پاسپارتو ؟

– سيدي! علمت الآن فقط . . .

– ماذا علمت إذن ؟

– علمت أنه يمكننا أن نطوف حول العالم في ثمانية وسبعين يوماً فقط .

فأجاب فوج : « لاشك في ذلك ، إذا لم نكن قد عبرنا الهند ، ولكن إذا لم أكن قد عبرت الهند فإنه لم يكن يتاح لي أن أنقذ السيدة أوودا ، ولم تكن هي قد أصبحت زوجتي ، و . . . . »

وأغلق السيد فوج الباب بهدوء .

وهكذا ربح السيد فوج رهانه . وأتم رحلته تلك حول العالم في ثمانين يوماً! واستخدم في سبيل ذلك كل وسائل الانتقال من بواخر وسكك حديدية وعربات ويخوت وسفن تجارية ، وزاحفات ، وفيلة ، وأبدى السيد الغريب الأطوار في هذه المهمة ما يتمتع به من فضائل رائعة : رباطة جأش ودقة . ولكن ماذا جناه بعد ذلك كله ؟ ماذا كسبه من تلك الرحلة ؟ فقد يقال إنه لم يربح شيئاً ؟ فليكن ، ولكنه ربح زوجة فاتنة جذابة ، جعلته أسعد رجل على وجه الأرض ، مهما بدا ذلك الأمر بعيداً عن الحقيقة!

حقاً ، ألا يقدم إنسان على الطواف حول العالم في سبيل ربح أقل من هذا بكثير ؟

الفهرس

كلمة عن المؤلف 7

فيلياس فوج وپاسپارتو يتفقان على أن يعمل الثاني خادماً عند الأول 9

واقتنع پاسپارتو بأنه قد عثر أخيراً على مثله الأعلى 15

حديث قد يكلف فيلياس فوج غرماً كبيراً 20

فيلياس فوج يذهل خادمه پاسپارتو 29

ظهور قيمة مالية جديدة في سوق لندن 34

المخبر فيكس يبدي قلقاً له ما يبرره 38

دلالة أخرى على عدم جدوى جوازات السفر في أمور الشرطة 44

پاسپارتو يتكلم أكثر بقليل مما يجوز له أن يقوله 48

البحر الأحمر والمحيط الهندي يتلاءمان مع خطط فيلياس فوج 53

پاسپارتو يحمد الله على خلاصه من موقف حرج وإن كان قد فقد حذاءه 60

فيلياس فوج يشتري دابة بثمن خيالي 67

مغامرة فيلياس فوج ورفاقه باختراق غابات الهند وما تلاها من أحداث 78

پاسپارتو يثبت مرة أخرى أن الحظ يواتي كل شجاع 86

فيلياس فوج يجتاز كل وادي الجانج البديع دون أن يفكر في مشاهدته 94

بضعة آلاف من الجنيهات تخرج من حقيبة الأوراق المالية فيخف بذلك وزنها 102

فيكس يبدو أنه لا يدرك ما يقال له 110
ما حدث في أثناء الرحلة من سنغافورة إلى هونج كونج 117
فيلياس فوج وپاسپارتو وفيكس يمضي كل منهم إلى سبيله 125
پاسپارتو يرعى شؤون سيده 131
فيكس يتصل بفيلياس فوج اتصالاً مباشراً 140
صاحب السفينة «تانكادير» يوشك أن يخسر جائزة قدرها مائتا جنيه 184
پاسپارتو يرى أنه من الفطنة أن يكون في جيب الإنسان بعض النقود 159
حتى في البلاد الواقعة على الوجه الآخر من الكرة
پاسپارتو يطيل أنفه لدرجة كبيرة 167
إتمام رحلة المحيط الهادي 175
لمحة وجيزة عن سان فرنسيسكو في يوم اجتماع شعبي 183
القطار السريع في خط الپاسيفيك الحديدي 191
پاسپارتو يحضر درساً في تاريخ «المورمون» وهو يسير بسرعة عشرين ميلاً في الساعة 198
فشل پاسپارتو في أن يحمل الناس على أن يستمعوا لصوت العقل 206
بعض الحوادث المختلفة التي لاتقع إلا في السكك الحديدية للاتحاد الأمريكي 216
فيلياس فوج يؤدي واجبه ولا شيء غير الواجب 225
المفتش فيكس يهتم اهتماماً جدياً بمصالح فيلياس فوج 234
فيلياس فوج يعلنها حرباً شعواء على الحظ السيّىء 242
فيلياس فوج يبرهن على أنه كفء لمواجهة جميع الظروف 248
پاسپارتو تسنح له الفرصة فيلقي نكتة قاسية ولكنها فريدة في بابها 258
پاسپارتو ينفذ أوامر سيده في الحال فلا يضطر إلى أن يكرر أمراً وجهه إليه 262
ارتفاع أسهم فيلياس فوج من جديد في السوق 268
فيلياس فوج لم ينل شيئاً من رحلته حول العالم اللهم إلا السعادة 273

هكذا نريده؛ إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

سلسلة كتب شهرية
توزع مجاناً
مع الصحف التالية

القبس الكويت

- الأيام البحرين
- البيان الإمارات
- الثورة سورية
- الحياة السعودية
- السفير لبنان
- القاهرة مصر
- المدى العراق
- الاتحاد العراق

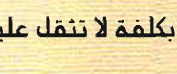

كل الأطراف المشاركة في
هذا المشروع العربي متنازلة
عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN: 2-84305-746-X
9 782843 057465

تصميم وتنفيذ الغلاف
خضر مصطفى دبوق